

A large, detailed sculpture of a man's face, likely a prophet or a historical figure, with a long, grey beard and a crown adorned with red jewels. The sculpture is set against a background of a city street scene with people and buildings.

الشيخ علي حسن غلوم

الإسراء
والوعد الآخر

الشيخ
علي حسن غلوم

الإسراء
والوعد الآخر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ما هي حلقة الارتباط بين الإسراء بالنبي ﷺ إلى
المسجد الأقصى، والسُّنن التاريخية الحاكمة على تاريخ
ومصير بني إسرائيل في الماضي والمستقبل كما جاء في
الآيات الأولى من سورة الإسراء؟

هذا ما يحاول الكتاب اكتشافه من خلال البحث
التفصيلي في ما عرضته سورة الإسراء ونصوص
الكتاب المقدس ومصادر التاريخ.

١٥	المقدمة بقلم المؤلف
١٩	١. مدخل وتمهيد
٢١	موضوعات هذا الفصل
٢٢	معلومات عامة
٢٢	أهم موضوعات السورة
٢٣	أسماء السورة
٣١	مكية أم مدنية؟
٣٥	زمن نزول السورة
٣٨	أسباب نزول بعض آياتها
٤٣	فضائل السورة وبعض آياتها
٥١	خلاصة الفصل
٥٣	٢. الإسراء والأقصى
٥٥	موضوعات هذا الفصل
٥٦	بداية جذابة

- ٥٧ دلالة كلمة أسرى
- ٥٨ التشرف بالعبودية لله
- ٦٠ حدث خارق
- ٦١ مبدأ الإسراء
- ٧٦ منتهى الإسراء
- ٨٨ تأسيس المسجد الأقصى
- ١٠١ تنقيح ما سبق
- ١١٢ مناقشة الحق التاريخي لليهود
- ١٢٣ الأرض المباركة
- ١٢٣ آيات الله
- ١٢٥ الإسراء والصلاة
- ١٣٧ خاتمة الآية
- ١٣٧ هل تُعدّ حادثة الإسراء معجزة؟
- ١٤٣ خلاصة الفصل
- ١٤٥ ٣. بنو إسرائيل بين الوعد والوعد
- ١٤٧ موضوعات هذا الفصل
- ١٤٨ بين الإسراء وبني إسرائيل
- ١٦٠ كتاب بني إسرائيل
- ١٦٢ توحيد الله في الربوبية

١٦٥	ذرية نوح وإبراهيم
١٧٦	القضاء الإلهي بحق بني إسرائيل
١٧٧	هل كانوا عباداً مؤمنين؟
١٧٩	ما بعد الوعد الأول
١٨٠	تحذير ووعيد
١٨٢	تطبيق الآيات وتأويلها
١٨٧	روايات وآراء غريبة
١٩٥	الرأي المختار
١٩٦	المصدر الأول
٢٠٢	المصدر الثاني
٢٠٤	عرض تاريخي موجز
٢٠٩	الوعيد في سفر إشعياء
٢١٨	الوعيد في سفر إرميا
٢٢٦	نتيجة ما سبق
٢٢٨	الإمام المهدي وبيت المقدس
٢٣٦	خلاصة الفصل
٢٣٩	٤. المعراج إلى السماء
٢٤١	موضوعات هذا الفصل
٢٤٢	حساسية الموضوع

٢٤٨	كم مرة عُرج بالنبى؟
٢٥٣	هل للمعراج ذكرٌ فى القرآن؟
٢٦٢	المعراج فى الروايات
٢٧٧	هل تمّ المعراج بالجسد؟
٢٧٩	شقّ الصدر وغسّل الأحشاء
٢٨٥	سدرة المنتهى
٢٩١	البُراق
٢٩٩	أنهار متصلة من السماء إلى الأرض
٣٠٤	تقرير مصير الأمة
٣٠٦	التوظيف المذهبى
٣١٥	معراج النبى موسى
٣٢٨	خاتمة
٣٢٨	خلاصة الفصل
٣٣١	مصادر الكتاب
٣٤١	صدر للمؤلف

بقلم المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

بعد الانتهاء من سلسلة الكليم موسى بن عمران «عليه السلام»، وجدت من المناسب أن أتوقف عند ما تناولته الآيات الأولى من سورة الإسراء حول ماضي بني إسرائيل ومستقبلهم، لارتباط ذلك بما أسهبْتُ في الحديث حوله -من خلال الأجزاء الثلاثة التي صدرت- حول أوضاع بني إسرائيل قبل تكليف النبي موسى بالرسالة، وبعد ذلك، إلى حين وفاته وغيباه عنهم بتلك الصورة الغريبة التي عرضتها النصوص الكتابية، والتي تدلّ على اختفاء أثره وجهلهم بكيفية وفاته ودفنه، وموضع قبره.

والآيات الأولى (١-٨) من سورة الإسراء لا تكتفي بالحديث عن ماضي ومستقبل بني إسرائيل، بل وتبدأ بالإشارة إلى الإسراء بالنبي محمد «صلى الله عليه وآله» من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن ثم تُعرج للحديث عن بني إسرائيل مع بيان السّنة الإلهية الحاكمة على حركتهم في التاريخ، مما يثير تساؤلات عدّة حول وجود ارتباطٍ ما بين الأمرين، وماهيّة الرسائل المحتملة لهذا الارتباط، وعن علاقة هذه الآيات بالآيات اللاحقة (من الآية ٩ فما بعد) والتي تحدثت عن دور القرآن الكريم في الهداية وعن مجموعة من الوصايا والتشريعات الخاصة بأمة محمد.

وحيث وقع الاختلاف الكبير في تأويل الأحداث المشار إليها في سورة الإسراء حول بني إسرائيل، وهل هي من أحداث الماضي أم المستقبل أم هي من هذا وذاك؟ وإن كانت من أحداث الماضي فما هي على وجه التحديد؟ وما تفاصيلها؟ وهل يحيلنا القرآن الكريم إلى النصوص الكتابية لاستكشاف ذلك أم أنها غير موثقة في التاريخ الكتابي؟ لكل هذا، فقد خصّصتُ قسماً من هذا الكتاب للبحث في هذا الموضوع الشيق الذي تتوق الأنفس لمعرفته، وتتشوّف لاكتشافه، من خلال عرض ما ذكره المفسّرون والمؤرّخون والباحثون في هذا الإطار، مع النقد والتحليل، ومن ثمّ بيان الرأي الراجح عندي بالأدلة المستقاة من مصادر أهل الكتاب، بلحاظ أن الآية الرابعة من السورة تشير إلى أَنَّ الله «تعالى» حدّر بني إسرائيل -مسبقاً- من وقوع الحدثين الرئيسيين المذكورين في هذه الآيات، ومثل هذا التحذير والإشارة إليهما يعني ذكرهما وتوثيقهما في بعض مصادرهم، وبصورة تكون فيها الآيات القرآنية حُجّة على أهل الكتاب للدلالة على مصداقية ما جاء في القرآن الكريم، ومصادقية رسالة نبينا «صلى الله عليه وآله» الذي أوصل إليهم كلامَ الله «تعالى»، وبصورة دقيقة لا

يمكن أن يمتلك معرفتها إلا أصحاب الاختصاص من أهل الكتاب، أو أن تكون من عند الله، في حين أن النبي لم يكن يقرأ ولا يكتب، ولم يتلق من أهل الكتاب علماً من قبل.

كما وسأتناول في كتابي هذا، بصورة موجزة ومجملة، موضوع الستة الإلهية الحاكمة على حركة بني إسرائيل عبر التاريخ، وتأثير ذلك على مستقبلهم، خاصة فيما يتعلّق بالصراع مع المسلمين، وما سيقع في زمن ظهور الإمام المهدي المنتظر «عليه السلام»، وما إذا كانت الآيات من سورة الإسراء قد تناولت شيئاً من ذلك، مع إطلالة على الأحاديث التي وردت في كتب المسلمين حول هذا الموضوع.

ولأنّ السورة بدأت بالإسراء، لذا فسيكون لهذا الحدث العظيم حصّة من الكتاب، من حيث التدقيق في دلالات الكلمات المستعملة في الآية الأولى من السورة، ودراسة مدى توافق دلالة مرويات المسلمين مع ظاهر الآية الشريفة.

وحيث يتم ربط الإسراء -عادةً- بالمعراج، في حين أنّ كلاّ منهما حدث مستقلّ -بنحوٍ ما- عن الآخر، لذا كان من الضروري معالجة موضوع المعراج -قرآنيّاً- بشكل منفصل، للاطلاع على الأدلّة في مقامي النفي والإثبات، والتفاصيل الواردة في كتاب الله حول أحداث المعراج، وذلك على فرض ثبوت أصل الحدث، وماذا جاء في روايات المسلمين حول هذا الموضوع، وتقييم تلك المرويات من حيث السند والمضمون.

كما يتضمن الكتاب بحثاً فرعياً حول مصادر أسماء السور القرآنية ومعايير تسميتها، وهل هي توقيفية أم اجتهادية، زمن نزول سورة الإسراء وارتباطها بتشريع الصلاة، تاريخ المسجد الحرام والمسجد الأقصى وعلاقة الثاني بهيكل سليمان، إضافة

إلى نقاش حول حق اليهود في الأرض الفلسطينية والقدس والمسجد الأقصى، وموضوعات أخرى ذات صلة.

أَسْأَلُ اللَّهَ «تعالى» أَنْ أَكُونَ قَدْ وَفَّقْتَ فِي طَرَحٍ وَمَنَاقِشَةِ الْآرَاءِ الدَّائِرَةِ حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَهُوَ -مَنِّي- مَجَرَّدُ مَحَاوِلَةٍ اجْتِهَادِيَّةٍ، قَدْ تَصَيَّبَ وَقَدْ تُخْطِئُ، وَاللَّهُ «تعالى» هُوَ الْعَالَمُ بِحَقَائِقِ التَّأْوِيلِ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (١).

علي حسن غلوم علي

الكويت - ١٤٤٧ هـ / ٢٠٢٦ م

١

مدخل وتمهيد

مدخل وتمهيد

• موضوعات هذا الفصل:

- بيان إجمالي لأهم موضوعات سورة الإسراء.
- ما هي الأسماء الأخرى لسورة الإسراء، وما مصدر هذه الأسماء؟ وهل أسماء السور القرآنية عموماً توقيفية أم لا؟ وما أدلة الفريقين؟
- بحث حول المراد من مكّية السور ومدنيتها، وهل في سورة الإسراء المكّية آيات مدنية؟
- عرض تفصيلي للاختلاف الواسع في تحديد زمن وقوع حادثة الإسراء، وبدء نزول السورة، والأسباب المدّعاة لنزول بعض آياتها في المناسبات المختلفة.
- الفضائل المروية لسورة الإسراء وتلاوتها، وما صحّة آثار ذكر أو كتابة بعض آياتها بطرق خاصّة مروية، ودور الصّالحين في وضع الحديث في هذا الباب.

• معلومات عامة:

عدد آيات سورة الإسراء: ١١١ آية.

ترتيبها في المصحف الشريف: ١٧.

ترتيبها المحتمل في بدء نزولها: ٥٠ من بين ٨٢ سورة مكية.

• أهم موضوعات السورة:

١. تسبيح الله «تعالى» وتنزيهه، وقد بدأت به السورة لفظاً: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١)، واختتمت به معنى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾^(٢)، كما اكتسبت السورة لنفسها من ذلك اسماً فقيل (سورة سبحان)، وربطت التسبيح والتنزيه بالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

٢. ماضي بني إسرائيل ومآلات حركتهم في التاريخ ومستقبلهم ضمن قواعد السنن الإلهية الحاكمة على حركة الأمم.

٣. الوصايا والحكم الاثنا عشر.

٤. مصادر الهداية والضلال، والقواعد الحاكمة عليها، وتأثيرها في الدين والآخرة، ومواقف الناس المتباينة تجاهها منذ عهد آدم، واختلاف أحوالهم في الآخرة انطلاقاً من تباين مواقفهم تجاهها.

١. سورة الإسراء: ١.

٢. سورة الإسراء: ١١١.

٥. أهمية القرآن الكريم ومحوريته في الهداية.

٦. التحديات الصعبة التي واجهها النبي «صلى الله عليه وآله» في مسيرته الرسالية، والدور الإلهي في التسديد والتأييد والتُّصرة، ووظيفة الآيات «المعاجز» في مسيرة الرسل.

٧. تشريع أوقات الصلاة.

• أسماء السورة:

ذكر بعض المفسرين أن لهذه السورة ثلاثة أسماء، هي:

١. الإسراء: حيث ذُكرت حادثة الإسراء في الآية الأولى من السورة باستعمال كلمة «أَسْرَى»: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ...﴾. قال الطبري: (والإسراء والسُّرى: سَير الليل. فَمَنْ قال: أسرى، قال: يَسري إسراءً، وَمَنْ قال: سَرى، قال: يَسري سُرىً، كما قال الشاعر:

وليلة ذاتِ دجى سَرَيْتُ ولم يَلْتَنِي عن سُراها لَيْتُ

ويُروى: ذات ندى سَرَيْتُ)^(١).

٢. بني إسرائيل: إذ تناولت السورة الحديث عنهم في الآيات ٢-٨ و١٠١-١٠٤، وقد كان هذا هو اسمها الشائع سابقاً، وفقاً لدلالة روايات الصحابة والتابعين من مصادر الشيعة والسنة، وسأذكر بعض الشواهد عند الحديث عن فضائل السورة.

٣. سبحان: إذ كانت هذه أوّل كلمة في السورة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ...﴾. كما تكرّرت الكلمة في الآيات: ٤٣، ٩٣، ١٠٨، وباشتقاقات أخرى هي (تُسَبِّح - يُسَبِّح -

١. الطبري: جامع البيان، ج ١٥ ص ٤.

تَسْبِيح) في الآية ٤٤ إذ يقول «تعالى»: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾. قال العلامة الطباطبائي عند الحديث عن الطابع العام للسورة: (يغلب فيها جانب التسبيح على جانب التحميد كما بُدئت به فقبل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا...﴾ الآية، وكرر ذلك فيها مرّة بعد مرّة كقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوءًا كَبِيرًا﴾ الآية ٤٣ وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ الآية ٩٣، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا﴾ الآية ١٠٨ حتى أن الآية الخاتمة للسورة: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ۝﴾ محمد الله على تنزهه عن الشريك والولي واتخاذ الولد^(١).

وحيث بدأت السورة بالتسبيح لفظاً: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾، واختتمت به معنى وضمت إليه الحمد والتكبير لفظاً: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ۝﴾، فقد التقت بذلك مع تسبيح الزهراء «عليها السلام» في أركانها الثلاثة: (الله أكبر - الحمد لله - سبحان الله)، وهو التسبيح الذي علّمه النبي «صلى الله عليه وآله» ابنته، ففي صحيح البخاري، وصحيح مسلم، ومسند أحمد، وغيرها من المصادر، واللفظ للأول عن علي «عليه السلام»: (أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ شَكَتْ مَا تَلْقَى مِنْ أَثَرِ الرَّحَا، فَأَتَى النَّبِيَّ «صلى الله عليه وسلم» سَبِيٍّ، فَأَنْطَلَقَتْ فَلَمْ تَجِدْهُ، فَوَجَدَتْ عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا، فَلَمَّا جَاءَ النَّبِيُّ «صلى الله عليه وسلم» أَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ بِمَجِيءِ فَاطِمَةَ، فَجَاءَ النَّبِيُّ

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٥.

«صلى الله عليه وسلم» إِنَّا وَقَدْ أَخَذْنَا مَضَاجِعَنَا، فَذَهَبْتُ لِأُقُومَ، فَقَالَ: عَلَى مَكَانِكُمْ. فَقَعَدَ بَيْنَنَا حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ قَدَمَيْهِ عَلَى صَدْرِي، وَقَالَ: أَلَا أَعْلَمُكُمْ خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَانِي؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا تُكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ^(١). وَجُعِلَ التَّكْبِيرُ - فِي بَعْضِ الْمَوَاقِفِ - خَيْرًا مِنْ حَيْثُ التَّرْتِيبِ، وَفِي بَعْضِهَا تَمَّ تَقْدِيمُ التَّحْمِيدِ عَلَى التَّسْبِيحِ، وَهُوَ الْمَعْتَمَدُ عِنْدَ الشَّيْخَةِ.

وقد صار تسبيح الزهراء «عليها السلام» أحد أهم الأذكار عند المسلمين، وجاء في بعض الأحاديث ما يدل على أنه من أهم التعقيبات المستحبة بعد كل صلاة، وأنها مصداقٌ لذكر الله الكثير، حيث قال «سبحانه وتعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(٢).

كما وتلتقي الآية الأخيرة من السورة مع التسيبحات الأربعة، أي الذكر الذي يؤتى به حال القيام في الصلوات اليومية الثلاثية والرباعية، وفي بعض الأذكار الأخرى أيضاً، وهي: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) حيث تأتي كلمة التوحيد بالمعنى في الآية الأخيرة من السورة بدلالة قوله «تعالى»: ﴿... الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِّ...﴾.

وتعدُّ أسماء هذه السورة ليس حالة استثنائية، فبينما كان لغالبية السور اسم واحد، كان لبعضها الآخر عدة أسماء. فعلى سبيل المثال:

١. أول سورة في المصحف الشريف، وقد أنهى جلال الدين السيوطي أسماءها إلى

١. البخاري: صحيح البخاري، ح ٣٧٠٥.

٢. سورة الأحزاب: ٤١.

خميس وعشرين، وقال بعد أن ذكرها وذكر أسباب ومصادر تسميتها: (فهذا ما وقفت عليه من أسمائها ولم تجتمع في كتاب قبل هذا)^(١) وهي: الحمد - الفاتحة - فاتحة الكتاب - أم الكتاب - أم القرآن - السبع المثاني - الشافية - الكافية ... إلخ^(٢).

٢. تاسع السور في المصحف الشريف، إذ أحصى الزمخشري أسماءها فكانت اثنا عشر، وهي: براءة - التوبة - المقشقشة - المبعثرة - المشرّدة - المخزية - الفاضحة.. إلخ^(٣).

٣. ذكر للسورة الثامنة والسبعين بترتيب المصحف الشريف أربعة أسماء، هي: عمّ - النبأ - التساؤل - المعصّرات^(٤).

ويمكن المناقشة في صحّة نسبة بعض الأسماء إلى هذه السور.

هناك أسباب متعدّدة لتسمية سور القرآن، من بينها:

(١) الموضوع الغالب أو البارز الذي تتعرّض له، مثل: سورة النساء، الحجّ، التّوحيد، الأنبياء، الأحزاب، المؤمنون، المنافقون، الكافرون.

(٢) اسم النبي أو الشخصية المذكورة فيها، مثل: نوح، هود، إبراهيم، يونس، يوسف، محمد، لقمان، مريم، آل عمران، المؤمن.

(٣) الحروف المقطّعة الواردة في مطلعها، مثل: ق، ص، يس، وطه.

(٤) أسماء بعض الحيوانات الوارد ذكرها فيها، مثل: البقرة، النّحل، النمل، العنكبوت.

١. السيوطي: الإقتان في علوم القرآن، ص ١٥١.

٢. ن. م. ص ١٤٨-١٥١.

٣. الزمخشري: الكشاف، ج ٣، ص ٥.

٤. السيوطي: الإقتان في علوم القرآن، ص ١٥٥.

(٥) بالنظر إلى أبرز أقسامها، مثل: سورة الجمعة، الفتح، الواقعة، الحديد، المطففين.

(٦) المُقسَّم به في بداية السورة، مثل: الفجر، الشمس، الضحى، التين، العاديات.

ما مصدر أسماء السور؟ وهل هي توقيفية كي يجب الالتزام بما ورد في المصادر وما تعارف عليه المسلمون، أم يمكن الاجتهاد فيها وإضافة أسماء جديدة؟ هناك قولان: الأول: أسماء السور توقيفية، ولذا نلتزم بما وصل إلينا منها، ولا يجوز إضافة اسم جديد لأي سورة.

قال الزركشي: (وينبغي البحث عن تعداد الأسماء: هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني، فلن يعدم القطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها، وهو بعيد.... ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سُميت به، ولا شك أن العرب تُراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرأي للمسمى. ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز، كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقريظة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها. وسُميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردّد فيها من كثير من أحكام النساء، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها...)^(١).

ويصحّ هذا القول إن ثبت أن هذه الأسماء قد نزلت بالوحي، أو كانت جعلاً من النبي «صلى الله عليه وآله»، أو سُمح بذلك للبعض - كالأئمة أو الصحابة - من قبل

١. الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٧٠.

الوحي أو التبي، إلا أنَّ إثبات ذلك صعب، بل في بعض الروايات والأخبار ما يدلُّ على خلاف ذلك، من قبيل:

١. قال السيوطي عند الكلام عن أسماء سورة التوبة: (وسورة العذاب، أخرج الحاكم في المستدرك عن حذيفة قال: التي تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب، وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال: كان عمر بن الخطاب إذا ذُكر له سورة براءة فقل سورة التوبة قال: هي إلى العذاب أقرب، ما كادت تُقلع عن الناس حتى ما كادت تُبقي منهم أحداً)^(١).

٢. وعن سورة الكهف قال: (وروى البيهقي من حديث ابن عباس مرفوعاً أنَّها تُدعى في التوراة الحائلة، تحول بين قارئها وبين التار. وقال: إنه منكراً)^(٢) أي حديث منكراً. ٣. عن ابن عباس أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: (أُعطيَت السُّورة التي فيها البقرة من الذكر الأوَّل ...) ^(٣).

٤. عن سعيد بن جبير، قال: (قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل سورة التَّضير)^(٤). ففي هذا ما يُبيِّن أن تسمية سور القرآن لم تكن توقيفيّة عند أصحاب النبي «صلى الله عليه وآله»، وإلا لما ساغ لابن عباس أن يُخالف ذلك.

٥. روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» -بأسانيد ضعيفة- النهي عن بعض الأسماء الخاصّة بالسور، فعنه «صلى الله عليه وسلم» أنه قال: (لا تقولوا: سورة البقرة، ولا

١. السيوطي: الإقتان في علوم القرآن، ص ١٥٢.

٢. ن. م، ص ١٥٣.

٣. الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، ج ٣، ص ٢٠٠.

٤. البخاري: صحيح البخاري، ح ٤٠٢٩.

سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي يذكر فيها البقرة، والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله^(١).

الثاني: تسمية السور اجتهادية، ولا يوجد له مصدر محدّد، وليس هناك سقف عددي لأسماء السور، ولا زمني يُمنع من بعده الاجتهاد فيه.

وبرأيي، ومن خلال ما جاء في الروايات والأخبار، يمكن القول أنّ أسماء السور ليست توقيفية، وأنّ بعض السور عُرفت بأسماء خاصة على عهد النبي «صلى الله عليه وآله»، كما كان يُشار إلى بعضها بذكر شخصيّة أو حدث أو قصة وغير ذلك، كالذي رواه الصدوق عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: مَنْ لم يُحسن وصيّته عند الموت كان نقصاً في مروءته وعقله وتصديق هذه الوصيّة في القرآن في السورة التي تُذكر فيها مريم في قوله «عزّ وجل»: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾^(٢))، وبمرور الزمان استقرّت الأسماء المشهورة للسور وفق ما كان متداولاً في العصر الإسلامي الأوّل، أو تحوّرت، من قبيل (السورة التي فيها البقرة) إلى (سورة البقرة)، واكتسبت هذه التسميات نوعاً من القداسة، أو إنّ شئت فقلّ نوعاً من الخصوصية أو العناية بحيث اكتفي بها، ولم يُعمل على وضع تسميات جديدة لها ولو كان ذلك لنفس الأسباب التي عُمل بها في اختيار تلك الأسماء.

قبل إنهاء هذا القسم من البحث، نذكر ما قاله السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر حول الموضوع، حيث تضمّن كلامه فوائد عدّة. قال: (وأما بالنسبة إلى أسماء

١. الطبراني: المعجم الأوسط، ح ٥٧٥٥.

٢. الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١٨٧-١٨٨. والآية من سورة مريم: ٨٧.

السور، فلا نعلم مَنْ الذي وضعها، وكيف تمّ الاتفاق عليها. وبعضه وإن كان جيّداً في المعنى، كسورة الحمد والتوحيد، إلا أنّ بعضه ليس كذلك، كذكر الحيوانات: البقرة والفيل، أو ذكر الكافرين والمنافقين، أو باسم غير موجود لفُظّه في السورة، كالأنبياء والممتحنة وغيرهما. إلا أنه لا سبيل اليوم إلى إحداث بعض التغيير. والأولى الجري على ما فعله السيّد الشريف الرضّي في كتابه «مجازات القرآن» حيث يُعنُون هكذا: السّورة التي تُذكر فيها البقرة، والسّورة التي تُذكر فيها النّساء، والسّورة التي تُذكر فيها الأنعام، وهكذا في كلّ السور. وهي التفاتة بارعة). ثم ذكر الصدر كلاماً مختصره ونبسّطه كالتالي: استدللّ البعض على حُجّية أسماء السّور ببعض الأدلة، مِنْ أهمّها:

١. سيرة المتشرّعة منذ زمان المعصومين - بل إلى زمان النبي - بالتّسالم على تسمية السور بهذه الأسماء.

الرد: لا يشمل هذا كلّ السّور، ولا سيّما بلحاظ الاختلاف في أسماء بعضها، كالإسراء وبني إسرائيل. كما أن سكوت الأئمة «عليهم السلام» عن هذه التسميات لا يعني رضاهم، بل بلحاظ اشتهاها بين طبقات كثيرة من المذاهب الإسلامية المتعددة.

٢. هناك روايات عن الأئمة «عليهم السلام» يذكرون فيها أسماء هذه السّور، منها: ثواب من قرأ سورة كذا.

الرد: قد يكون هذا لاشتهاها بين طبقات كثيرة من المذاهب الإسلامية المتعددة، ولمجاراة الناس والحديث معهم بالسنتهم، وعلى قدر عقولهم، خاصّة مع ملاحظة أنّ بعض الأسماء تختلف في الروايات عمّا هي موجودة عليه الآن. ثم إنّ الكثير من هذه الروايات، بل الأعم الأغلب منها غير تام سنداً.

إذاً، يجوز تسمية السور، بمعنى الإشارة إلى واقعها طبقاً لما يعرفه المجتمع، لا أكثر^(١).

• مكية أم مدنية؟

سورة الإسراء تُصنّف كسورة مكية بغض النظر عن التعريف الخاص بالفرق بين السور المكية والمدنية، فقد قيل أنّ:

١. المكي ما نزل بمكة، والمدني ما نزل بالمدينة.
 ٢. المكي ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بالمدينة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، وإن كان بمكة، وهو القول المشهور.
 ٣. المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة^(٢). ويدخل في ذلك قول عبدالله بن مسعود وغيره أنّ كلّ شيء نزل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فهو بمكة، فيكون مكيّاً، وكلّ شيء نزل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فهو بالمدينة، فيكون مدنيّاً.
- إلا أنّ أخذ كلام ابن مسعود -ومن وافقه- على إطلاقه غير سليم، لأنّ سورة البقرة مدنيّة، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^(٣)، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾^(٤). وسورة النساء مدنيّة، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾^(٥)، وفيها: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾^(٦). وقيل أنّ سورة الحج مكيّة، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا

١. الصدر: ما وراء الفقه، ج ١، ص ٣١٣.

٢. الزركشي: البرهان، ج ١، ص ١٨٧.

٣. سورة البقرة: ٢١.

٤. سورة البقرة: ١٦٨.

٥. سورة النساء: ١.

٦. سورة النساء: ١٣٣.

الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا^(١)، وقيل أَنَّ سورة التغابن مكيّة، وفيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(٢)... نعم، الغالب والأكثر أن يكون كما جاء في كلامه.

وادّعى البعض أَنَّ سورة الإسراء مكيّة ما عدا بعض آياتها، وممن قال بذلك:

(١) هبة الله المقرّي (ت: ٤١٠ هـ)، قال: (نزلت بمكّة إلا آيات نزلت بالمدينة)^(٣).

(٢) محمود بن عمر الزّمخشرّي (ت: ٥٣٨ هـ)، قال: (مكيّة، إلا الآيات ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧، ومن آية ٧٣ إلى غاية آية ٨٠ فمدنيّة)^(٤).

(٣) عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٦ هـ)، قال: (هذه السّورة مكيّة إلا ثلاث آيات، قوله «عزّ وجل»: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾^(٥)، وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾^(٦)، نزلت حين جاء رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وفد ثقيف، وحين قالت اليهود ليس هذه بأرض الأنبياء، وقوله «عزّ وجل»: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾^(٧)، وقوله «عزّ وجل»: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾^(٨)، وقال مقاتل وقوله «عزّ وجل»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾^(٩).

١. سورة الحج: ٧٧.

٢. سورة التغابن: ١٤.

٣. ابن سلامة: الناسخ والمنسوخ، ص ١١٥.

٤. الزّمخشرّي: الكشف، ج ٣، ص ٤٩١.

٥. سورة الإسراء: ٧٣.

٦. سورة الإسراء: ٧٦.

٧. سورة الإسراء: ٨٠.

٨. سورة الإسراء: ٦٠.

٩. ابن عطية: المحرر الوجيز، ج ١٥، ص ٤٣٣. والآية من سورة الإسراء: ٨٥.

٤) عبد الرحمن بن عليّ ابن الجوزيّ (ت: ٥٩٧هـ)، قال: (هي مكّة، إلا أنّ بعضهم يقول: فيها مدنيّ، فرّوي عن ابن عباس أنه قال: هي مكّة إلا ثمان آيات: من قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾^(١) هذا قول قتادة. وقال مقاتل: فيها من المدنيّ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾^(٢) والتي تليها^(٣).

٥) علم الدين علي بن محمد السخاوي (ت: ٦٤٣هـ)، قال: (وقال الكلبي: في سورة ﴿سُبْحَانَ﴾ آيات مدنيّات، قوله «عزّ وجل»: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ نزلت حين جاءه وفد ثقيف، وحين قالت اليهود: ليست هذه بأرض الأنبياء. وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ وزاد مقاتل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ و﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾^(٤).

٦) عبدالله بن عمر البضاوي (ت: ٦٩١هـ): (مكّة، وقيل: إلّا قوله «تعالى»: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى آخر ثمان آيات)^(٥).

٧) محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبيّ (ت: ٧٤١هـ)، قال: (مكّة إلا الآيات ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ ومن آية ٧٣ إلى غاية آية ٨٠ فمدنيّة)^(٦).

١. سورة الإسراء: ٧٥.

٢. سورة الإسراء: ٧٤.

٣. ابن الجوزي: زاد المسير، ج ٥، ص ٣.

٤. السخاوي: جمال القراء، ج ١، ص ١٣.

٥. البضاوي: أنوار التنزيل، ج ٣، ص ٢٤٧.

٦. ابن جزي: التسهيل، ج ١، ص ٤٤٠.

٨) محمود بن أحمد العيني (ت: ٨٥٥هـ)، قال: (قال قتادة: هي مكّة إلا ثمان آيات نزلن بالمدينة، وهي من قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى آخرهنّ، وسجدتها مدنيّة)^(١).

٩) رضوان بن محمد المخلّلاتي (ت: ١٣١١هـ): (وهي مكية في رواية الحسن إلا خمس آيات، قوله «تعالى»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾^(٢)، ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّنا﴾^(٣)، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ﴾^(٤)، ﴿اقِمِ الصَّلَاةَ﴾^(٥)، ﴿وَاتِ ذَا الْقُرْبَى﴾^(٦). وعن ابن عباس وقاتادة غير ثمان آيات نزلن بالمدينة في خبر وفد ثقيف وفي اليهود حيث جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله «تعالى»: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى آخر الآيات الثمان، وعن ابن المبارك أنها مكية خلا آية منها، نزلت في قول اليهود للنبي «صلى الله عليه وسلم»: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بَارِضُ الشَّامِ، وَإِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ بِأَرْضِ الشَّامِ، وَإِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ بِأَرْضِ الْأَنْبِيَاءِ، فنزلت ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ إلى قوله «تعالى»: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، نزلت بين مكة والمدينة)^(٧).

وأما ابن عاشور (ت: ١٣٩٣هـ) فقد جاء ببعض الأقوال وعلّق قائلاً: (وأحسب أنّ منشأ هاته الأقوال أنّ ظاهر الأحكام التي اشتملت عليها تلك الأقوال يقتضي أنّ تلك الآي لا تُناسب حالة المسلمين فيما قبل الهجرة، فغلب على ظنّ أصحاب تلك

١. العيني: عمدة القاري، ج ١٩، ص ٢٦.

٢. سورة الإسراء: ٣٣.

٣. سورة الإسراء: ٣٢.

٤. سورة الإسراء: ٥٧.

٥. سورة الإسراء: ٧٨.

٦. سورة الإسراء: ٢٦.

٧. المخلّلاتي: القول الوجيز، ص ٢٢٢-٢٢٣.

الأقوال أنّ تلك الآي مدنيّة. وسيأتي بيان أنّ ذلك غير متّجه عند التّعريض لتفسيرها، ويظهر أنّها نزلت في زمن كثرت فيه جماعة المسلمين بمكة، وأخذ التشريع المتعلّق بمعاملات جماعتهم يتطرّق إلى نفوسهم، فقد ذكرت فيها أحكاماً متتالية لم تذكر أمثال عددها في سورة مكيّة غيرها عدا سورة الأنعام، وذلك من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(١) إلى قوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾^(٢).

وقال العلامة الطباطبائي (ت ١٤٠٢): (السورة مكيّة لشهادة مضامين آياتها بذلك) وبعد أن سرد الآراء الأخرى قال: (ولا دلالة في مضامين الآيات على كونها مدنيّة، ولا الأحكام المذكورة فيها ممّا يختصّ نزولاً بالمدينة، وقد نزلت نظائرها^(٣) في السور المكية كالأنعام والأعراف)^(٤).

• زمن نزول السورة:

تعدّدت آراء المفسرين وأهل الحديث والسيرة حول سنة نزولها، حيث ارتبط ذلك بتوقيات حادثة الإسراء التي قيل إنها وقعت بين السنة الأولى والثانية عشرة من البعثة. وممن أشار إلى ذلك صفي الرحمن المباركفوري، قال: (واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى:

١- ف قيل: كان الإسراء في السنة التي أكرمه الله فيها بالنبوة، اختاره الطبري.

٢- وقيل: كان بعد المبعث بخمس سنين، رجّح ذلك النووي والقرطبي.

١. سورة الإسراء: ٢٣.

٢. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٥، ص ٦-٧. والآية الأخيرة من سورة الإسراء: ٣٨.

٣. أي ما يماثل هذه الأحكام.

٤. الطباطبائي: الميزان، ج ١٣، ص ٥-٦.

٣- وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة، واختاره العلامة المنصورفوري.

٤- وقيل: قبل الهجرة بستة عشر شهراً، أي في رمضان سنة ١٢ من النبوة.

٥- وقيل: قبل الهجرة بسنة وشهرين، أي في المحرم سنة ١٣ من النبوة.

٦- وقيل: قبل الهجرة بسنة، أي في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة.

ورُدَّت الأقوال الثلاثة الأول بأنَّ خديجة «رضي الله عنها» تُوفِّيَتْ في رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أن تُفرض الصلوات الخمس، ولا خلاف أنَّ فرض الصلوات الخمس كانت ليلة الإسراء. أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحداً منها، غير أنَّ سياق سورة الإسراء يدلُّ على أنَّ الإسراء متأخراً جداً^(١).

وروى القطب الراوندي في «الخرائج والجرائح»: (ومنها، ما روي عن عليّ «عليه السلام» أنَّه لما كان بعد ثلاث سنين من مبعثه «صلى الله عليه وآله» أُسري به إلى بيت المقدس، وعُرج به منه إلى السماء ليلة المعراج، فلما أصبح من ليلته حَدَّث قريشاً بخبر معراجه....)^(٢).

وجاء العلامة المجلسي على ذكر هذا الاختلاف ونقل الأقوال في الباب، قال:

١. عن ابن عباس أنَّه كان في شهر ربيع الأوَّل بعد النبوة بسنتين.

٢. عن الواقدي والسديَّ أنَّه كان قبل الهجرة بستة أشهر، في السابع عشر من رمضان.

١. المباركفوري: الرحيق المختوم، ج ١، ص ١٢٤.

٢. الراوندي: الخرائج والجرائح، ج ١، ص ١٤١.

٣. عن الواقدي أيضاً في «المنتقى» للكارزوني: كان المسرى في ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان في السنة الثانية عشرة من النبوة، قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً.

٤. وفيه أنه كان ليلة سبع عشرة من ربيع الأول، قبل الهجرة بسنة.

٥. وقيل: ليلة سبع وعشرين من رجب.

٦. وقيل: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة وشهرين، وذلك سنة ٥٣ من عام الفيل.

٧. وعن «العِدَد القَوِيَّة»^(١) أنه كان في ليلة إحدى وعشرين من رمضان قبل الهجرة بستة أشهر كان الإسراء برسول الله.

٨. وقيل: في السابع عشر من شهر رمضان، ليلة السبت.

٩. وقيل: ليلة الإثنين من شهر ربيع الأول، بعد النبوة بسنتين.

١٠. ونقل العلامة الحلي في «العِدَد القَوِيَّة» عن كتاب «التذكرة»^(٢) أنه كان في ليلة السابع والعشرين من رجب السنة الثانية من الهجرة^(٣).

كما يتأثر تحديد زمن نزول السورة بمسألة نزولها كاملةً أو على مراحل، وكذلك على توقيت نزولها بالنسبة للإسراء، هل كان ذلك بعد الإسراء مباشرة، أم بعده بأيام أو بأشهر أو أكثر من سنة.

١. أي كتاب العدد القوية، لدفع المخاوف اليومية، من تأليف الشيخ رضي الدين علي ابن المطهر الحلي.

٢. أي كتاب التذكرة من كلام الرسول وآله والصحابة والتابعين لمحمد بن الحسن بن حمدون.

٣. انظر بحار الأنوار للمجلسي، ج ١٨، ص ٣٨٠.

قال العلامة ابن عاشور: (وقد اختلف في وقت الإسراء ، والأصح أنه كان قبل الهجرة بنحو سنة وخمسة أشهر، فإذا كانت قد نزلت عقب وقوع الإسراء بالنبي «صلى الله عليه وسلم» تكون قد نزلت في حدود سنة اثنتي عشرة بعد البعثة ، وهي سنة اثنتين قبل الهجرة في منتصف السنة، وليس افتتاحها بذكر الإسراء مقتضياً أنها نزلت عقب وقوع الإسراء، بل يجوز أنها نزلت بعد الإسراء بمدة^(١)).

وعليه، فإن من يرى صحة جميع ما روي حول أسباب نزول آيات سورة الإسراء، أو بعضه، سيذهب -لزماً- إلى القول بأن السورة بأكملها لم تنزل دفعة واحدة، ولا يصح -تبعاً لذلك- أن يحدّد متى نزلت السورة إلا بمعنى متى كان بدء نزولها.

• أسباب نزول بعض آياتها:

فيما يلي نماذج مما جاء في أسباب نزول بعض آيات السورة وفقاً لما جاء في كتاب «أسباب النزول» للواحدي:

١. ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾^(٢): بإسناده عن أبي الأحوص، عن عبد الله قال: (جاء غلام إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال: إن أُمّي تسألك كذا وكذا، فقال: «ما عندنا اليوم شيء»، قال: فتقول لك اكسني قميصك، قال: فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس في البيت حاسراً، فأنزل الله «سبحانه وتعالى»: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾^(٣).

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٦.

٢. سورة الإسراء: ٢٩.

٣. الواحدي: أسباب النزول، ح ٥٧٥.

٢. ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١): (نزلت في عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» وذلك أَنَّ رجلاً من العرب شتمه، فأمره الله «تعالى» بالعفو. وقال الكلبي: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» بالقول والفعل، فشكوا ذلك إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فأنزل الله «تعالى» هذه الآية^(٢)).

٣. ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾^(٣): بإسناده عن ابن عباس قال: (سأل أهل مكة النبي «صلى الله عليه وسلم» أن يجعل الصفا ذهباً، وأن يُنحَى عنهم الجبال فيزرعون، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نحتجي منهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم. قال: «لا، بل أستأني بهم»، فأنزل الله «عز وجل»: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وروينا قول الزبير بن العوام في سبب نزول هذه الآية عند قوله^(٤): ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾^(٥)).

والواحدي يشير بذلك إلى ما رواه بإسناده عن أمّ عطاء مولاة الزبير، قالت: (سمعت الزبير بن العوام يقول: قالت قريش للنبي: تزعم أنك نبي يوحى إليك، وأنّ سليمان سُخِّرَتْ له الريح والجبال، وأنّ موسى سُخِّرَ له البحر، وأنّ عيسى كان يُحيي الموتى، فادعُ الله «تعالى» أن يُسيرَ عنا هذه الجبال^(٦)، ويفجر لنا الأرض أنهاراً فننتخذها محارث فنزرع، ونأكل، وإلا فادعُ الله أن يُحيي لنا موتانا فنكلّمهم، ويكلّمونا، وإلا فادعُ

١. سورة الإسراء: ٥٢.

٢. الواحدي: أسباب النزول، ح ٥٧٧ و ٥٧٨.

٣. سورة الإسراء: ٥٩.

٤. سورة الرعد: ٣١.

٥. الواحدي: أسباب النزول، ح ٥٧٩-٥٨٠.

٦. أي يبعدها عن مكة لأنها كانت تضيق عليهم الأرض.

الله «تعالى» أن يُصَيِّرَ هذه الصخرة التي تحتك ذهباً، فننحت منها ونُغْنِينا عن رحلة الشتاء والصيف ، فإنك تزعم أنك كهيئتهم. فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلَمَّا سُرِّي عنه قال: «والذي نفسي بيده، لقد أعطاني ما سألتهم، ولو شئت لكان، ولكنه خيّرني بين أن تدخلوا من باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يَكِلَكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلُّوا عن باب الرحمة، ولا يؤمن مؤمنكم، فاخترت باب الرحمة، وأن يؤمن مؤمنكم، وأخبرني إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه معدّبكم عذاباً لا يُعَذِّبه أحداً من العالمين». فنزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ حتى قرأ ثلاث آيات ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنْ فُرَأْنَا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾^(١).

٤. ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾^(٢): قال ابن عباس: (تهجّد رسول الله ذات ليلة بمكة، فجعل يقول في سجوده: «يا رحمن، يا رحيم». فقال المشركون: كان محمدٌ يدعو إلهاً واحداً، فهو الآن يدعو إلهين اثنين: الله، والرحمن، ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة -يَعْنُونَ مسيلمة الكذاب- فأنزل الله «تعالى» هذه الآية)^(٣).

وقال ميمون بن مهران : (كان رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يكتب في أول ما يوحى إليه: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٤) فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال مشركو العرب: هذا الرحمن نعرفه، فما الرحمن؟ فأنزل الله «تعالى» هذه الآية)^(٥).

١. الواحدي: أسباب النزول، ح ٥٥٠.

٢. سورة الإسراء: ١١٠.

٣. الواحدي: أسباب النزول، ح ٥٩٣.

٤. سورة النمل: ٣٠.

٥. الواحدي: أسباب النزول، ح ٥٩٤.

وقال الضحاك: (قال أهل الكتاب لرسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إِنَّكَ لثَقَلٌ ذِكْرُ الرَّحْمَنِ، وَقَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ هَذَا الْاسْمَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ «تَعَالَى» هَذِهِ الْآيَةَ)^(١).

كانت هذه نماذج من أسباب نزول بعض آيات سورة الإسراء، ويُلاحظ عليها:

(١) أَنَّ بَعْضاً مِنْهَا مِنْ قَوْلِ صَحَابِيٍّ، كَابْنِ عَبَّاسٍ الْمَوْلُودِ سَنَةَ ٣ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، بِمَا يَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَصْغَرَ مَنْ أَنْ يَشْهَدَ الْحَدِيثَ وَيَعْيِهِ وَيَذْكُرَهُ، وَلَا نَعْلَمُ الْمَصْدَرَ الَّذِي أَعْلَمَهُ بِالْحَدِيثِ، هَذَا إِنْ صَحَّ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَدْ قَالَ ذَلِكَ، كَمَا أَنَّ بَعْضاً مِنْهَا مِنْ قَوْلِ مَفْسَّرٍ كَالضَّحَّاكِ، أَوْ مُؤَرِّخٍ كَالْكَلْبِيِّ، دُونَ بَيَانٍ لِلْمَصْدَرِ وَلَا سِنْدٍ لِلرَّوَايَةِ أَوْ الْخَبَرِ.

(٢) لِلآيَةِ الْوَاحِدَةِ أَكْثَرُ مِنْ سَبَبٍ لِلنَّزُولِ، وَبَيْنَهَا -أَحْيَاناً- تَعَارُضٌ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ، وَفِي إِحْدَاهَا خَطَأٌ تَارِيخِيٌّ، حَيْثُ ذُكِرَ أَمْرُ مَسِيلِمَةَ الْكَذَّابِ، وَأَمْرُهُ كَانَ مُتَأَخِّراً وَفِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ... وَفِي أُخْرَى ادِّعَاءُ كَذَبٍ بِمَخْصُوصِ اشْتِمَالِ التَّوْرَةِ عَلَى اسْمِ «الرَّحْمَنِ».

(٣) لَا نَسْلَمُ بِمُجَيَّةِ رَوَايَاتٍ وَأَخْبَارِ أَسْبَابِ النَّزُولِ -إِجْمَالاً- وَلَا يَعْلَمُ صَدُورُ كَثِيرٍ مِنْهَا عَنِ النَّبِيِّ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» أَوْ الْإِمَامِ «عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وَهِيَ ضَعِيفَةُ الْأَسْنَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَوَارِدِ، وَبَيَانُ ذَلِكَ كَالْتَالِي:

أ. الْأَحَادِيثُ الْمَوْقُوفَةُ: فَمِنْهَا مَا اتَّصَلَ سَنَدُهُ إِلَى الصَّحَابِيِّ، وَلَمْ يَرْفَعَهُ وَلَمْ يُسَنِّدْهُ إِلَى النَّبِيِّ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» أَوْ الْإِمَامِ «عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِعَنْوَانِ الْحَدِيثِ الْمَوْقُوفِ، وَبِمَا أَنَّ الْحَدِيثَ إِنَّمَا يَكُونُ حُجَّةً بِاعْتِبَارِ اتِّصَالِهِ بِالنَّبِيِّ أَوْ الْإِمَامِ، لِذَا فَإِنَّهُ لَا يَعْدُو -وَفَقْراً لِلظَّاهِرِ- كَوْنَهُ رَأْيَاً لِلصَّحَابِيِّ، وَرَأْيَاً لِلصَّحَابِيِّ لَيْسَ بِمُجَيَّةٍ.

نعم، قد يكون ما ذكره الصحابي في سبب النزول بلحاظ أنه شاهد على الحدث بنفسه، وقد حضر الواقعة، أو عاصرها، وسمع من النبي أنّ الآية الفلانية قد نزلت بسبب هذا الحدث، ولربّما سمع ذلك من صحابي آخر. ولكن هذا مجرد احتمال، فإن كان في البين دليل أو قرينة على ذلك أخذنا بها، ودرسنا الرواية من حيث السند والمتن، وأمّا مع خلوها من ذلك، أو مع وجود القرينة على ما يخالف ذلك الاحتمال، سقطت الرواية عن الحجّة من هذا الباب على الأقل. وأسباب النزول المروية عن ابن عباس خير مثال على ذلك، إذ تخصّ أحداثاً لم يشهدها، إما لأنها وقعت قبل أن يولد، أو لأنّه كان في عمر مبكر جداً لا يُحتمل أنه كان يعي خلاله تفاصيل وما وراء تلك الأحداث.

ب. أقوال التابعين ومن جاء بعدهم: من المفسرين وغيرهم، وذلك من قبيل ما روي عن مجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ)، وعكرمة البربري (ت ١٠٥هـ)، ومحمد بن كعب القرظي (ت ١٠٨هـ)، ومقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ)، وغيرهم ممن أكثر الطبري في تفسيره -وآخرون- التّقلّ عنهم في باب أسباب النزول دون إسناد إلى إمام من أئمة أهل البيت، كعلي بن أبي طالب أو ابنه الحسن أو الحسين، بل ولا عن صحابي، كما ولا يصحّ أن يكونوا قد رَووا عن النبي بلا واسطة، ولذا فهي إما من الموقوفات أو المراسيل، وليست بحجّة، بل إنّ بعضهم -على الأقل- مُتهم بالتفسير «التأويل» بالرأي، وقد نُهي عن ذلك في أكثر من رواية، ومنها ما عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (اتّقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار)^(١)، وعن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال:

١. الترمذي: سنن الترمذي، ح ٢٩٥١.

(مَنْ فَسَّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ، إِنَّ أَصَابَ لَمْ يُؤْجَرْ، وَإِنْ أَخْطَأَ خَرَّ أَبْعَدَ مِنَ السَّمَاءِ)^(١).

ج. الأحاديث المرسلة: أي أنها تكون مروية عن النبي «صلى الله عليه وآله» أو الإمام «عليه السلام»، ولكنها تفتقد إلى السند، والأصل فيها عدم الحجية إلا إذا قام الدليل أو وجدت القرائن الدالة على خلاف ذلك.

د. الأسانيد الضعيفة: فالكثير من الرواة المذكورين في أسانيد روايات أسباب النزول من الضعفاء أو المجاهيل أو المتهمين بالكذب والوضع، حتى عبر ابن حجر عن إحدى أكثر الأسانيد تكراراً في أسباب النزول بأنها «سلسلة الكذب».

بالطبع، فإنَّ ضَعْفَ السند أو إرساله لا يعني بالضرورة عدم صحة المتن، ولكن هي نقطة ضعف أولى تُسجَّل بحق تلك الرواية، وينتقل من بعدها المحقق لدراسة المتن ومقارنته بنص الآية ومدى إمكانية التوافق بينهما وقبول سبب النزول المدعى في الرواية، وعدم وجود أية موانع ممكنة لردّها، من قبيل التعارض مع المسلّمات والضرورات الدينية أو التاريخية أو العقلية أو غير ذلك مما يُعتمد في دراسة المتون والتحقيق فيها.

• فضائل السورة وبعض آياتها:

نذكر أولاً ما جاء في مصادر الشيعة حول هذا الموضوع:

١. الصدوق في «ثواب الأعمال» بالإسناد عن الحسن عن الحسين بن أبي العلاء عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» قال: (ما من عبد قرأ سورة بني إسرائيل في كل

١. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٣٣٥٩٧.

ليلة الجمعة، لم يمُت حتى يُدرك القائم «عليه السلام»، ويكون من أصحابه^(١).

وهذا المضمون غريب، فلو طَبَّق ذلك رجلٌ عاش في القرن الخامس الهجري مثلاً، فكيف يعيش حتى يُدرك القائم «عليه السلام» ويكون من أصحابه، ونحن في القرن الخامس عشر ولم يظهر بعدُ، ولا نعلم كم ستطول غيبته؟ نعم، قد يُفسَّر البعض ذلك بالرجعة، أي أنَّ هذا الفرد يموت كباقي الناس، ثم يحييه الله «تعالى» عند ظهور الإمام ليكون من أصحابه، ولكن ظاهر الرواية لا يدلُّ على هذا المعنى بدليل قوله: (لم يمُت حتى)، كما أنَّ أمر الرجعة -في حدِّ ذاته- غير محسوم عند المحققين.

٢. الطبرسي في «مجمع البيان» عن أبي بن كعب عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (مَنْ قرأ سورة بني إسرائيل، فرَّق قلبه عند ذكر الوالدين^(٢))، أُعطي في الجنة قنطارين من الأجر، والقنطار: ألف أوقية ومائتا أوقية. والأوقية منها خيرٌ من الدنيا وما فيها^(٣).

٣. وفي تفسير «البرهان» للبحراني نقلاً عن كتاب «خواص القرآن» حول سورة الإسراء: (رُويَ عَنِ النَّبِيِّ «صلى الله عليه وآله» أنه قال: مَنْ قرأ هذه السُّورة، ورَّق قلبه عند ذكر الوالدين، كان له قنطار في الجنة، والقنطار: ألف ومائتا أوقية، والأوقية خيرٌ من الدنيا وما فيها. ومن كتبها وجعلها في خِرقَةٍ حريِّ خضراء، وحرَّز عليها،

١. الصدوق: ثواب الأعمال، ص ١٠٧.

٢. في إشارة إلى تلاوة قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٣٦﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٣٧﴾.

٣. الطبرسي: مجمع البيان، ج ٦، ص ٢١٣.

ورمى بالتَّبال، أصابَ ولم يُخطئ، وإن كَتَبها في إناءٍ وشربَ ماءها، لم يتعذَّر عليه كلام، وأنطقَ لسانه بالصَّواب، وازدادَ فهماً^(١).

٤. وفي نفس المصدر عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (مَن كَتَبها في خِرقةٍ حريرٍ خضراء، وتحرَّز عليها، وعلَّقها عليه، ورمى بالنُّشَاب، أصاب ولم يُخطئ أبداً. وإن كَتَبها لصغيرٍ تعذَّر عليه الكلام، يكتبها بالزَّعفران، ويُسقى ماءها، أنطق الله لسانه بإذنه، وتكلَّم^(٢)). ولا يخفى ما في هاتين الروایتين من غرابة.

هذا كلُّ ما عثرت عليه في مصادر الشيعة حول فضائل هذه السَّورة، وقد جمعها مشتاق المظفر في كتابه «عيون الغُرر في فضائل الآيات والصور»^(٣)، ولذا فإنَّ ما جاء في تفسير الأُمثل من أنَّه: (وردت في فضيلة سورة الإسراء وأجرها أحاديث كثيرة عن الرسول «صلى الله عليه وآله» وعن الإمام الصادق «عليه السلام»)^(٤)، كلامٌ غير دقيق، إذ لا يقال عن الأربعة بأنه كثير، علماً بأن الرواية الثانية وإن رواها الطبرسي في مجمع البيان، وهو من مصادر الشيعة، إلا أن الرواية مأخوذة عن مصادر أهل السنة، ولذا قد ينزل الرقم إلى ثلاث روايات فحسب. ولا يصحَّ ذلك حتى بضميمة ما جاء في مصادر أهل السنَّة أيضاً، وهي كالتالي:

(١) في صحيح البخاري بالإسناد إلى عبدالله بن مسعود أنه قال في سور بني إسرائيل والكهف ومريم: (إنَّهن من العِتاق الأوَّل، وهنَّ من تِلادي)^(٥). قال ابن حجر: (ومراد

١. البحراني: البرهان في تفسير القرآن، ج ٣، ح ٦١٩٥.

٢. ن. م، ح ٦١٩٦.

٣. ص ١٠١-١٠٢.

٤. مكارم الشيرازي: الأُمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ٣٨٤.

٥. البخاري: صحيح البخاري، ح: ٤٤٣١.

ابن مسعود أنهم من أول ما تعلّم من القرآن ، وأنّ لهم فضلاً لما فيهن من القصص وأخبار الأنبياء والأمم^(١). ويلاحظ على هذه الرواية أنها عن ابن مسعود، وليست حديثاً نبوياً.

(٢) عن أبي لبابة قال: قالت عائشة: (كان النبي «صلى الله عليه وسلم» لا ينام على فراشه حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر) قال أبو عيسى «أي الترمذي»: (هذا حديث حسن غريب)^(٢).

فهاتان روايتان فقط، واحدة منهما عن النبي «صلى الله عليه وآله» فحسب، وبصرف النظر عن تصحيح السند والمتن، سيكون المجموع خمس روايات.

نعم، في البين بعض الروايات والأقوال التي تشير إلى أثر تلاوة بعض آيات هذه السورة، وقد يجعلها البعض ضمن قائمة فضائل السورة، وذلك من قبيل:

١. كتاب «الدعاء» للطبراني عن محمد بن كعب القرظي، عن أبي هريرة قال: (بينما أنا أمشي مع رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، استقبله رجل من الأنصار، رث الثياب، رث الهيئة، مسقام^(٣)، فقال له النبي «صلى الله عليه وسلم»: يا فلان، ما الذي بلغ بك ما أرى؟ قال الفقر والسقم، قال: أفلا أعلمك كلمات إذا قلتها ذهب عنك الفقر والسقم؟ فقال: ما يسرني بهما أني شهدت معك بدرًا وأحدًا، قال أبو هريرة «رضي الله عنه» قلت: يا رسول الله، علمنيهن، قال: قل: توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الدّلّ وكبره

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ٢٤٠.

٢. الترمذي: سنن الترمذي، ح ٢٩٢٠.

٣. أي كثير الأسقام والأمراض.

تكبيراً^(١). قال: فلقني رسول الله بعد أيام فقال: يا أبا هريرة، ما هذا الذي أرى من حُسن حالك؟ قال: يا رسول الله، ما زلت أقول الكلمات منذ علّمتنيهن^(٢).

٢. المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: (ما كَرَبَنِي أَمْرٌ إِلَّا تَمَثَّلَ لِي جَبْرِيلُ «عليه السلام» فقال: يا محمد، قُلْ: توَكَّلْتُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا). قال الحاكم: (هذا حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه)^(٣).

٣. مسند أحمد بن حنبل بالإسناد عن سهل عن أبيه عن النبي «صلى الله عليه وسلم» أنه قال: (آيَةُ الْعِزِّ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا.....﴾ الآية كلها)^(٤).

وقبل الاستعجال في قبول ما سبق من مرويات في هذا الباب، نتوقف عند ما ذكره بعض المحققين حول مشكلة وَضَع الحديث مِن قَبْلِ مَنْ اعْتَبَرُوا مِنَ الصَّالِحِينَ، ومن أهل الخير والزهد:

قال يحيى بن سعيد القطان^(٥): (ما رأيت الصَّالِحِينَ فِي شَيْءٍ أَكْذَبَ مِنْهُمْ فِي

١. وهو مأخوذ عن الآية الأخيرة من السورة: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾.

٢. الطبراني: الدعاء، ح ١٠٤٥.

٣. الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ح ١٨٧٦.

٤. ابن حنبل: المسند، ح ١٥٢٠٧.

٥. وُصِفَ يَحْيَى بْنُ سَعِيدِ الْقَطَانَ (ت ١٩٨ هـ) كالتالي: (أبو سعيد يحيى بن سعيد بن فروخ القطان، البصري، أمير المؤمنين في الحديث، الإمام القدوة الحافظ المتقن من صغار أتباع التابعين، إمام في الجرح والتعديل، وأحد كبار المحدثين، كان حافظًا ثقة حجةً مأمونًا زاهدًا عابدًا ورعًا دينًا...).

الحديث). تاريخ بغداد: ٢ / ٩٨ [رقم ٤٩٣]. وعنه: (لم نَرِ أهلَ الخير في شيء أكذبَ منهم في الحديث) (١).

وقال ابن الصّلاح، عثمان بن عبد الرّحمن الشّهزوري الموصليّ الشافعيّ (٢):
(والواضعون للحديث أصناف، وأعظمهم ضرراً قومٌ من المنسوبين إلى الزّهد، وضعوا الحديث احتساباً فيما زعموا، فتقبّل الناس موضوعاتهم ثقةً منهم بهم، وركوناً إليهم، ثم نهضت جهابذة الحديث بكشف عوارها ومحو عارها، والحمد لله. وفيما روينا عن الإمام أبي بكر السّمعاني: أنّ بعض الكراميّة (٣) ذهب إلى جواز وضع الحديث في باب التّرهيب والتّرهيب. ثم إنّ الواضع ربّما صنع كلاماً من عند نفسه فرواه، وربّما أخذ كلاماً لبعض الحكماء أو غيرهم، فوضعه على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» (٤).

وجاء العلامة الأميني -صاحب موسوعة الغدير- بأسماء عدد من هذا الصّنف من الوضّاعين نقلاً عن ما جاء في تراجمهم في كتاب لسان الميزان لابن حجر، قال: (فهذا حرب بن ميمون، مجتهد عابد، وهو أكذب الخلق. وهذا الهيثم الطائي، يقوم عامة الليل بالصلاة، وإذا أصبح يجلس ويكذب. وهذا محمد بن إبراهيم الشامي،

١. مقدمة صحيح مسلم، ج ١، ص ٤٢.

٢. ت ٦٤٣هـ، أحد علماء الحديث، تفقّه على والده المعروف بشهزور، ثم اشتغل بالموصل مدة ودرس بالمدرسة الصلاحية ببيت المقدس مديدة. قال عنه ابن خلكان: «كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وما يتعلق في علم الحديث ونقل اللغة وكانت له مشاركة في فنون عديدة وكانت فتاويه مسددة وهو أحد أشياخي الذين أنتفع بهم».

٣. الكراميّة فرقة كلامية من فرق المرجئة، ظهرت في النصف الأول من القرن الثالث الهجري.

٤. ابن الصّلاح: علوم الحديث، ص ٩٩-١٠٠.

كان من الزهاد وهو الكذاب الوضاع. وهذا الحافظ عبد المغيث الحنبلي، موصوف بالزهد والثقة والدين والصدق والأمانة والصلاح والاجتهاد واتباع السنة والآثار، وهو يؤلف من الموضوعات كتاباً في فضائل يزيد بن معاوية. وهذا معلّى بن صبيح من عباد الموصل، وكان يضع ويكذب. وهذا معلّى بن هلال، عابد وهو كذاب. وهذا محمد ابن عكاشة، بكّاء عند القراءة، وهو وضاع أي وضاع. وهذا أبو عمر الزاهد، ألف من الموضوعات كتاباً في فضائل معاوية بن أبي سفيان. وهذا أحمد الباهلي: من كبار الزهاد، وهو ذلك الكذاب الوضاع قال ابن الجوزي: كان يتزهد ويهجر شهوات الدنيا، فحسن له الشيطان هذا الفعل القبيح. وهذا البرداني، رجل صالح، ويضع الحديث في فضل معاوية. وهذا وهب بن حفص: من الصالحين، ومكث عشرين سنة لا يكلم أحداً، وكان يكذب كذباً فاحشاً. وهذا أبو بشر المروزي الفقيه، أصلب أهل زمانه في السنة، وأذنبهم عنها، وأخفهم لمن خالفها، وكان يضع الحديث ويقلبه. وهذا أبو داود النخعي، أطول الناس قياماً ليل وأكثرهم صياماً بنهار، وهو وضاع. وهذا أبو يحيى الوكّار، من الكذابين الكبار، وكان من الصلحاء العباد الفقهاء. وهذا إبراهيم بن محمد الأمدي، أحد الزهاد وأحاديثه موضوعة^(١).

وحول ما وُضع في خصوص باب فضائل السور، قال محمد بن أحمد بن أبي بكر بن قُرّح القرطبي^(٢): (لا التفات لما وضعه الواضعون واختلقه المختلقون من الأحاديث الكاذبة والأخبار الباطلة في فضل سور القرآن وغير ذلك من فضائل الأعمال، وقد

١. يوزيكي: الواضعون وأحاديثهم من كتاب الغدير، ص ٣١٣-٣١٤.

٢. قال عنه الذهبي: «إمام متفتّن متبحّر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة إطلاعه ووفور عقله وفضله».

ارتكبتها جماعة كثيرة وضعوا الحديث حسبة^(١) كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال. كما روى عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم المروزي ومحمد بن عكاشة الكرمانى وأحمد بن عبد الله الجويباري وغيرهم^(٢).

وقال ابن الصلاح: (روينا عن أبي عصمة^(٣) أنه قيل له: من أين لك عن عكرمة، عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة؟ فقال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقهِ أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق، فوضعت هذه الأحاديث حسبة. وهكذا حال الحديث الطويل الذي يُروى عن أبي بن كعب، عن النبي «صلى الله عليه وسلم» في فضل القرآن سورة فسورة. بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بآئه وجماعة وضعوه، وإن أثر الوضع ليّين عليه، ولقد أخطأ الواحدي المفسر، ومن ذكره من المفسرين في إيداعه تفاسيرهم^(٤)).

ونقل القرطبي عن القاضي أبي بكر بن العربي قوله: (وقد اقتحم الناس في فضل القرآن وسوره أحاديث كثيرة، منها ضعيف لا يُعَوَّل عليه، ومنها ما لم يُنزل الله بها من سلطان، وأشبه ما جمع في ذلك كتاب ابن أبي شيبة وكتاب أبي عبيد وفيها باطل عظيم، وحشو كثير. وقد ذكر الحاكم وغيره من شيوخ المحدثين أنّ رجلاً من الزهاد انتدب في وضع أحاديث في فضل القرآن وسوره، فقبل له: لم فعلت هذا؟ فقال: رأيت الناس زهدوا في القرآن فأحببت أن أرغبهم فيه. فقبل: فإنّ النبي «صلى الله عليه وسلم»

١. أي احتساباً وتطلعاً لرضا الله والأجر.

٢. القرطبي: التذكار في فضل الأذكار، ج ١، ص ١٦٩.

٣. نوح بن أبي مريم، أبو عصمة المروزي قاضي مرو.

٤. ابن الصلاح: علوم الحديث، ص ١٠٠-١٠١.

قال: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». فقال: أنا ما كذبت عليه، إنما كذبت له^(١).

وبعد هذه الأقوال والشواهد والشهادات، هل يمكن الاطمئنان إلى ما جاء من مرويات وأقوال في فضائل سورة الإسراء من دون تثبت ولا تدقيق، لاسيما تلك التي تضمّنت شيئاً من المبالغات أو التعليمات التي لم نعهد لها مثيلاً في أحكام وتشريعات الإسلام، ككتابة السورة في خرقة وربطها بالنشاب لإصابة الهدف، وأمثال ذلك؟!

• خلاصة الفصل:

- لسورة الإسراء ثلاثة أسماء، وكانت تُعرف -أساساً- باسم سورة بني إسرائيل.
- أسماء السور ليست توقيفية، وبعض السور عُرفت بأسماء خاصة على عهد النبي كما كان يُشار إلى بعضها بذكر شخصية أو حدث أو قصة وغير ذلك، وبمرور الزمان استقرّت الأسماء المشهورة للسور، واكتسبت هذه التسميات نوعاً من القداسة بحيث اكتفي بها، ولم يُعمل على وضع تسميات جديدة لها.
- سورة الإسراء مكّية، ويبدو أنّ آياتها نزلت في مناسبات متعدّدة، وأن مبدأ نزولها كان مع حدث الإسراء الذي وقع في نهايات العهد المكيّ، ولربما في حدود السنة العاشرة من البعثة على وجه التحديد.
- وُضعت الكثير من الروايات في فضائل سور القرآن الكريم، ومنها سورة الإسراء، وفي بعضها مضامين من المستبعد أن تكون صادرة عن النبي أو الأئمة، ومن المفارقات أن يكون وضعو هذه الروايات قد أرادوا التقرب إلى الله بذلك.

١. القرطبي: التذكار، ج ١، ص ١٧٠.

الإسراء والأقصى

الإسراء والأقصى

• موضوعات هذا الفصل:

- شرح الآية الأولى من سورة الإسراء، ودلالات كلماتها وجملها.
- بحث حول تاريخ المسجد الحرام، وتحديد منطلق الإسراء من خلال مناقشة الروايات في هذا الباب وعرضها على ما جاء في الآية الأولى.
- تحديد المراد من منتهى الإسراء، وهو المسجد الأقصى، ومناقشة الأقوال التي تنفي أن يكون هو المسجد المعروف الموجود في مدينة القدس في فلسطين.
- كيف تأسس المسجد الأقصى؟ ومن هو مؤسسه؟ ما حدوده ومساحته؟ وما أهم معالمه التاريخية؟ وما هي الأدوار التي مرّ بها إلى أن أعيد بناؤه في العهد الإسلامي؟
- مناقشة هل لليهود حق في المسجد الأقصى، بل وفي الأرض الفلسطينية ككل؟
- لماذا أسري بالنبي إلى المسجد الأقصى؟ وما علاقة الإسراء بتشريع الصلاة؟

• بداية جذابة:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

﴿سُبْحَانَ﴾: سورة الإسراء هي السورة الوحيدة في القرآن الكريم والتي بدأت بتنزيه الله «تعالى» بكلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ على وجه التحديد، وإن وجدنا مثل هذا التنزيه في بدايات سورٍ أخرى، ولكنه جاء باشتقاقات مغايرة، وهي:

- (١) سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).
- (٢) سورة الحشر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).
- (٣) سورة الصف: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).
- (٤) سورة الجمعة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).
- (٥) سورة التغابن: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥).
- (٦) سورة الأعلى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٦).

كما جاءت كلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ في وسط الآية الأولى من سورة التحل: ﴿أَنَّى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٧).

ولهذا تمتاز سورة الإسراء بهذه البداية الجذابة التي تستدعي الانتباه والعناية الشديدة من قِبَل المستمعين بأنَّ ما سيأتي هو خبرٌ عجيبٌ يدلُّ على عظيم القدرة، علاوة على ما في كلمة التسييح من دلالة على التنزيه، وكل ذلك لا يليق إلا بجلال الله.

وحيث أنَّ التَّسْيِيحَ في الآية قد ارتبط بإسراء النبي «صلى الله عليه وآله»، لذا فهي -علاوة على الدَّالَتَيْنِ السابقتين- تدلُّ على المقام الرفيع لرسول الله، فقد تعلَّق ذلك الحدث العجيب به «صلى الله عليه وآله» دون غيره، وبلحاظ الآيات الخاصة التي رآها، وسنحدث عن هذه النقطة في حينه.

• دلالة كلمة أسرى:

﴿أَسْرَى﴾: قال ابن فارس في «مقاييس اللغة» في مادة «سَرَوْ»: (السين والراء والحرف المعتلَّ بابٌ متفاوت جداً، لا تكاد كلمتان منه تجتمعان في قياس واحد^(١)..... السُّرَى: سَيْر الليل، يقال: سَرَيْتُ وَأَسْرَيْتُ)^(٢).

ونبّه العلامة ابن عاشور إلى وحدة معنى «سَرَى» و«أَسْرَى» في الآية، وأنَّ «أَسْرَى» لغةٌ في سَرَى^(٣)، أي أنَّ الكلمتين بمعنى واحد، وهو: «سار في الليل»، وأنَّ الهمزة هنا ليست للتَّعْدِيَةِ، لأنَّ التَّعْدِيَةَ حاصلة بالباء.

وتوضيح ذلك: أنَّ الفعل اللازم يصير متعدّياً إلى مفعول أو أكثر بعدّة طرق، منها الهمزة، ومنها الباء.

١. أي ليس لاشتقاق هذه الكلمة أصل واحد في المعنى يُرجع إليه.

٢. ابن فارس: مقاييس اللغة، ج ٣، ص ١٥٥.

٣. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٥، ص ١١.

المثال الأول: الفعل في جملة «خَرَجَ المَعْلَمُ» فعلٌ لازم، ويمكن تعديته إلى مفعولٍ بإضافة الهمزة، فيُقال: «أَخْرَجَ المَعْلَمُ التلاميذَ».

المثال الثاني: الفعل في جملة «خَرَجَ المَعْلَمُ» فعلٌ لازم، ويمكن تعديته إلى مفعولٍ بإضافة الباء أيضاً، فيُقال: «خَرَجَ المَعْلَمُ بالتلاميذَ». فباء التعدية عند جمهور التَّحْوِين تُرادف الهمزة، فإذا قيل: «خَرَجَ المَعْلَمُ بالتلاميذَ»، فمعناه: «أَخْرَجَ المَعْلَمُ التلاميذَ»، ومثل ذلك قوله «تعالى»: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾^(١) أي أذهب الله نورهم.

فابن عاشور نبّه إلى أن التعدية للفعل ﴿أَسْرَى﴾ في الآية من قبيل المثال الثاني، لا المثال الأول، أي أن التعدية جاءت بإضافة حرف الباء في قوله: ﴿بِعَبْدِهِ﴾، وعليه يكون المعنى: «سبحان الذي سار بعبدته في الليل».

• التشرّف بالعبودية لله:

﴿بِعَبْدِهِ﴾: لا خلاف على أنّ المراد بذلك شخصُ رسول الله «صلى الله عليه وآله»، والإضافة إلى الله «تعالى» في هذه العبارة إضافةٌ تشريفيةٌ، فكُنّا عبيدُ الله، وأما نسبة العبودية للنبي «صلى الله عليه وآله» فهي لبيان مقامه الخاص عنده «سبحانه»، إذ حَقَّق أعلى مراتب العبودية له.

وقد وصَفَ الله «تعالى» أنبياءه بالعبودية، ومن ذلك قوله: ﴿وَإِذْ ذُكِّرَ عَبْدَانَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ۖ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَ الدَّارِ ۖ﴾^(١) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ^(٢). وقوله «سبحانه»: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ

١. سورة البقرة: ١٧.

٢. سورة ص: ٤٥-٤٧.

الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ (١).

وقد كان وصفُ النبيِّ «صلى الله عليه وآله» بالعبودية من أحبِّ الأوصاف إليه، وتكرَّر وصفه بها في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله «سبحانه»:

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (١٧٠) (٢).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (١٧١) (٣).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١٧٢) (٤).

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧٣) (٥).

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (١٧٤) (٦).

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (١٧٥) (٧).

١. سورة النساء: ١٧٢.

٢. سورة النجم: ١٠.

٣. سورة الكهف: ١.

٤. سورة الفرقان: ١.

٥. سورة الحديد: ٩.

٦. سورة الزمر: ٣٦.

٧. سورة الجن: ١٩.

• حدث خارق:

﴿لَيْلًا﴾: جاء التنكير للتعظيم، وإضافتها -رغم أنّ ﴿أَسْرَى﴾ تعني السير ليلاً- لتأكيد المعنى، أو لبيان أنّ السير كان في جزء من الليل فقط.

وسواء تم قبول أنّ الآية تشير إلى وقوع السير في جزء من الليل أو تم التمسك بأن الحدث شمل الليل بأكمله، يظل هذا الحدث استثنائياً عند مقارنته بمعايير سرعة الحركة والتنقل لدى الناس في ذلك العصر، وكذلك بين ما توفر حينها من وسائل النقل التقليدية مثل الخيول والبغال والإبل والعربات والمشى على الأقدام.

فالمسافة بين المسجدين المذكورين في الآية قرابة ١٤٦٠ كم بحسب الطريق المعبّدة للمركبات في هذا العصر، ويُقطع -بحسب خرائط «قوقل» Google maps- في ١٧ ساعة، وتُقطع المسافة بين مكة والقدس بالطائرة في أقلّ من ساعتين. [انظر اللوحة رقم ١]

وأما بحسب التنقل على الإبل، فإنّ المسافة المقطوعة في النهار مع بعض الاستراحات المتقطعة تتراوح ما بين ٤٠-٤٥ كم، وهي تتطلب -تقريباً- مسير ما بين ٣٣ إلى ٣٧ يوماً. وأمّا إذا كانت الحركة متواصلة خلال الليل والنهار مع بعض الاستراحات المتقطعة، فإنّ مجموع أيام السفر يتقلّص إلى نصف ذلك، وإن كان تحقيقه عملياً صعب لحاجة المسافرين والإبل إلى الراحة لمدة أطول خلال اليوم الواحد.

وقد قام جمعٌ من أساتذة الحوزة العلميّة بمدينة قم في سنة ١٤٣٦ هـ بتجربة ميدانيّة، أعقبتها تجربة أخرى في السّنة اللاحقة، وذلك لتحديد المسافة المقطوعة على الإبل خلال نهار واحد، فكان معدّل سيرهم ٤ كم و ٨٨٤ م تقريباً في كلّ ساعة، وتمّ قطع حوالي ٤٠ كم و ٩٧ م في ١٠ ساعات و ٣٦ دقيقة، وهو الحد الأدنى لطول التّهار، مع



اللوحة رقم ١: الطريق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

احتساب التوقف لساعتين وخمس عشرة دقيقة لتناول وجبتي الإفطار والغداء وإقامة الصلاة. والتجربة بتفاصيلها منشورة على موقع ijtihadnet.net تحت عنوان «تحديد مقدار مسيرة يوم طبقاً للحسابات الجديدة في موضوع قصر الصلاة».

● مبدأ الإسراء:

﴿مَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: لا خلاف حول تحديد المراد من المسجد الحرام، فهو المسجد الذي يضم الكعبة المشرفة، ومقام إبراهيم الذي هو آية وعلامة على هذا المسجد، وفي ذلك ردٌّ على بعض الادعاءات السخيفة التي ظهرت مؤخراً بأن المسجد الحرام يقع في البتراء من الأردن: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ

سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾^(١)، ويضمّ المسجد الحرام أيضاً حجرَ إسماعيل، وبجانبه بئر زمزم، وهو قبلة المسلمين: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنِيْ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾^(٣)، وأحاطه الله بحرم له أحكامه الخاصة، وهو حرام -بمعنى مُحَرَّم- لما له من حُرمة وقداسة عند المؤمنين، وبلحاظ التشريع الإلهي الخاص بالحرم المكي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾^(٤)، فيحرم الصيد البري، ولا يجوز قلع نباته إلا ما استثنى، ولا يُقام فيه الحد ولا القصاص ولا التعزير على مَنْ جَنَى خارجه ثم لجأ إليه، ولكن لا يُطعم الجاني ولا يُكَلَّم ولا يُسمح له بالبيع والشراء ولا يُؤوى حتّى يضطرّ إلى الخروج منه، فيؤخذ ويُعاقب على جنايته. كما قال بعض الفقهاء بجرمة أخذ لُقْطَتِهِ، كأن يجد مقداراً من المال ولا يعلم صاحبه^(٥).

ويحرم -كذلك- قتال الكفار فيه إلا أن يبدأ الكفار بذلك: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾^(٦)، وأمر الله «سبحانه وتعالى» إبراهيم وإسماعيل «عليه السلام» أن يطهرا هذا المسجد

١. سورة آل عمران: ٩٦ - ٩٧.

٢. سورة البقرة: ١٤٩ - ١٥٠.

٣. سورة العنكبوت: ٦٧.

٤. السيستاني: مناسك الحج، ص ١٣٩-١٤١.

٥. سورة البقرة: ١٩١.

مِنْ صور الشِّرك كُلِّها، وَأَنْ يجعلَها مَكَاناً مَهِيئاً للطَّواف والصَّلَاة والحج والعبادة بصورها المتعدّدة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٦١﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٦٢﴾﴾^(١)، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾^(٢).

تعدّدت الأقوال حول مساحة المسجد الحرام التي تمّ تحديدها على يد النبي إبراهيم «عليه السلام»، ويمكن تلخيصها في التالي:

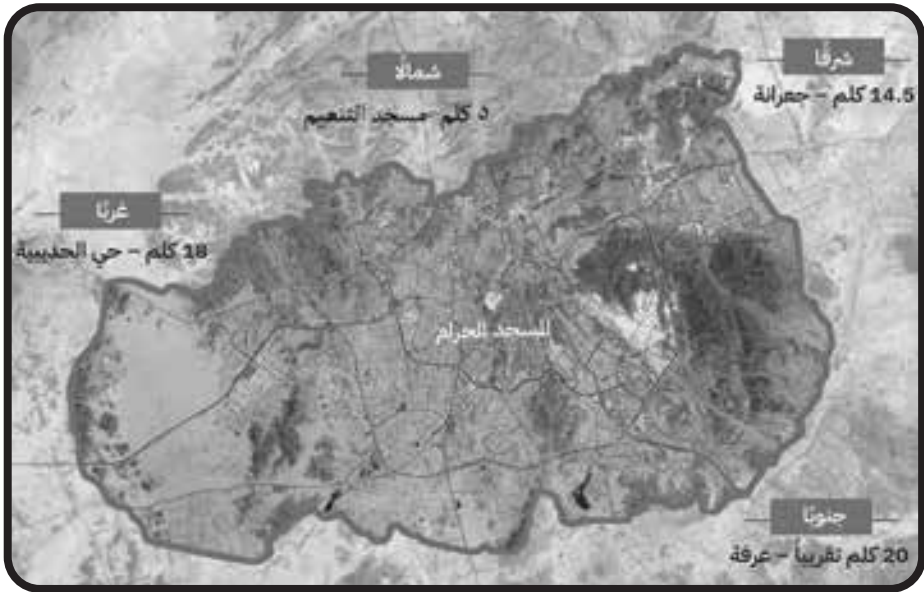
القول الأوّل: كلّ الحرم المكي. وفي بعض الأخبار والروايات أنّ إبراهيم «عليه السلام» هو الذي عيّن حدود هذا الحرم من الجهات المختلفة، ووضع أنصباءً، أي أعمدة وعلامات قائمة للدلالة عليها، وهي تُجَدّد من زمن إلى آخر، وإذا جعلنا الكعبة المشرفة في المركز، فإنّ المسافة بينها وبين تلك الحدود متفاوتة من موضع إلى آخر. [انظر اللوحات ٢-٤]

وممّن قال بذلك إمام الحرم المكي في زمانه، عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ)^(٣)، وهذا يعني أنّ مساحة المسجد الحرام قد تقلّصت بشكل كبير جداً، وهذا لا يمكن أن يصح، لأنّ للمساجد أحكاماً خاصة تتعارض مع فرض أنّ الحرم المكي كله مسجد،

١. سورة الحج: ٢٦ - ٢٧.

٢. سورة البقرة: ١٢٥. والعكف هو الملازم للمكان.

٣. لُقّب بشيخ الإسلام، مفتي الحرم، كان من مولّدي الحنّـد [اسم منطقة في اليمن بالقرب من تعز، والمولّد: من ليس بأصيل، ويبدو من وصف ملاحه أنّه كان من أصل أفريقي] من موالى مكة، عاش فيها، قال المجلسي: [وكان بنو أمية يعظّمونه جداً، حتّى أمرّوا المنادي أن ينادي: لا يفتي الناس إلاّ عطاء] وأحتِمِلُ أن الحادثة كانت في موسم حج أو عمرة في مكة.



اللوحة رقم ٢ : حدود الحرم المكي



اللوحة رقم ٣ : أنصبة قديمة لحود الحرم المكي



اللوحة رقم ٤ : علامات حديثة لحدود الحرم المكي

وذلك من قبيل حُرمة مكث المجنب والحائض فيها، وحرمة تنجيسها، وعدم تملكها ملكية شخصية، وحرمة بيعها وبطلانه، وغير ذلك من أحكام المساجد التي يذكرها الفقهاء في مصنفاتهم، بل يحرم على المجنب والحائض اجتياز المسجد الحرام بالدخول من باب والخروج من باب آخر، بينما لا يُمنع من كلّ ذلك شرعاً في حدود الحرم المكي إلا ما كان منه مسجداً.

القول الثاني: ما بين الحزورة إلى المسعى. والحزورة موقع تاريخي بمكة المكرمة، تدلّ على موضعه إحدى منارات المسجد الحرام التي تقع في الركن الجنوبي منه، وتُسمّى منارة الحزورة ومنارة باب الوداع أيضاً، وتقع حالياً ضمن مدخل باب الملك عبدالعزيز. ومن معالم الحزورة سوق كان يحمل اسمها (ويُطلق عليه أيضاً سوق الحنّاطين)، وهو سوق قديم ذُكر في بعض أحداث السيرة النبوية، وموقعه ما بين باب الوداع وباب

سيدنا إبراهيم، ويضمّ دكاكين الجزارة وبيع السمك والخضار والفواكه والحبوب. [انظر اللوحتين رقم ٥-٦]

وفي الكافي بالسند عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله «عليه السلام» قال: (كان خَطَّ إبراهيم بمكة ما بين الحزورة إلى المسعى، فذلك الذي كان خطَّ إبراهيم «عليه السلام» يعني المسجد)^(١). وفي أخبار مكة للأزرقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: (أساس المسجد الحرام الذي وضعه إبراهيم من الحزورة إلى المسعى إلى مخرج سيل أجياد)^(٢). [انظر اللوحة رقم ٧]

القول الثالث: ما بين الصفا والمروة دون ذكرٍ للحزورة جنوباً. ففي التهذيب للشيخ الطوسي بالسند عن الحسن بن النعمان قال: (سألت أبا عبدالله «عليه السلام» عما زادوا في المسجد الحرام؟ فقال: إن إبراهيم وإسماعيل حدّا المسجد الحرام ما بين الصفا والمروة)^(٣).

وفي بعض الروايات إشارات إلى تقلّص المساحة الأصلية للمسجد الحرام، كالتي رواها الكليني بالسند عن جميل بن دراج قال: (قال له الطيار وأنا حاضر: هذا الذي زيد هو من المسجد؟) فقد جرت زيادة في مساحة المسجد الحرام على عهد أبي جعفر المنصور (فقال: نعم، إنهم لم يبلغوا بعد مسجد إبراهيم وإسماعيل «عليهما السلام»)^(٤).

والقدر المتيقّن -وفقاً للروايات والأخبار- أنّ المسجد الحرام في العهد الإسلامي

١. الكليني: الفروع من الكافي، ج ١ ص ٣٠٩.

٢. الأزرقي: أخبار مكة، ج ٢، ص ٦٢.

٣. الطوسي: تهذيب الأحكام، ج ١، ص ٥٧٦.

٤. الكليني: الفروع من الكافي، ج ١ ص ٣٠٩.



اللوحة رقم ٥ : منارة الحزورة في المسجد الحرام



اللوحة رقم ٦ : موضع الحزورة من المسجد الحرام ببناؤه الحديث



اللوحة رقم ٧ : موضع الحزورة وجبل أجياد

شهد زيادات متتالية في مساحته، وذلك وفق البيان التالي:

التوسعة الأولى: توسعة الخليفة عمر بن الخطاب في عام ١٧ هـ، وفيها تمّت زيادة مساحة المسجد ٥٦٠ م٢ تقريباً، بعد أن اشتكى الناس من ضيق المكان، ووجد عمر في وقوع السيل الجارف فرصة لتنفيذ هذا المشروع، فاشتري البيوت القريبة من الحرم وهدمها، وقد رفض البعض أن يأخذ ثمن البيت، وامتنع آخرون عن البيع، فوضعت أثمان بيوتهم في خزانة الكعبة حتى أخذوها فيما بعد. وذكر الأزرقي في كتابه أن المسجد الحرام لم يكن محاطاً بجدران، إنما كانت الدور محدة به من كل جانب، وبين الدور أبواباً يدخل منها الناس من كل نواحي المسجد الحرام، فأحاط الخليفة عمر المسجد بجدار قصير وذلك ضمن أعمال التوسعة المقامة على عهده.

التوسعة الثانية: توسعة الخليفة عثمان بن عفان، في عام ٢٦ هـ، بزيادة مساحة المسجد لتصبح ٤٣٩٠ م^٢ تقريباً، وتُقدّر الزيادة بما يقارب ٢٠٤٠ متراً مربعاً، فهُدِمت بيوت محيطة بالمسجد الحرام، وأدخلت الأراضي ضمن مساحة المسجد، وكان الخليفة عثمان هو أوّل مَنْ أدخل الأروقة المسقوفة والأعمدة الرخامية للمسجد الحرام.

التوسعة الثالثة: توسعة عبدالله بن الزبير في سنة ٦٤ هـ. فبعد انتهاء الحصار الذي فرضته قوَّات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ على المسجد الحرام وقصفه بالمنجنيق، سيطر عبدالله بن الزبير على مكة المكرمة، قام بإجراءات عمرانية شملت الكعبة المشرفة والزيادة في مساحة المسجد بمقدار ٤٠٥٠ م^٢ تقريباً، فصار المجموع ٨٤٤٠ م^٢ تقريباً.

التوسعة الرابعة: في عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٧٣ هـ. فبعد القضاء على حُكم عبدالله بن الزبير على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، وما وقع على المسجد الحرام من عدوانٍ من قبل الجيش الأموي الذي ألقي بقذائف المنجنيق، فاحتُرقت الكعبة وتهدّمت بعض أجزائها، سيطر الحجاج على مكة المكرمة، وقام بإجراءات عمرانية هدم خلالها بعض ما قام به ابن الزبير من تغييرات. ثم وقع سيل جارف في سنة ٩١ هـ، فقام عبد الملك بن مروان بإجراءات عمرانية إضافية، وزاد من مساحة المسجد، بمقدار ٢٨٠٥ م^٢ تقريباً، فبلغت المساحة الإجمالية ١١٢٤٥ م^٢ تقريباً.

التوسعة الخامسة: في عهد أبي جعفر المنصور العباسي، حيث زيد في مساحة المسجد الحرام من جهة الركن الشامي، وتم الانتهاء من الإجراءات العمرانية سنة ١٤٠ هـ. وكما واجه الخليفة عمر بعض المعارضة من أصحاب الأملاك عند المسجد الحرام، كذلك واجه أبو جعفر المنصور مثل هذه المعارضة، وقد روى العياشي في

تفسيره عن عبد الصمد بن سعد قال: (طلب أبو جعفر من أهل مكة أن يشتري بيوتهم ليزيد في المسجد، فأبوا فأرغبهم فامتنعوا، فضاق بذلك فسأل أبا عبد الله «عليه السلام» عن ذلك، فقال: إني سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم وأفنيتهم ليزيد في المسجد وقد منعوني فقد غمّني ذلك غماً شديداً، فقال أبو عبد الله «عليه السلام»: لم يغمك ذلك، وحجتك عليهم فيه ظاهرة؟ قال: وبما أحتج عليهم؟ قال: بكتاب الله، فقال: في أي موضع؟ فقال: قول الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾^(١)، قد أخبرك الله أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة، فإن كانوا هم نزلوا قبل البيت فلهم أفنيتهم، وإن كان البيت قديماً قبلهم فله فناؤه، فدعاهم أبو جعفر فاحتج عليهم بهذا، فقالوا له: اصنع ما أحببت^(٢)).

وروى العياشي أيضاً ما يشبه ذلك بشأن التوسعة التي قام بها المهدي ابن المنصور العباسي، وتضمنت إشارة الإمام موسى الكاظم «عليه السلام» عليه بمثل ذلك.

وليس في هاتين الروايتين ما يدل -صراحةً- على أنّ هذه الأراضي التي أضيفت إلى مساحة المسجد الحرام كانت مسجداً ولها أحكام المسجدية، بل بمعنى أن حاجة المسجد الحرام والمصلحة العامة مقدّمة على المصلحة الخاصة بالأفراد، ومتى ما تحقق التعارض تمّ تقديم المصلحة الأولى.

وبعد كل الإجراءات السابقة بلغت المساحة الكلية بحسب ما ذكره المؤرخ الأزرقى (ت ٢٥٠ هـ): (ذرع المسجد الحرام مكسراً مائة ألف ذراع وعشرون ألف ذراع)^(٣)

١. سورة آل عمران : ٩٦.

٢. العياشي: تفسير العياشي، ج ١، ص ١٨٥.

٣. الأزرقى: أخبار مكة، ج ٢، ص ٧٤.

أي : ٥٥ ألف م تقريباً. ثم استمرّت التوسعات في العهد العباسي وما بعد ذلك إلى العهد السعودي الذي شهد ثلاث توسعات حتى صارت الطاقة الاستيعابية للمصلين في المسجد الحرام إلى مليون و٨٥٠ ألف مُصَلٍّ، إذ وصل إجمالي مسطحات البناء إلى مليون و٤٧٠ ألف م^٢.

بعد هذه الإطلالة على حدود المسجد الحرام وما جرى لها من توسعات، نتوقف عند ما أثارته بعض المرويّات من خلاف حول تحديد الموضع الدقيق لبدء حادثة الإسراء، وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) حِجْر إسماعيل: عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (بَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحِجْرِ عِنْدَ الْبَيْتِ، بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ، إِذْ أَتَانِي جَبْرِيلُ «عَلَيْهِ السَّلَامُ» بِالْبَرَقِ...) (١).

(٢) باب المسجد الحرام: في رواية أخرى أن النبي «صلى الله عليه وآله» خرج من الحِجْرِ إلى باب المسجد، فانطلق به البراق إلى المسجد الأقصى، فعن الحسن بن أبي الحسن، قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ فِي الْحِجْرِ، جَاءَنِي جَبْرِيلُ فَهَمَزَنِي بِقَدَمِهِ، فَجَلَسْتُ، فَلَمْ أَرَ شَيْئاً، فَعُدْتُ لِمَضْجِعِي، فَجَاءَنِي الثَّانِيَةُ فَهَمَزَنِي بِقَدَمِهِ، فَجَلَسْتُ فَلَمْ أَرَ شَيْئاً، فَعُدْتُ لِمَضْجِعِي، فَجَاءَنِي الثَّالِثَةُ فَهَمَزَنِي بِقَدَمِهِ، فَجَلَسْتُ، فَأَخَذَ بَعْضُي (٢)، فَقَمْتُ مَعَهُ، فَخَرَجَ بِي إِلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَإِذَا دَابَّةٌ بَيْضَاءُ بَيْنَ الْحَمَارِ وَالْبَغْلِ...) (٣).

١. الزمخشري: الكشف، ج ٢، ص ٦٢٢. ولكمة (بَيْنَا) تعني (بينما).

٢. العَصْدُ: ما بين المرفق إلى الكتف.

٣. الطبري: جامع البيان، ج ١٥، ص ٥.

(٣) بيت أم هانئ: إذ روى محمد بن إسحاق بإسناده عن أبي صالح بن باذام عن أم هانئ بنت أبي طالب أنها كانت تقول: (ما أُسري برسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة، فصلّى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلمّا كان قبيل الفجر، أهبنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم»^(١)، فلمّا صلى الصّبح وصلّينا معه قال: يا أم هانئ، لقد صلّيت معكم العشاء الآخرة - كما رأيّت - بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصلّيت فيه، ثم صلّيت صلاة الغداة^(٢) معكم الآن كما ترين)، وأوّل بعض أصحاب هذا القول بأنّ المراد من المسجد الحرام كلّ الحرم المكي، وأنّ الحرم المكي كلّهُ مسجد، بينما ذهب آخرون إلى أنّه عُرج برسول الله مرّتين، أحدهما من المسجد الحرام، والآخر من بيت أم هانئ، وسنّحدث عن هذه المسألة لاحقاً^(٣).

وحّد الأزرقي موضع هذه الدار إذ قال: (الحزورة: وهي كانت سوق مكة، كانت بفناء دار أم هانئ ابنة أبي طالب التي كانت عند الحنّاطين، فدخلت في المسجد الحرام)^(٤). أي كان دخولها ضمن أعمال التوسعة التي جرت بعد عهد رسول الله، والأرجح وقوع ذلك خلال العهد العبّاسي.

وعند حديثه عن أبواب المسجد الحرام قال: (والباب السابع فيه أسطوانة عليها طاقان... وهذا الباب مما يلي دور بني عبد شمس وبني مخزوم، وكان يُقال له: باب أم هانئ ابنة أبي طالب)^(٥). [انظر اللوحتين رقم ٨-٩] علماً بأنّ زوج أم هانئ هو هبيرة

١. أَهَبَهُ مِنْ نَوْمِهِ: أَيْقَظَهُ.

٢. أي صلاة الفجر.

٣. ابن هشام: السيرة النبوية، ج ١، ص ٤٠٣.

٤. الأزرقي: أخبار مكة، ج ٢ ص ٢٩٤.

٥. ن.م. ص ٩١.



اللوحة رقم ٨ : باب أم هانئ



اللوحة رقم ٩ : الباب في خارطة لهيئة المساحة العسكرية العثمانية ١٢٩٧ هـ

ابن أبي وهب المخزومي، فهو بيت من بيوت بني مخزوم، ولربما نُسب إلى أم هانئ بلحاظ ما جاء في أخبار فتح مكة من أنّ النبي «صلى الله عليه وآله» نزل -مؤقتاً- في بيتها، ولما شهد هذا البيت من أحداث في الأيام التي تلت الفتح، ودورها فيها، فاشتهر باسمها، لا باسم زوجها.

وعقب الطبري -بعد أن ذكر الآراء السابقة- بقوله: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إنّ الله «عز وجل» أخبر أنه أسرى بعبد من المسجد الحرام، والمسجد الحرام هو الذي يتعارفه الناس بينهم إذا ذكروه)^(١) وحسناً فعل.

وبرأي أن الآية لو كانت قد ذكرت مكة بدلاً عن المسجد الحرام لكان القول ببء الإسراء من بيت أم هانئ احتمالاً مقبولاً، وأمّا مع التصريح بالمسجد الحرام فلا يبقى مجال لقبول ما يخالف ذلك.

وقد يرفع البعض هذا التعارض من حيث أنّ المسجد الحرام في الآية:

١. عموم الحرم المكي بمحدوده التي تتجاوز مكة المكرمة بكثير.

٢. أو المسجد الذي خطّه إبراهيم وحدّده بحيث كان يشمل الحرم المكي كله.

٣. أو المسجد بمحدوده الممتدة إلى الحزورة، وقد علمنا أنّ بيت أم هانئ عند الحزورة.

أو بتبني مقولة تعدّد وقوع حدث الإسراء.

وبرأي أن التوجيهات السابقة غير موفقة وفي غير محلّها، وقد قال «عز وجل»: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

١. الطبري: جامع البيان، ج ١٥، ص ٦.

وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴿١٤٤﴾^(١)، فهل قبلة المسلمين هي عموم الحرم المكي؟ وإذا كان بيت أم هانئ بجانب الحزرة فهل هذا يعني أن بيتها كان -في الواقع- في حدود المسجد الحرام، وأن النبي عندما نزل فيه -عند فتح مكة كما في الأخبار- قد نزل في أرض مغصوبة، ولم يتحرّج من ذلك؟ وكيف يتم توجيه التصرفات المنافية لأحكام المسجدية في هذا الموقع مما أشرنا إليه سابقاً والذي استمر إلى ما بعد عهد النبي، حيث لم يُضَمَّ هذا البيت إلى المسجد الحرام إلا في العهد العباسي؟

ثم إنَّ الراوي عن أمّ هانئ، وهو أبو صالح باذام أو باذان، كان مولى لها، ومن الفرس الذين عاشوا في اليمن، وصار في مُلك أم هانئ بعد أن كان مُلكاً لابنها جعدة، فأعتقته. كتب بعد ذلك تفسيراً للقرآن ونسبه إلى ابن عباس، وقيل أنه لم يسمع منه رواية! وعن حبيب بن أبي ثابت: (كُنَّا نَسَمِّي أَبَا صَالِحٍ مَوْلَى أُمِّ هَانِئٍ، دُرُوعَزْنَ)^(٢). وفي لغتنامه «مُعْجَم» دهخدا: (دُرُوعَزْنَ: كاذب)^(٣). ورُوي عنه أنه قال: (كُلُّ شَيْءٍ حَدَّثْتُمْ فَهُوَ كَذِبٌ)^(٤)، وقيل أنه اعترف بذلك لما مرض واقترب أجله.

إلا أنَّ للعلامة الطباطبائي رأياً آخر في المسألة، حيث ذكر أنَّ من الروايات المأثورة عن أئمة أهل البيت «عليهم السلام» ما يُصرِّح بوقوع الإسراء مرّتين^(٥)، وأنَّ آيات سورة التَّجْم حيث يقول «سبحانه»: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ تدلُّ على ذلك، وأنَّ من المحتمل أنَّ منشأ اختلاف الروايات والأقوال في المكان الذي أُسري به، وتردّده بين

١. سورة البقرة: ١٤٤.

٢. البخاري: التاريخ الكبير، برقم ١٩٨٨.

3. <https://library.tebyan.net/fa/Viewer/Text/203463/14>.

٤. المقرئزي: مختصر الكامل في الضعفاء، برقم ٣٠٠.

٥. يريد بذلك الإسراء مرة، والمعراج مرة أخرى كما سيتبين ذلك من عبارته لاحقاً.

شُعْب أَبِي طَالِب^(١) وَبَيْتِ أُمِّ هَانِئٍ يَعُودُ إِلَى وَقُوعِ الْإِسْرَاءِ مَرَّتَيْنِ، أَحَدُهُمَا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَهُوَ مَا تَحَدَّثَتْ عَنْهُ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ حَيْثُ أُسْرِيَ بِهِ إِلَى خُصُوصِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَالْآخَرُ مِنْ بَيْتِ أُمِّ هَانِئٍ، وَهُوَ الْمَعْرَاجُ إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَهُوَ مَا تَحَدَّثَتْ عَنْهُ سُورَةُ النُّجُومِ، وَأَمَّا الرِّوَايَاتُ الَّتِي تَحَدَّثَتْ عَنْ وَقُوعِهِ انْطِلَاقاً مِنْ شُعْبِ أَبِي طَالِبٍ فِيهَا مَا لَا يِلَاقُ مَا كَانَ هُوَ النَّبِيُّ وَبَنُو هَاشِمٍ جَمِيعاً عَلَيْهِ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْبَلِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، إِذْ تَذَكَّرْتُ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَطْلُبُهُ طَوْلَ لَيْلَتِهِ، وَأَنَّهُ اجْتَمَعَ هُوَ وَبَنُو هَاشِمٍ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، ثُمَّ سَلَّ سَيْفَهُ وَهَدَّدَ قَرِيشاً إِنْ لَمْ يَجِدِ النَّبِيَّ، ثُمَّ نَزَلَهُ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» مِنَ السَّمَاءِ وَإِخْبَارَهُ قَرِيشاً بِمَا رَأَى، وَكُلَّ ذَلِكَ لَا يَتَلَاءَمُ مَعَ ظُرُوفِ بَنِي هَاشِمٍ، وَلِذَا تَسْقُطُ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ عَنِ الْإِسْرَاءِ كَاحْتِمَالٍ ثَالِثٍ لِمَوْضِعِ انْطِلَاقِ الْإِسْرَاءِ^(٢).

وَسَنَتَعَرَّضُ لِمَسْأَلَةِ الْمَعْرَاجِ لَاحِقاً، وَنُبَيِّنُ أَنَّ الْأَقْرَبَ كَوْنُ آيَاتِ سُورَةِ النُّجُومِ تَحَدَّثَتْ عَنِ الْمَبْعَثِ النَّبَوِيِّ لَا الْإِسْرَاءِ، وَقَدْ بَيَّنْتُ حَالَ رِوَايَةِ الْمَدْعُوبِ بِإِذَا، وَضَعْفُهَا سَنَدًا.

وِخْلَاصَةُ الْقَوْلِ أَنَّ عَلَيْنَا التَّوَقُّفَ عِنْدَ مَا ذَكَرَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ حَوْلَ مَنْطَلَقِ الْإِسْرَاءِ، وَهُوَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَلَا نَتَجَاوَزُ ذَلِكَ، لِأَنَّ مَا يَقَابِلُهُ رِوَايَاتٌ مُتَعَارِضَةٌ وَضَعِيفَةٌ سَنَدًا وَمَتْنًا، وَالْقَوْلُ بِتَعَدُّدِ الْإِسْرَاءِ -بِنَاءٍ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ- ادِّعَاءٌ لَا يَسْتَنْدُ إِلَى دَلِيلٍ تَطْمِئِنُّ إِلَيْهِ النَّفْسُ.

● منتهى الإسراء:

﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾: الْأَقْصَى أَيُّ الْأَبْعَدِ، وَالْمَرَادُ بِعُدِّهِ عَنْ مَكَّةَ، وَلَرَبَّمَا جِيءَ بِهَذَا

١. لَمْ أَعَثِرْ فِي الرِّوَايَاتِ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ.

٢. الطَّبَاطِبَائِيُّ: الْمِيزَانُ: ج ١٣، ص ٣١.

الوصف -تحديداً- لتأكيد ما ذكرناه من كونه حدثاً خارقاً بحسب موازين سرعة تنقل الناس في ذلك الزمان وسفرهم، وما توفّر فيه من وسائل التقليل التقليدية.

وبالرغم من أنّ عشرات كتب التفسير والفقه والحديث والتاريخ التي تحدّثت عن المسجد الأقصى، وبيت المقدس، والبيت المقدس^(١)، أرادت به المسجد المعروف في مدينة القدس، أو قمة جبل موريا حيث يقع المسجد وما حوله من معالم، [انظر اللوحين رقم ١٠-١١]، إلا أنّ في البين من عارض ذلك، إذ ادّعي أنّ المسجد الأقصى المشار إليه في سورة الإسراء:

١. مسجدٌ يقع في منطقة الجعرانة، في الجزيرة العربية وعلى حدود الحرم المكي، شمال مدينة مكة المكرمة وعلى بُعد ٢٨ كم تقريباً من المسجد الحرام بالطريق المعبدة المسلوكة بالمركبات، و٢٠ كم تقريباً بخط الإزاحة وبالطريق المسلوكة مشياً على الأقدام، وإتّما وُصف بالأقصى لأنّه يقع في وادي «العدوة القصوى»، به يُعرف إلى هذا اليوم. [انظر اللوحين رقم ١٢-١٣]

واستشهد أصحاب هذا الادّعاء بخبر محمد بن طارق، قال: (اتّفقتُ أنا ومجاهد بالجعرانة، فأخبرني أنّ المسجد الأقصى الذي من وراء الوادي بالعدوة القصوى، مُصلّي النبي، كان بالجعرانة، أما هذا المسجد الأدنى فإنّما بناه رجلٌ من قريش)^(٢).

فمضمون هذا الخبر أنّ في الجعرانة مسجدين، أحدهما قريب، ولذا فهو المسجد الأدنى، والآخر بعيد، ولذا فهو المسجد الأقصى، والقرب والبعد هنا قد يكون نسبة

١. يُطلق عنوان بيت المقدس أو البيت المقدس على مدينة القدس كما يُطلق على مسجدها.

٢. الأزرقى: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج ٢، ص ٢٠٧.



اللوحة رقم ١٠ : المسجد الأقصى (المسجد القبلي)



اللوحة رقم ١١ : المسجد الأقصى على جبل موريا



اللوحة رقم ١٢ : مسجد الجعرانة



اللوحة رقم ١٣ : موضع مسجد الجعرانة مقارنة بالمسجد الحرام والحرم المكي

إلى القادم -من الحجاج والمعتمرين- باتجاه مكة، أو القرب والبعد بالنسبة لحدود الحرم المكي، أو مكة نفسها.

وفي مسند أبي يعلى عن أم سلمة: (أنها سمعت رسول الله يقول: مَنْ أَهَلَ بِحُجَّةٍ أَوْ عُمْرَةٍ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، أَوْ وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ)^(١). ولا يُعْهَدُ أَنْ يَكُونَ الْإِحْرَامُ لِلْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الْوَاقِعِ فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ ذَلِكَ الْمَسْجِدَ الْوَاقِعَ فِي الْجَعْرَانَةِ، فِي «أَدْنَى الْحِلِّ»، أَي مَا يَلِي الْحَرَمَ الْمَكِّيَّ.

وأضافوا بأنَّ المسجد الأقصى الواقع حالياً في القدس لم يُعرَف بهذا الاسم على عهد النبي «صلى الله عليه وآله»، والدليل على ذلك أنَّ استعمال مصطلح «مسجد» للإشارة إلى مكان العبادة إنما تمَّ في العهد الإسلامي، فكيف يسميه القرآن مسجداً وهو موضع عبادة أهل الكتاب؟

ويمكن الردّ على الادّعاء السابق وأدلّته بالتّالي:

أولاً، القرآن الكريم استعمل مصطلح «مسجد» على المكان المخصّص للعبادة قبل الإسلام. قال «تعالى»: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ۖ﴾^(٢)، وقال «سبحانه»: ﴿يَا بَنِي آدَمَ يَا بَنِي آدَمَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا

١. أبو يعلى: المسند، ج ١٢، ص ٣٥٩.

٢. سورة الإسراء: ٢١.

بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ..... يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ (١).

ثانياً، إنّ سورة الإسراء مكّية، ووقع حدث الإسراء في العهد المكي، ولذا فإنّ ادّعاءهم هذا يعني أنّ المسجد الأقصى في الجعرانة كان موجوداً خلال العهد المكي، ولكن لم يُعهد أن أسس النبي «صلى الله عليه وآله» في العهد المكي مسجداً في تلك المنطقة، وأنه صلى فيه، كي يُعرف باسم «المسجد الأقصى»، فضلاً أن يكون قد أسس مسجدين أحدهما الأدنى والآخر هو الأقصى، كما أن أول مسجد أسسه النبي كان في «قباء» عند الهجرة إلى المدينة وهو المشار إليه في قوله «تعالى»: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (٢).

ثالثاً، تسمية مسجد الجعرانة بأنّه المسجد الأقصى لا يعني أنه المقصود في الآية، لأنه مجرد وصف يدلّ على البعد المكاني، ويمكن أن ينطبق على أكثر من مسجد، والخبر الأول الذي استشهد به أصحاب هذا الادّعاء يؤكّد ذلك حيث قال: (فأخبرني أن المسجد الأقصى الذي من وراء الوادي بالعدوة القصوى... أما هذا المسجد الأدنى...).

رابعاً، ما أهمّية المسير إلى مسجد يقع على بعد ٢٠ كم من المسجد الحرام لمن أراد أن يقصده سيراً على الأقدام أو على دابة، ليعبر عنه بهذه الفخامة والتعجيب حيث قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ كما أشرنا إلى ذلك من قبل؟ وما خصوصية مسجد الجعرانة ليُقال أنه ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾؟

١. سورة الأعراف: ٣١-٣٦.

٢. سورة التوبة: ١٠٨.

٢. ادّعاء وجود المسجد الذي أُسري إليه النبي «صلى الله عليه وآله» في السماء. واستدلّوا على ذلك ببعض الروايات:

أ) في بحار الأنوار للمجلسي نقلاً عن تفسير العياشي، عن سلام الحنّاط عن رجل عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (سألته عن المساجد التي لها الفضل، فقال: المسجد الحرام ومسجد الرسول، قلت: والمسجد الأقصى جعلت فداك؟ فقال: ذاك في السّماء، إليه أُسري رسول الله «صلى الله عليه وآله». فقلت: إنّ التّاس يقولون: إنّّه بيت المقدّس؟ فقال: مسجد الكوفة أفضل منه)^(١).

والرواية من جهة مُرسّلة، والزاوي عن الإمام مجهول، عبّر عنه بعنوان «رجل»، كما لم يرد توثيق لسلام الحنّاط، وأقصى ما قيل فيه أنّه لا بأس به.

ب) في تفسير القمي، بسند ضعيف عن إسماعيل الجعفي قال: (كنت في المسجد الحرام قاعداً وأبو جعفر «عليه السلام» في ناحية، فرفع رأسه فنظر إلى السماء مرّة وإلى الكعبة مرّة ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وكرّر ذلك ثلاث مرات، ثم التفت إليّ فقال: أيّ شيء يقولون أهل العراق في هذه الآية يا عراقي؟ قلت: يقولون أُسرى به من المسجد الحرام إلى البيت المقدّس فقال: لا، ليس كما يقولون، ولكنه أُسرى به من هذه إلى هذه، وأشار بيده إلى السماء، وقال: ما بينهما حرم (...)^(٢). وقد سبق وتحدّث في أكثر من كتاب لي -وبإسهاب- حول صحّة نسبة النسخة المطبوعة من هذا التفسير لصاحبه.

١. العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٧٩.

٢. القمي: تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٤٣.

كما يرد على هذا الادعاء أنه يتعارض مع الروايات التالية التي تذكر فضيلة المسجد الواقع في بيت المقدس - وليس هو سوى المسجد الأقصى - وبعضها يؤكد أفضليته على مسجد الكوفة.

(أ) الحرّ العاملي في وسائل الشيعة تحت عنوان «باب استحباب الصلاة في بيت المقدس» عن محمد بن علي بن الحسين بإسناده، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: (المساجد الأربعة: المسجد الحرام، ومسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، ومسجد بيت المقدس، ومسجد الكوفة، يا أبا حمزة، الفريضة فيها تعدل حجة، والنافلة فيها تعدل عمرة)^(١). وهذا لا يُناسب إلا أن يكون مسجداً على وجه الأرض، لا في السماء، كما أنّ مقابله بالمسجد الحرام ومسجد النبي ومسجد الكوفة قرينة على أن المراد به المسجد المعروف الموجود في القدس بفلسطين.

(ب) الطوسي بإسناده عن جعفر، عن أبيه، عن علي «عليه السلام» قال: (صلاة في بيت المقدس تعدل ألف صلاة)^(٢)، وليس هو سوى المسجد الأقصى.

(ج) الطوسي بالسند عن أبي عامر الساجي واعظ أهل الحجاز قال: (أتيت أبا عبد الله جعفر بن محمد «عليه السلام» فقلت له: يا بن رسول الله، ما لمن زار قبره - يعني أمير المؤمنين - وعمر ثمرته؟ قال: يا أبا عامر، حدّثني أبي عن أبيه عن جده الحسين بن علي عن علي «عليه السلام» أنّ النبي «صلى الله عليه وآله» قال له: يا علي، من عمّر قبورك وتعاهدا فكأثما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس.....)^(٣).

١. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٦٧٥٢.

٢. الطوسي: تهذيب الأحكام، ج ١ ص ٣٢٧.

٣. ن.م، ج ٦، ص ٢٢.

(د) ومن المعلوم أن المسلمين كانوا يتوجهون إلى المسجد الأقصى قبل تحويل القبلة، فهل كانوا يتوجهون إلى السماء؟ قال العلامة الحلي في كتابه «منتهى المطلب»: (وفي هذا اليوم حُوِّلَت القبلة من بيت المقدس)^(١).

(هـ) كما قد عقد المجلسي باباً في كتابه البحار بعنوان «فضل بيت المقدس» وجاء بالآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ بما يؤكد أن مسجد بيت المقدس هو المسجد الأقصى المذكور في الآية. وأول رواية في هذا الباب: (أما الطوسي: بإسناد أخي دعلج عن الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين «عليه السلام» قال: أربعة من قصور الجنة في الدنيا: المسجد الحرام، ومسجد الرسول «صلى الله عليه وآله»، ومسجد بيت المقدس، ومسجد الكوفة)^(٢).

(و) الرواية الثانية في هذا الباب رواها عن الصدوق في كتابه «ثواب الأعمال»: (عن جعفر بن محمد، عن آبائه، عن علي «عليهم السلام» قال: صلاة في بيت المقدس ألف صلاة، وصلاة في المسجد الأعظم مائة صلاة، وصلاة في مسجد القبيلة خمس وعشرون صلاة، وصلاة في مسجد السوق اثنتا عشرة صلاة، وصلاة الرجل في بيته وحده صلاة واحدة)^(٣). واستشهد الشيخ الطوسي في كتابه النهاية بنفس هذه الرواية تحت عنوان «فضل المساجد والصلاة وما يتعلق بها من الأحكام».

ولا تخفى تصريحات وبيانات مراجع الدين المعاصرين حول القضية الفلسطينية والمسجد الأقصى، وهي كثيرة، ومن بينها البيان الصادر عن سماحة المرجع السيد

١. العلامة الحلي: منتهى المطلب في تحقيق المذهب، ج ٩، ص ٣٧٤.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ٢٧٠.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ٢٧٠.

السيساني في ٢٩ رمضان لسنة ١٤٤٢ هـ: (إن المواجهات العنيفة التي تشهدها ساحات المسجد الأقصى وسائر الراضي المحتلة...) ^(١)، فهو مسجد في الأرض، في فلسطين، وليس في السماء.

يشير بعض المعارضين على فكرة أنّ المسجد الأقصى المذكور في الآية هو ذاته الموجود في بيت المقدس إلى أنّ أرض هذا المسجد كانت مزبلة قبل الفتح الإسلامي! ومرّد ذلك إلى أنّ اليهود كانوا قد اتخذوا من موقع صلب المسيح ^(٢) مزبلة، فقامت «هيلانة المعدلة» أم قسطنطين -قيصر الروم- فأمرت بتنظيف المكان وحولته إلى كنيسة، هي كنيسة القيامة، وحولت موضع عبادة اليهود على جبل موريا إلى مزبلة، ثم جاء الخليفة عمر فأمر بتنظيف هذا المكان وأعاده إلى وضعه القديم كموضع لعبادة الله. ولذا قال المعارضون: هل يليق بالقرآن الكريم أن يُشيد بهذا الموضع وأن يسري بالنبي إليه؟ [انظر اللوحين رقم ١٤-١٥]

والجواب، أنّ هذا الموضع إنّ كان في الأصل موضع عبادة اليهود بحسب تعاليم رُسّهم، فإنّ تحويل موقعه إلى مزبلة من قبل بعض الجاهلين لن يُقلّل من قيمته ولن يُخرجه عن قداسته الأولى. ونظير ذلك ما قام به بعض المتعصّبين حين دخلوا حرم الحسين «عليه السلام» وحولوه إلى حظيرة لخيولهم، فهل يُقلّل هذا من قيمة المقام؟ وهكذا، عندما شرب أحد خلفاء آل أمية الخمر على ظهر الكعبة، فهل قلّل -بجريمته هذه- شيئاً من مقام ومنزلة وقداسته بيت الله الحرام؟

والخلاصة أنّ المسجد الأقصى بيتٌ من بيوت الله «تعالى»، كان مؤسساً وموجوداً قبل

1. <https://www.sistani.org/arabic/statement/26526/>

٢. ظاهر القرآن الكريم أن المسيح لم يُصلّب، وأنّه شُبّه للناس ذلك.



اللوحة رقم ١٤ : موقع كنيسة القيامة



اللوحة رقم ١٥ : كنيسة القيامة

بعثة النبي «صلى الله عليه وآله»، وكان -من حيث المبدأ والوظيفة وفي مقطع زمني من تاريخ البشرية والرسالات - بمثابة المسجد الحرام، يُتَعَبَّدُ الله فيه، ويُحْجُّ إليه. وقد عرف المشركون والمسلمون هذا المسجد وموضعَه في مدينة القدس «بيت المقدس» قبل نزول سورة الإسراء. وهل كانوا يعرفونه باسم «المسجد الأقصى» قبل نزول سورة الإسراء أم باسمٍ آخر؟ هناك رأيان، الأوّل ينفي ذلك، كابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، حيث ذكر أنه كان يُعرف عند الجاهليين باسم «مسجد إيلياء»، ونزول آية الإسراء غلب عليه عنوان «المسجد الأقصى»، وهو من مبتكرات القرآن الكريم، فصار علماً بالغلبة على مسجد القدس، كما كان المسجد الحرام علماً بالغلبة على مسجد مكة، ولم يكن مسجدَ لدينٍ إلَهيٍّ غيرُهما يومئذٍ^(١).

ملحوظة: إيليا كابيتولينا هو الاسم الذي أطلقه الإمبراطور الروماني هادريان على مدينة القدس سنة ١٣٠ م بعد أن أعاد تأسيسها على أنقاض المدينة التي دُمّرت بالكامل سنة ٧٠م، وأصبحت المدينة الجديدة مستعمرة رومانية. وهكذا صار اسم إيليا أو إيلياء هو الاسم البديل لهذه المدينة عند العرب.

وأما الرأي الثاني فيذهب إلى أنّ أهل مكة كانوا يعرفونه بالأقصى، لأنّه كان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض، وأنّه كان يُعظَّم بزيارته.

وينبغي التنبيه إلى أنّنا سواء قبلنا بالرأي الأول أو الثاني، فإنّ هذا المسجد لم يكن يُسمّى بالمسجد الأقصى من قِبَل السّاكنين بالقرب منه، فهو الأقصى - كما ذكرنا من قبل - بلحاظ أهل مكة ومن بجوارهم.

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٤.

• تأسيس المسجد الأقصى:

مَنْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَسَّسَ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى؟ اختلفت الأقوال في هذه المسألة:

١. النبي إبراهيم «عليه السلام»: ففي التوراة أَنَّ إبراهيم: (٨... نَقَلَ مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِيلٍ وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ. وَلَهُ بَيْتٌ إِيلٍ مِنَ الْمَغْرِبِ وَعَائِي مِنَ الْمَشْرِقِ. فَبَقِيَ هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِ الرَّبِّ)^(١).

«بَيْتُ إِيلٍ» اسم عبري معناه «بيت الله». ويستنتج من المصادر الكتابية أَنَّ أَوَّلَ مَا قَدِمَ إبراهيم أرض الكنعانيين، نصب خيمته في الأراضي المرتفعة قرب مدينة بيت إيل ثم أسَّس هذا المذبح الذي كان بمثابة أساس موضع المعبد «=المسجد» المخصَّص لعبادة الله «تعالى» وتوحيده في مستقرِّه الأوَّل في أرض كنعان. وتعتبر المدينة من المدن الكنعانية القديمة، وهي تقع على بُعد حوالي ٥ كم شمال شرق مدينة رام الله، وأكثر من ٢٦ كم عن المسجد الأقصى، وهي تحمل اسم قرية «بيتين» الفلسطينية وبالقرب منها مستوطنة بيت إيل الإسرائيلية. ومن الواضح -جغرافياً- أَنَّ مكان العبادة هذا الذي أسَّسه الخليل إبراهيم يختلف عن المسجد الأقصى، وإنَّ كان كلاهما في أرض الكنعانيين «فلسطين»، إلا أن يكون مرادهم تأسيس بيتٍ لله في أرض كنعان مع غَضَّ النظر عن الموضع الجغرافي على وجه الدقَّة والتحديد. [انظر اللوحة رقم ١٦]

ولكن إن قلنا هذا القول، سيترتب السؤال الثاني: أيُّهما تأسَّس على يده أولاً... المسجد الحرام أم المسجد الأقصى؟

إذا قلنا بأنَّ إبراهيم «عليه السلام» هو أَوَّلَ مَنْ بَنَى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة،

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ١٢، ٨.



اللوحة رقم ١٦ : موقع بيت إيل بالنسبة إلى المسجد الأقصى

ولم تكن الكعبة موجودة قبله، فلا بد أن نقول بأنه أسس الكعبة والمسجد الحرام أولاً، ثم المسجد الأقصى، لأن الله «تعالى» يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(١). وقد روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» عن أبي ذر قال: (قلت: يا رسول الله، أيُّ مسجدٍ وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة)^(٢). قال ابن عاشور: (فهذا الخبر قد بين أن المسجد الأقصى من بناء إبراهيم، لأنه حُدّد بمدة هي من مدة حياة إبراهيم «عليه السلام»، وقد قرّن ذكره بذكر المسجد الحرام)^(٣).

وأما إذا قلنا بأن تأسيس الكعبة سابق على عهد إبراهيم، كما في بعض الروايات،

١. سورة آل عمران: ٩٦.

٢. البخاري: صحيح البخاري، ح ٣٤٢٥.

٣. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ١٦.

وأنه أعاد بناء الكعبة بعد أن خربت، فسيصعب الجزم بالرأي السابق، فلعله أسس المسجد الأقصى ثم ذهب لإعادة بناء الكعبة المشرفة. ومن هذه الروايات ما رواه الشيخ الصدوق بإسناده عن بكير بن أعين، عن أخيه زرارة قال: (قُلْتُ لأبي عبد الله عليه السلام): جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، أَسْأَلُكَ فِي الْحَجِّ مِنْذُ أَرْبَعِينَ عَامًا فَتَفْتِنِي! فَقَالَ: يَا زَرَّارَةَ، بَيْتٌ حُجَّ إِلَيْهِ قَبْلَ آدَمَ بِالْفِي عَامٍ، تُرِيدُ أَنْ تَفْنَى مَسَائِلَهُ فِي أَرْبَعِينَ عَامًا؟^(١). وأضاف أصحاب هذا القول أنَّ إبراهيم «عليه السلام» أكل مهمّة العناية بهذا البيت الشريف من بعده للفرع الإسحاقى، كما أكل مهمّة العناية بالكعبة المشرفة من بعده للفرع الإسماعيلي.

٢. النبي يعقوب «عليه السلام». ولا تصحّ هذه النسبة إليه إن كان مصدر هذا القول هو النص التوراتي التالي: (١) ثُمَّ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ: «قُمْ اصْعَدْ إِلَى بَيْتِ إِيْلٍ وَأَقِمْ هُنَاكَ وَاصْنَعْ هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلَّهِ.... ٦ فَأَتَى يَعْقُوبُ إِلَى لُوزَ الَّتِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ (وَهِيَ بَيْتُ إِيْلٍ) هُوَ وَجَمِيعُ الْقَوْمِ الَّذِينَ مَعَهُ. ٧ وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا وَدَعَا الْمَكَانَ «إِيْلَ بَيْتِ إِيْلٍ».... ١٠ وَقَالَ لَهُ اللَّهُ: «اسْمُكَ يَعْقُوبُ. لَا يَدْعَى اسْمُكَ فِيمَا بَعْدَ يَعْقُوبَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِسْرَائِيلَ». فَدَعَا اسْمَهُ إِسْرَائِيلَ^(٢)، لأنّ هذا يعيدنا إلى نفس الإشكال الذي طرحناه حول نسبة بناء المسجد الأقصى للنبي إبراهيم، جدّ النبي يعقوب «عليهما السلام».

نعم، النسبة تصحّ إن كان قولهم هذا مبنياً على ما ذكره ابن كثير في تاريخه، قال في ضمن سيرة النبي يعقوب: (ثم مرّ على أورشليم قرية شخيم، فنزل قبل القرية، واشترى مزرعة شخيم بن جمهور بمائة نعجة، فضرب هنالك فسطاطه، وابتنى ثمّ مذبحاً فسمّاه

١. الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ح ١٥١٩.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٣٥، ١-١٠.

إيل إله إسرائيل، وأمر الله ببنائه ليستعلن له فيه، وهو بيت المقدس اليوم، الذي جدّده بعد ذلك سليمان بن داود «عليهما السلام»، وهو مكان الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها قبل ذلك كما ذكرنا أولاً^(١) وهو يشير بذلك إلى قوله: (فخرج يعقوب «عليه السلام» من عندهم من آخر ذلك اليوم، فأدركه المساء في موضع فنام فيه، وأخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام، فرأى في نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض، وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون، والرب «تبارك وتعالى» خاطبه، ويقول له: إني سأبارك عليك وأكثر ذريتك، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك. فلما هبّ من نومه فرح بما رأى، ونذر الله لئن رجع إلى أهله سالماً لَيَبْنِيَنَّ في هذا الموضع معبدَ الله «عز وجل»، وأن جميع ما يرزقه من شيء يكون لله عُشره، ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنًا يتعرّفه به، وسمّى ذلك الموضع بيت إيل أي بيت الله، وهو موضع بيت المقدس اليوم)^(٢).

ويبدو أنّ الخبر من الإسرائيليات التي نُقلت من التوراة بصورة محرّفة ومشوّهة وقدّمت لبعض الأخباريين أو القصاصين المسلمين، فأثبتوها في مصادرهم التاريخية دون معرفة منهم بأصل ما جاء في التوراة العبرية.

ففي سفر التكوين: (١٠) فَخَرَجَ يَعْقُوبُ مِنْ بَيْتِ سَبْعٍ وَذَهَبَ نَحْوَ حَارَانَ. ١١ وَصَادَفَ مَكَّاًا وَبَاتَ هُنَاكَ لِأَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ قَدْ غَابَتْ، وَأَخَذَ مِنْ حِجَارَةِ الْمَكَانِ وَوَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ، فَاضْطَجَعَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ. ١٢ وَرَأَى حُلُمًا، وَإِذَا سُلَّمٌ مَنْصُوبٌ عَلَى الْأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَمَسُّ السَّمَاءَ، وَهُودًا مَلَائِكَةُ اللَّهِ صَاعِدَةً وَنَازِلَةً عَلَيْهَا. ١٣ وَهُودَا الرَّبُّ وَقَفَّ عَلَيْهَا،

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٣٠٤.

٢. ن. م، ص ٢٩٩.

فَقَالَ: «أَنَا الرَّبُّ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ. الْأَرْضُ الَّتِي أَنْتَ مُضْطَجِعٌ عَلَيْهَا أُعْطِيهَا لَكَ وَلِنَسْلِكَ. ١٤ وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَثْرَابِ الْأَرْضِ، وَتَمْتَدُّ غَرْبًا وَشَرْقًا وَشَمَالًا وَجَنُوبًا، وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الْأَرْضِ. ١٥ وَهَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرْدُكَ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، لِأَنِّي لَا أَتْرُكَكَ حَتَّى أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ». ١٦ فَاسْتَيْقَظَ يَعْقُوبُ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: «حَقًّا إِنَّ الرَّبَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَأَنَا لَمْ أَعْلَمْ». ١٧ وَخَافَ وَقَالَ: «مَا أَرْهَبَ هَذَا الْمَكَانَ! مَا هَذَا إِلَّا بَيْتُ اللَّهِ، وَهَذَا بَابُ السَّمَاءِ». ١٨ وَبَكَرَ يَعْقُوبُ فِي الصَّبَاحِ وَأَخَذَ الْحَجَرَ الَّذِي وَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ وَأَقَامَهُ عَمُودًا، وَصَبَّ زَيْتًا عَلَى رَأْسِهِ. ١٩ وَدَعَا اسْمَ ذَلِكَ الْمَكَانِ «بَيْتُ إِيلٍ»، وَلَكِنْ اسْمُ الْمَدِينَةِ أَوَّلًا كَانَ لُوزَ. ٢٠ وَنَذَرَ يَعْقُوبُ نَذْرًا قَائِلًا: «إِنْ كَانَ اللَّهُ مَعِي، وَحَفِظَنِي فِي هَذَا الطَّرِيقِ الَّذِي أَنَا سَائِرٌ فِيهِ، وَأَعْطَانِي خُبْرًا لَا كَلَّ وَثِيَابًا لَا لَبَسَ، ٢١ وَرَجَعْتُ بِسَلَامٍ إِلَى بَيْتِ أَبِي، يَكُونُ الرَّبُّ لِي إِلَهًا، ٢٢ وَهَذَا الْحَجَرُ الَّذِي أَقَمْتُهُ عَمُودًا يَكُونُ بَيْتَ اللَّهِ، وَكُلُّ مَا تُعْطِينِي فَإِنِّي أُعَشِّرُهُ لَكَ» (١).

والتشابه كبير جداً بين تفاصيل النصين مع فارق تحديد موضع هذا البيت. وأما الحجر المشار إليه في النص التوراتي فقد اختلف في وصفه، فقليل أنه كان على هيئة أنصبه الحرم المكي المستعملة في القِدَم لبيان حدود منطقة ماء، واستعملها النبي إبراهيم لبيان حدود الحرم المكي، وذلك لما جاء في النص التوراتي السابق: (وَأَخَذَ الْحَجَرَ الَّذِي وَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ وَأَقَامَهُ عَمُودًا).

وقيل أنه كان على هيئة صخرة مسطحة تصلح لأن تُذبح عليها الأنعام كندور لله، وحيث أنه في بيت المقدس، ولذا فإنها هي ذات الصخرة التي عليها القبة المعروفة بمسجد قبة الصخرة. [انظر اللوحتين رقم ١٧-١٨]

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٢٨، ١٠-٢٢.



اللوحة رقم ١٧ : من أنصبه الحرم المكي، وفي الإطار نصب من سردينيا



اللوحة رقم ١٨ : الصخرة في مسجد قبة الصخرة بالقدس

ونقل الخليلي في موسوعته: (أنّ هذا المسجد قد بُني على أساس قديم لم يكن داود المؤسس الأول، إنما كان داود مجدداً، إذ هناك مَنْ يقول بأنّ الصخرة التي سُمّي المسجد باسمها هي الصخرة التي كان يذبح عليها إبراهيم «عليه السلام» القرابين لله)^(١). ويغلب الظن أنّ هذا مأخوذ عن بعض الروايات الإسرائيلية المشوّهة المبثوثة في التراث الإسلامي، ولا يُعَلِّم مدى صحة مضمونه، وهو مخالف لما ذكرناه من قبل.

٣. النبي يوشع بن نون «عليه السلام». قال الخليلي: (وهناك أخبار أخرى تقول أنّه لما استقرّت يد يوشع بن نون بعد موسى على البيت المقدّس، نصّب قبة الزمان^(٢) التي كان قد أقامها موسى، وكانت تحمل في التّيه كرمز مقدّس للعبادة، لقد نصبها يوشع على صخرة بيت المقدّس^(٣)، فكانوا يصلّون إليها، فلمّا بادت، صلّوا إلى محلّتها، وهي الصخرة، فلهذا كانت قبلة الأنبياء)^(٤).

وهو يشير إلى ما رواه ابن كثير في تاريخه حيث قال: (فلما مات هارون، ثم موسى، «عليهما السلام»، استمرت بنو هارون في الذي كان يليه أبوهم من أمر القران، وهو فيهم إلى الآن، وقام بأعباء النبوة بعد موسى وتدبير الأمر بعده، فتاه يوشع بن نون، «عليه السلام»، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس... والمقصود هنا أنّه لما استقرت يده على البيت المقدّس، نصب هذه القبة على صخرة بيت المقدس، فكانوا يصلون إليها،

١. الخليلي: موسوعة العتبات المقدسة، ج ٤، ص ٦١.

٢. يشير بذلك إلى ما يُعرف باسم خيمة الرب أو خيمة الاجتماع التي سنتحدّث عنها عند تناول دور النبي سليمان في تأسيس المسجد الأقصى.

٣. أي الصخرة الواقعة تحت قبة مسجد الصخرة.

٤. الخليلي: موسوعة العتبات المقدسة، ج ٤، ص ٥٨.

فلما بادت صلّوا إلى محلّتها، وهي الصخرة، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلى زمان رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وقد صلى إليها رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قبل الهجرة وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس، فصلى إليها ستة عشر وقيل: سبعة عشر شهراً. ثم حوّلت القبلة إلى الكعبة، وهي قبلة إبراهيم في شعبان سنة ثنتين، في وقت صلاة العصر، وقيل: الظهر^(١).

ولا نعلم المصدر الذي استند إليه ابن كثير في دعواه هذه، والحال أن التراث اليهودي يدلّ على خلاف ذلك، ففي التلمود البابلي ما ترجمته: (فيما يتعلق بمدة الفترات المختلفة المذكورة في المشناه، علّم الحكماء ما يلي: كانت أيام خيمة الاجتماع في البرية أربعين سنة، ناقص سنة واحدة. وكانت أيام خيمة الاجتماع التي كانت في الجلجال أربعة عشر سنة: سبع سنوات فتح فيها اليهود الأرض، وسبع سنوات قسموا فيها الأرض بين الأسباط. وكانت أيام خيمة الاجتماع التي كانت في نوف وجبعون سبعة وخمسين سنة، حتى بُني الهيكل في القدس. وبما أنّ الهيكل بُني بعد ٤٨٠ سنة من الخروج من مصر [انظر سفر الملوك الأول ٦: ١]، فإنه يترتب على ذلك أن مدة خيمة الاجتماع في شيلوه تبقى ٣٧٠ سنة ناقص سنة واحدة^(٢)).

وهذا يعني أنّ خيمة الرب كانت خارج القدس طوال ٤٨٠ سنة، وأنها استقرّت في لاحقاً في شيلوه على عهد يوشع بن نون واستمرت كذلك ٣٦٩ سنة إلى حين بناء الهيكل على عهد سليمان. وشيلوه أو سيلون أو خربة سيلون مدينة قديمة في محافظة نابلس المذكورة في التوراة. تقع إلى الغرب من بلدة شيلو الاستيطانية الإسرائيلية الحديثة وإلى

١. ابن كثير: البداية النهاية، ج ١، ص ١٩٩-٢٠٠.

2. <https://www.sefaria.org/Zevachim.118b.13?lang=bi>

الجنوب من بلدة قريوت الفلسطينية، وشمال شرق بيت إيل، وهي تبعد قرابة ٤٠ كم عن مسجد قبة الصخرة. [انظر اللوحة رقم ١٩]

٤. النبي داود «عليه السلام». من المعلوم أنّ الأرض الكنعانية لم تُفتح للنبي موسى، بينما استطاع النبي يوشع بن نون من بعده أن يفتح قسماً منها، ويسيطر على عددٍ من مدنها وقراها. وكان بنو إسرائيل في حالة كَرٍّ وفَرٍّ مع الممالك الأخرى القائمة على هذه الأرض على مدى القرون اللاحقة، إلى أن استطاع النبي داود «عليه السلام» أن يفتح مدينة أورشليم (=القدس) في نحو سنة ١٠٤٩ ق.م على ما تذكر بعض المصادر، واتّخذها عاصمةً له، وكان يعيش قبل ذلك في مدينة حبرون (=الخليل) حيث مدفن النبي إبراهيم وزوجه سارة وابنه إسحاق وحفيده يعقوب.

قال جعفر الخليلي: (أما الأخبار التي تباى عليها أغلب المؤرخين فهي أن داود هو الذي بنى المسجد -أي بيت المقدس- وعلى الصخرة قُبّة في الموضع الذي قدّسه الله «تعالى» في إيليا.... وجاء في الأخبار أن داود قد أعدّ لبناء بيت المقدس مائة ألف بدرّة ذهباً، وألف ألف بدرّة وورقاً، وثلاثمائة ألف دينار طلاء)^(١).

وبحسب هذا القول، فقد شرع النبي داود بالبناء، وأتمّه ابنه من بعده. وفي قول آخر أن النبي داود جمع الأموال لبنائه، وهياً المواد اللازمة لذلك ثم توفي، فقام ابنه سليمان بالمهمّة إلى أن أنجزها.

٥. النبي سليمان «عليه السلام»، ولذا نُسب إليه فقيل «هيكل سليمان». وكلمة «هيكل»

١. الخليلي: موسوعة العتبات المقدسة، ج ٤، ص ٦٠. والبدرّة هي الكيس الجلدي المعد لحفظ النقود. والورق يعني الفضة المضروبة كالدرهم.



اللوحة رقم ١٩ : موقع شيلوه بالمقارنة مع بيت إيل وقبة الصخرة في القدس

سومرية الأصل، فكلمة «أي - غال» (e-gal) تعني القصر أو البيت العظيم^(١)، ومنها كلمة هيكل في اللغة العربية واللغات السامية الأخرى كالعبرية حيث تُلفظ «هيخال». والنص الكتابي التالي يبيّن بكل صراحة أنّ داود «عليه السلام» لم يبنِ الهيكل، حيث كان منشغلاً بالحروب، وأنّ البناء قد بدأ العمل به في عهد ابنه سليمان «عليه السلام» حيث عمّ السلام والأمن والطمأنينة.

ففي سفر الملوك الأول: (١) وَأَرْسَلَ حِيرَامُ مَلِكُ صُورَ عَبِيدَهُ إِلَى سُلَيْمَانَ، لِأَنَّهُ سَمِعَ أَنَّهُمْ مَسَحُوهُ مَلِكًا مَكَانَ أَبِيهِ، لِأَنَّ حِيرَامَ كَانَ مُحِبًّا لِدَاوُدَ كُلِّ الْيَّامِ. ٢ فَأَرْسَلَ سُلَيْمَانُ إِلَى حِيرَامُ يَقُولُ: ٣ «أَنْتَ تَعْلَمُ دَاوُدَ أَبِي أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتًا لاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِهِ

١. انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٧٦.

بِسَبَبِ الْحُرُوبِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ، حَتَّى جَعَلَهُمُ الرَّبُّ تَحْتَ بَطْنِ قَدَمَيْهِ. ٤ وَالْآنَ فَقَدْ
أَرَاخِنِي الرَّبُّ إِلَهِي مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ فَلَا يُوجَدُ خَصْمٌ وَلَا حَادِثَةٌ شَرٌّ. ٥ وَهَآنَذَا قَائِلٌ عَلَى
بِنَاءِ بَيْتٍ لاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِي كَمَا كَلَّمَ الرَّبُّ دَاوُدَ أَبِي قَائِلًا: إِنَّ ابْنَكَ الَّذِي أَجْعَلُهُ مَكَانَكَ
عَلَى كُرْسِيِّكَ هُوَ يَبْنِي الْبَيْتَ لاسْمِي^(١).

وتمّ الاتفاق بين الطرفين على أن:

١. يوفّر الطرفان العمالة المطلوبة: وَيَكُونُ عِبِيدِي مَعَ عَبِيدِكَ.... وَسَخَّرَ الْمَلِكُ
سُلَيْمَانُ مِنْ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ، وَكَانَتِ السُّخَّرُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ رَجُلٍ. فَأُرْسِلَهُمْ إِلَى لُبْنَانَ عَشْرَةَ
الْآفِ فِي الشَّهْرِ بِالتَّوْبَةِ. يَكُونُونَ شَهْرًا فِي لُبْنَانَ وَشَهْرَيْنِ فِي بُيُوتِهِمْ.... وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ
سَبْعُونَ أَلْفًا يَحْمِلُونَ أَحْمَالًا، وَثَمَانُونَ أَلْفًا يَقْطَعُونَ فِي الْجَبَلِ^(٢).

٢. تكون العمالة الفنية الماهرة من صور، وأجرتهم على سليمان: وَأَجَرْتُهُمْ عَلَى سُلَيْمَانَ: وَأَجَرْتُهُ عِبِيدِكَ
أَعْطَيْكَ إِيَّاهَا حَسَبَ كُلِّ مَا تَقُولُ، لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَنَا أَحَدٌ يَعْرِفُ قَطَعَ الخَشَبِ
مِثْلَ الصَّيْدُونِيِّينَ.

٣. يوفّر الملك حيرام الخشب: وَالْآنَ فَأُمِرُ أَنْ يَقْطَعُوا لِي أَرْزًا مِنْ لُبْنَانَ.

٤. يتحمّل الملك حيرام مسؤولية النقل إلى مرافئ مملكة سليمان: عِبِيدِي يُزِلُونَ
ذَلِكَ مِنْ لُبْنَانَ إِلَى الْبَحْرِ. وَأَنَا أَجْعَلُهُ أَرْمَاتًا فِي الْبَحْرِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي تُعَرِّفُنِي عَنْهُ
وَأَنْقُضُهُ هُنَاكَ. وَأَنْتِ تَحْمِلُهُ.

٥. يتعاون الطرفان في توفير الحجارة اللازمة للبناء: وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يَقْلَعُوا حِجَارَةً

١. الكتاب المقدس: سفر الملوك الأول، الإصحاح ٥، ١-٥.

٢. يشعر القارئ أن الأرقام مبالغ فيها بشكل كبير.

كَبِيرَةً، حِجَارَةً كَرِيمَةً لِتَأْسِيسِ الْبَيْتِ، حِجَارَةً مُرَبَّعَةً. فَنَحَتَهَا بَنَازُورُ سُلَيْمَانَ، وَبَنَازُورُ حِيرَامَ وَالْجَبَلِيُّونَ.

٦. يقدّم النبي سليمان لمملكة صور -سنوياً- موادّ تموينية وبكميات محدّدة: وَأَعْطَى سُلَيْمَانُ حِيرَامَ عَشْرِينَ أَلْفَ كُرٍّ حِنْطَةٍ طَعَامًا لِبَيْتِهِ، وَعَشْرِينَ كُرًّا زَيْتٍ رَضٍّ. هَكَذَا كَانَ سُلَيْمَانُ يُعْطِي حِيرَامَ سَنَةً فَسَنَةً ^(١).

وبحسب المصادر الكتابية، بدأ العمل في الهيكل في ربيع السنة الرابعة من ملك سليمان، واستغرق تشييده ٧ سنوات ونصف تقريباً، حيث انتهى في خريف السنة الحادية عشرة من ملكه، وتشير التقديرات التاريخية الأكاديمية إلى أن هذا الاكتمال كان في النصف الأول من القرن العاشر قبل الميلاد، وحدّده البعض بسنة ٩٦٧، وقيل بل ٩٥٧، وغير ذلك. ويُذكر في التنخ أن بناء القصر الخاص به استغرق وقتاً أطول، حيث استمر العمل فيه لمدة ١٣ سنة بعد انتهاء بناء الهيكل.

وكانت مساحة بناء الهيكل كالتالي: (٢) وَالْبَيْتُ الَّذِي بَنَاهُ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ لِلرَّبِّ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَعَرْضُهُ عِشْرُونَ ذِرَاعًا، وَسَمْكُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا. ٣ وَالرَّوَّاقُ قُدَّامَ هَيْكَلِ الْبَيْتِ طُولُهُ عِشْرُونَ ذِرَاعًا حَسَبَ عَرْضِ الْبَيْتِ، وَعَرْضُهُ عَشْرُ أَذْرُعٍ قُدَّامَ الْبَيْتِ ^(٢).

فإذا قدرنا الذراع بمقدار ٤٥ سم، فستكون القياسات كالتالي: الطول: ٢٧ م - العرض: ٩ م - الارتفاع: ١٣,٥ م - طول الرواق: ٩ م - عرض الرواق: ٤,٥ م.

وبحسب ما جاء في سفر الملوك الأول، فقد قام النبي سليمان بإضافة الكثير من

١. الكتاب المقدس: سفر الملوك الأول، الإصحاح ٥، ٦-١٨.

٢. الكتاب المقدس: سفر الملوك الأول، الإصحاح ٦، ٢-٣.

الزخرفة والتزيين داخل وخارج هذا الهيكل، ومما جاء في وصف ذلك:

١. التغطية بالذهب: وَعَشَى سُلَيْمَانُ الْبَيْتَ مِنْ دَاخِلٍ بِذَهَبٍ خَالِصٍ. وَسَدَّ بِسَلَاسِلٍ ذَهَبٍ قُدَّامَ الْمِحْرَابِ. وَعَشَاهُ بِذَهَبٍ.... وَكُلُّ الْمَذْبَحِ الَّذِي لِلْمِحْرَابِ عَشَاهُ بِذَهَبٍ. وَعَشَى أَرْضَ الْبَيْتِ بِذَهَبٍ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ.

٢. نصب تماثيل للكروبيين: وَعَمِلَ فِي الْمِحْرَابِ كَرْوَبَيْنِ مِنْ خَشَبِ الزَّيْتُونِ، عَلُوُّ الْوَاحِدِ عَشْرُ أَذْرُعٍ. وَخَمْسُ أَذْرُعٍ جَنَاحُ الْكَرْوَبِ الْوَاحِدِ، وَخَمْسُ أَذْرُعٍ جَنَاحُ الْكَرْوَبِ الْآخَرِ. عَشْرُ أَذْرُعٍ مِنْ طَرَفِ جَنَاحِهِ إِلَى طَرَفِ جَنَاحِهِ.... وَشَكْلُ وَاحِدٍ لِلْكَرَوِيَيْنِ. وَجَعَلَ الْكَرَوِيَيْنِ فِي وَسْطِ الْبَيْتِ الدَّاخِلِيِّ. وَعَشَى الْكَرَوِيَيْنِ بِذَهَبٍ.

٣. نقوش تزيينية: وَجَمِيعُ حِيطَانِ الْبَيْتِ فِي مُسْتَدِيرِهَا رَسَمَهَا نَفْسًا بِنَقْرِ كَرْوِيمَ وَنَخِيلٍ وَبَرَاعِمِ زُهُورٍ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ.

٤. تزيين الأبواب: وَعَمِلَ لِبَابِ الْمِحْرَابِ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ خَشَبِ الزَّيْتُونِ. السَّاكِفُ وَالْقَائِمَتَانِ مُحَمَّسَةٌ. وَالْمِصْرَاعَانِ مِنْ خَشَبِ الزَّيْتُونِ. وَرَسَمَ عَلَيْهِمَا نَفْسَ كَرْوِيمَ وَنَخِيلٍ وَبَرَاعِمِ زُهُورٍ، وَعَشَاهُمَا بِذَهَبٍ، وَرَضَعَ الْكَرَوِيِيمَ وَالنَّخِيلَ بِذَهَبٍ.

٥. تزيين المدخل: عَمِلَ لِمَدْخَلِ الْهَيْكَلِ قَوَائِمَ مِنْ خَشَبِ الزَّيْتُونِ مُرَبَّعَةً، وَمِصْرَاعَيْنِ مِنْ خَشَبِ السَّرْوِ. الْمِصْرَاعُ الْوَاحِدُ دَفَّتَانِ تَنْطَوِيَانِ، وَالْمِصْرَاعُ الْآخَرُ دَفَّتَانِ تَنْطَوِيَانِ. وَتَحْتَ كَرْوِيمَ وَنَخِيلًا وَبَرَاعِمِ زُهُورٍ، وَعَشَاهَا بِذَهَبٍ مُطَرَّقٍ عَلَى الْمَنْقُوشِ.

٦. تغطية الجدران بالخشب المزخرف: وَأَرَزُّ الْبَيْتِ مِنْ دَاخِلٍ كَانَ مَنْقُورًا عَلَى شَكْلِ قَنَاءٍ وَبَرَاعِمِ زُهُورٍ. الْجَمِيعُ أَرَزُّ. لَمْ يَكُنْ يُرَى حَجَرٌ.

٧. تأسيس المحراب (قُدس الأقداس) وتزيينه: وَهَيَّأَ مِحْرَابًا فِي وَسْطِ الْبَيْتِ مِنْ دَاخِلٍ لِيَضَعَ هُنَاكَ تَابُوتَ عَهْدِ الرَّبِّ. وَلِأَجْلِ الْمِحْرَابِ عِشْرُونَ ذِرَاعًا طُولًا وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا عَرْضًا وَعِشْرُونَ ذِرَاعًا سَمَكًا. وَغَشَّاهُ بِذَهَبٍ خَالِصٍ، وَغَشَّى الْمَذْبَحَ بِأَرْزٍ^(١).
[انظر اللوحات رقم ٢٠-٢٥]

ولهذا البناء المعروف عند العرب باسم «هيكل سليمان» أسماء عبرية عديدة، منها:

בית ראשון : وتُلَفَّظ «بَيْت رَيْشُون» أي البيت الأول

בית המקדש : وتُلَفَّظ «رَبَيْت همقداش» أي البيت المقدس

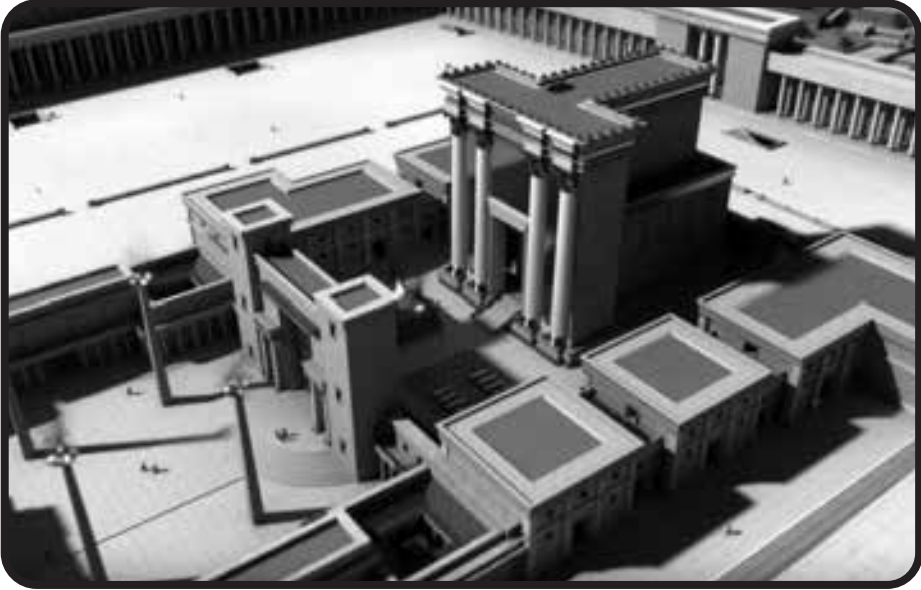
מקדש שלמה: وتُلَفَّظ «مقداش شلومو» أي معبد سليمان

היכל: وتُلَفَّظ «هيخال» أي البيت الكبير أو الهيكل

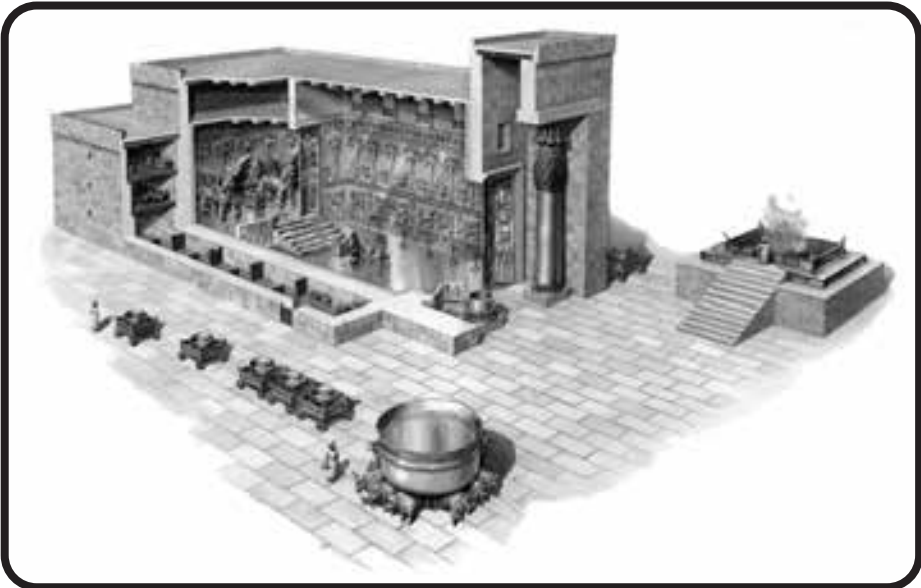
• تنقيح ما سبق:

بعد البيان السابق للآراء حول تأسيس المسجد الأقصى يمكن القول أن النبي إبراهيم «عليه السلام» أسس المسجد الحرام في مكة المكرمة ليكون مثابة للناس يحجّون إليه، وأسس مسجداً آخر محلياً في أرض كنعان حيث كان يعيش، وبعد خروج النبي موسى «عليه السلام» من مصر بمعية بني إسرائيل والتنقل في صحراء سيناء، اتخذ بيتاً لله «عزّ وجل» في هيئة خيمة تحيط بها مساحة من الأرض مع بعض الملحقات، فصارت هذه الخيمة هي المركز الديني الذي احتُفِظ فيه بالتابوت وفيها ألواح الشريعة النازلة من عند الله. وتُعرَف هذه الخيمة باسم: خيمة الاجتماع، وخيمة الشهادة، وبيت الرب، وغير ذلك من الأسماء والألقاب.

١. الكتاب المقدس: سفر الملوك الأول، الإصحاح ٦، ١٢-٣٥.



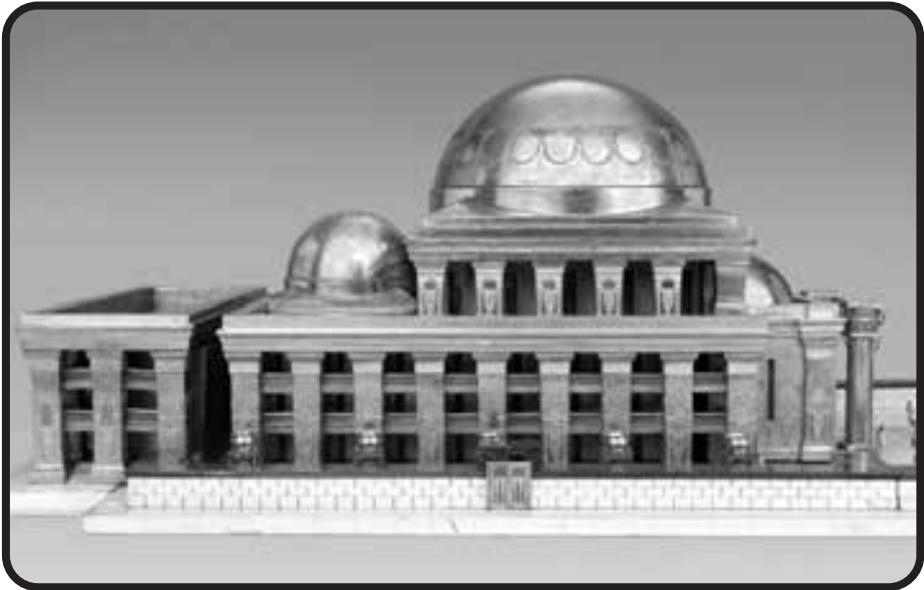
اللوحة رقم ٢٠: تصور لهيكل سليمان من الخارج



اللوحة رقم ٢١: تصور لهيكل سليمان من الداخل



اللوحة رقم ٢٢ : تصور آخر لهيكل سليمان من الخارج



اللوحة رقم ٢٣ : تصور لهيكل سليمان من الجانب



اللوحة رقم ٢٤ : تصور لواجهة هيكل سليمان



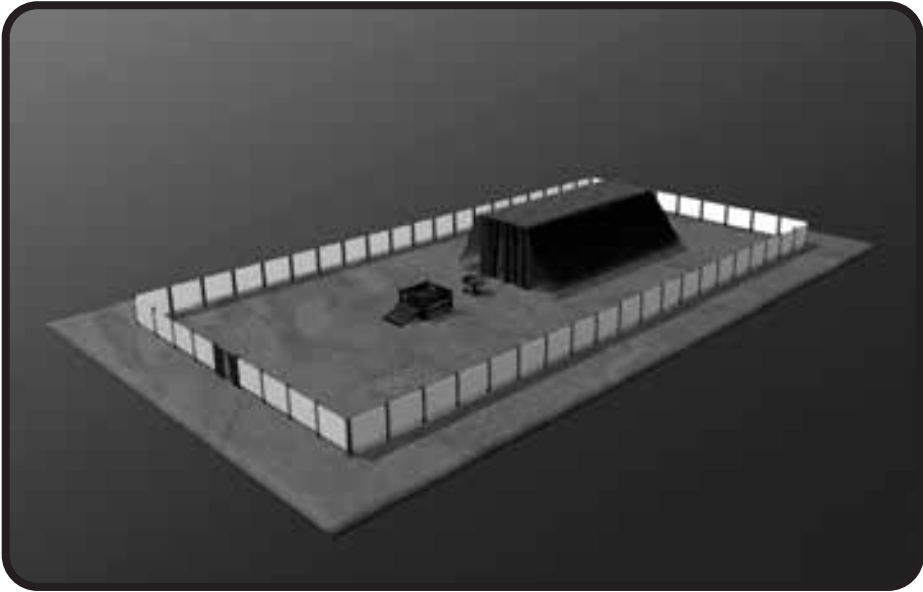
اللوحة رقم ٢٥ : إطلالة علوية لقدس الأقداس ويظهر التابوت والكروبيان

وقد تكوّنت الخيمة من ثلاثة أجزاء رئيسة: المسكن - وتُلفظ في العبرية: مشكن - وكان عبارة عن حجرة مصنوعة من البوص «القَصَب»، والخيمة، وكانت منسوجة من شعر الماعز، والغطاء المصنوع من جلود الحيوانات لوقاية المسكن والخيمة من الشمس والمطر^(١). [انظر اللوحات رقم ٢٦-٢٨]

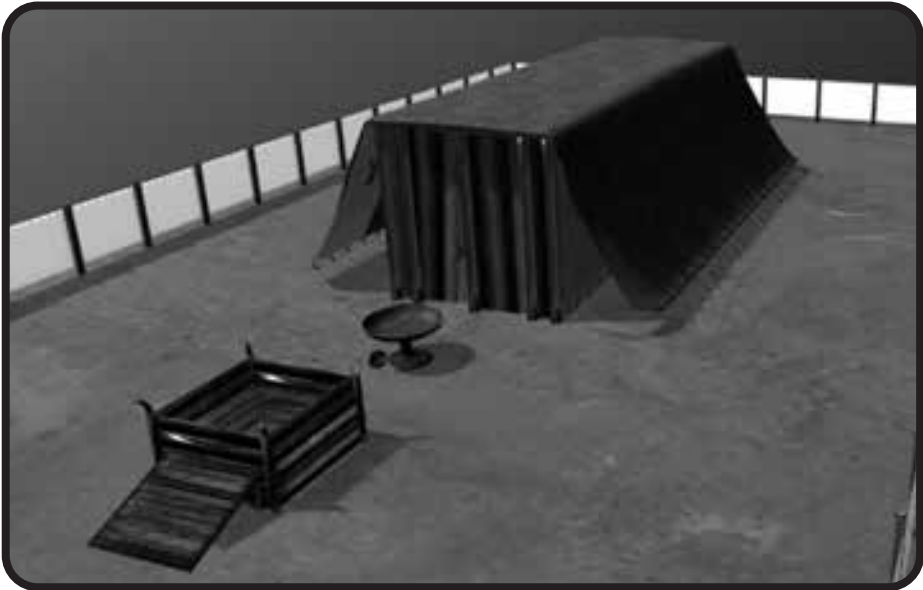
واستمرت خيمة الشهادة هي بيت الله بالنسبة لليهود لأكثر من أربعة قرون، وانتقلت من موضع إلى آخر وفقاً لمستقرّ نبي أو حاكم ذلك الزمان، إلى أن أمر الله داود «عليه السلام» بالإعداد لبناء بيت عبادة ثابت، بدلاً عن خيمة الشهادة المتنقلة التي استقرّت أخيراً على الصخرة في جبل موريا بالقدس، ويُسمّى بالعربية «جبل مروة» و«جبل الهيكل». ثم قام ابنه النبي سليمان «عليه السلام» بإنجاز المهمة من بعده في أقل من ثمان سنوات. وأمّا السامريّون^(٢) فيدّعون أن مكان العبادة هذا بُني على جبل «جرزيم»، بالقرب من مدينة نابلس في الضفة الغربية. [انظر اللوحات رقم ٢٩-٣١]

وقد جاء جانب من وصف هذا البناء «المسجد الأقصى» وملحقاته في القرآن الكريم ضمن قصّة النبي سليمان «عليه السلام» في قوله «تعالى»: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(٣).

١. تعرضت لهذا الموضوع في الجزء الثالث من كتابي سيرة الكليم موسى بن عمران، فراجع.
٢. السامريون فرع متخاصم مع عامّة اليهود، وينفون أن الفرع الآخر يهود، ويكفرونهم. ويعود الانفصال بين الطرفين إلى ما بعد عهد النبي سليمان إذ انقسمت دول اليهود إلى مملكتين، ثم اشتد الانفصال وتحوّل من انفصال وعداء سياسي إلى ديني.
٣. سورة سبأ: ١٣.



اللوحة رقم ٢٦ : تصور لخيمة الاجتماع والمساحة المحيطة بها



اللوحة رقم ٢٧ : تصور لخيمة الاجتماع من الجانب





اللوحة رقم ٣٠ : منظر علوي لجبل جرزيم



اللوحة رقم ٣١ : من طقوس السامريين على جبل جرزيم

وأما الآية التالية فتخصّ -على الأرجح- جانباً من قصر النبي سليمان: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾^(١).

وقد تمّ تدمير مدينة القدس والهيكل عام ٥٨٧ ق.م على يد نبوخذ نصر، ملك بابل، وبدأ العمل لإعادة بنائه على عهد الملك كوروش الإخميني سنة ٥٣٦ ق.م تحت إشراف زروبابل «حاكم يهوذا» ويشوع «الكاهن العظيم»، وتوقف العمل لعدة سنوات بسبب معارضة الأقوام المجاورة وأوامر الملوك الفرس اللاحقين، ثم استؤنف العمل فيه وانتهى البناء بالكامل في عام ٥١٦ ق.م تقريباً، وكان ذلك إبان حكم الملك الإخميني داريوش «= دارا» الأول. بهذا يكون الهيكل قد أُعيد بناؤه بعد حوالي ٧٠ عاماً من هدمه، وبقي قائماً حتى هدمه الرومان عام ٧٠ م على يد القائد الروماني طيطوس فلافيوس ساينوس إسفسيانوس والمعروف عند العرب باسم طايطريُّ بنُ اسمائوس Titus Flavius Vespasianus وإيجازاً باسم طيطوس أو طيطس، والذي أصبح لاحقاً الامبراطور العاشر إلى سنة وفاته (ت ٨١ م)، وكان التدمير على عهد والده تاسع الأباطرة الرومان طيطوس فلافيوس قيصر إسفسيانوس أغسطس، ويُعرف كذلك باسم اسمائوس وفسبسيانوس وأسبسيانوس وأشبشيان (ت ٧٩ م)، فتّم تدمير القدس بأسرها، ولم يتم تجديد بناء الهيكل بعد ذلك.

وبعد تبنيّ الامبراطورية الرومانية العقيدة المسيحية في القرن الرابع الميلادي على عهد الامبراطور قسطنطين الأول «العظيم» ابن هيلانة (ت ٣٣٧ م)، تمّ إنشاء عدد من الكنائس في القدس ومدن أخرى، ولكن لم تتم إعادة بناء الهيكل مجدداً، حتى

إذا صارت القدس تحت سلطة المسلمين على عهد الخليفة عمر بن الخطاب في سنة (٦٣٦م/١٥هـ)، بنى الخليفة جامعاً في صدر جبل المروة (= موريا)، يُعرف باسم الجامع القبلي وباسم «المسجد الأقصى» أيضاً، وهو موضع المصلّى الرئيسي الحالي على الجبل.

في تاريخ الطبري: (قال عمر: عليّ بكعب! فأتي به، فقال: أين ترى أن نجعل المصلّى؟ فقال إلى الصخرة. فقال: ضاهيت والله اليهودية - يا كعب- وقد رأيتك وخلعتك نعليك فقال: أحببتُ أن أباشره بقدمي. فقال: قد رأيتك، بل نجعل قبلة صدره، كما جعل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قبلةً مساجدنا صدورها. اذهب إليك، فإنّا لم نؤمر بالصخرة^(١)، ولكنّا أمرنا بالكعبة. فجعل قبلة صدره، ثم قام من مصلاه إلى كناسة قد كانت دُفنت بها بيت المقدس في زمان بني إسرائيل، فلما صار إليهم أبرزوا بعضها، وتركوا سائرهما، وقال: يا أيها الناس، اصنعوا كما أصنع، وجثا في أصلها، وجثا في فَرْج من فُروج قبائه.....)^(٢). [انظر اللوحة رقم ٣٢]

تبلغ مساحة المكان المسوّر على جبل موريا «مروة» حوالي ١٤٤,٠٠٠ م^٢، وهو على شكل مضلع غير منتظم، طول ضلعه الغربي ٤٩١ م، والشرقي ٦٢ م، والشمال ٣١٠ م، والجنوبي ٢٨١ م، وفيه ما يقارب مائتا معلم آخر، ما بين مساجد، ومبان، وقباب، وأسيلة مياه، ومصاطب، وأروقة، ومدارس، ومحاريب، ومنابر، ومآذن، وأبواب، وآبار، ومكتبات.

واختلفت الأقوال في كون المسجد الأقصى هو خصوص المسجد القبلي، أم كل المنطقة المسوّرة. [انظر اللوحة رقم ٣٣]

١. أي لم نؤمر باتخاذ هذه الصخرة قبلة لنا كمسلمين.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١٠٦.



اللوحة رقم ٣٢ : اتجاه القبلة بالنسبة إلى مسجد قبة الصخرة



اللوحة رقم ٣٣ : المنطقة المسوّرة على جبل موريا

فبحسب الرأي الأول فإنّ المنطقة المسوّرة هي مسجد بيت المقدس، بينما المسجد الأقصى هو خصوص المسجد القبلي، ويظهر ذلك في كلمات الرحّالة القدماء الذين زاروا المنطقة، من قبيل ناصر خسرو «القرن الخامس الهجري» وابن بطّوطة «القرن الثامن الهجري» وغيرهما^(١). وبحسب الرأي الثاني فإنّ المسجد الأقصى هو كل المنطقة المسوّرة، ولذا فهو يشمل كلاً من قُبّة الصخرة، والمسجد القبلي وسائر المعالم التي أشرنا إليها. واتفق القولان على أنّ المنطقة المسوّرة كُتِلَ عبارة عن مسجد، له سور وأبواب كثيرة، وإن لم يكن مسقّفاً كلّه.

وقد يكون هذا المسجد الكبير بمثابة المسجد الحرام، وفيه المركز الذي هو بمثابة الكعبة المشرفة، وذلك حيث تقع الصّخرة وعليها قُدس الأقداس، ثم موضع الاجتماع للصلاة حيث المسجد القبلي، وهو بمثابة الصلاة خلف مقام إبراهيم... والله أعلم.

• مناقشة الحق التاريخي لليهود:

هل ما سبق بيانه حول موضع هيكل سليمان، والتفاصيل التاريخية التي مرّت معنا يعني أنّ لليهود -إلى هذا اليوم- حقّاً تاريخياً في المسجد الأقصى، وفي الأرض الفلسطينية عموماً؟ وهل هذا إقرار بأنّهم أصحاب هذه الأرض وحكامها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة؟ خصوصاً وأن القرآن الكريم يتحدّث عن الأرض المقدسة التي كتب الله «تعالى» لبني إسرائيل عندما كانوا مع النبي موسى «عليه السلام»، قال «سبحانه»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ

١. للمزيد من التفاصيل حول البنية القديمة للمكان، انظر رحلة ناصر خسرو، ص ٢٠٩، وموسوعة العتبات المقدسة للخليبي، ج ١ من القسم المخصّص لمدينة القدس.

الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١١﴾ ﴿١﴾.

كما تحدّث القرآن الكريم عن حكم داود وسليمان «عليهما السلام» وغير ذلك من القصص المرتبطة بتاريخ بني إسرائيل فيها، ومنها قوله «تعالى»: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفَى إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١٢﴾﴾ (٢).

وقوله «تعالى»: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْفِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَل بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٤﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ (٣).

فلماذا نتخذ -إذا- موقفاً متشدداً في إطار القضية الفلسطينية، ونتهم اليهود في مطالباتهم بحقهم في إنشاء دولتهم على الأرض الفلسطينية وفي إعادة بناء الهيكل على جبل موريا، مع أننا ننادي دائماً بضرورة أن نكون مُنصفين، وأن نعدّل ولو مع أعدائنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (٤)؟

يمكن الإجابة عن هذه الإشكالية ضمن قراءتين... القراءة الأولى تاريخية، أو فُقل وفق القراءة العلمانية التي لا علاقة لها بالدين ولا بعنوان النبوات والرسالات، ولا

١. سورة المائدة: ٢٠-٢١.

٢. سورة ص: ٢١-٢٢.

٣. سورة سبأ: ١٢-١٣.

٤. سورة المائدة: ٨.

غيرها من العناوين الدينية. فبحسب هذه القراءة، لم يَفِد بنو إسرائيل على الأرض الفلسطينية وهي أرض بور، في صورة براري أو أحراش خالية من السكان والعمارة ومعالَم المدنيّة والحضارة.

فبحسب ما هو متّفق عليه عند اليهود وغيرهم، عاش إبراهيم -وهو جدّ النبي يعقوب (=إسرائيل)- قبل أقلّ من ٤٠٠٠ سنة، وكان من أبناء بلاد ما بين النهرين «بلاد الرافدين»، وهاجر إلى أرض كنعان، أي فلسطين الحالية، وتوفّي فيها، وله قبر معروف في مدينة الخليل جنوب مدينة القدس.

في تلك الأرض، كان يعيش الكنعانيون -وهم إمّا عرب أو فرع من الساميين مُختلف عن العرب والعبريّين- وقد أقاموا فيها عدّة مدن وبلدات. والتوراة تُقرّر بذلك، ومن نصوصها التي نستعين بها كنصّ تاريخيّ، وليس بلحاظ ديني: (وَقَالَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ: «اذهبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ....». فَأَتَوْا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ... وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الْأَرْضِ)^(١).

أي أنّ التوراة تنصّ بكلّ وضوح على أنّ النبي إبراهيم -ومن معه- وفدوا على أرض عامرة يسكنها الكنعانيّون، وعلم التاريخ والآثار يُظهران أنّ الكنعانيّين استوطنوها قبل هذا الحدث بقراءة ١٥٠٠ سنة على أقلّ تقدير.

بل إنّ تأسيس مدينة أريحا الفلسطينية يعود إلى ما بين ١١-١٢ ألف سنة، أي قبل عهد إبراهيم بثمانية آلاف سنة تقريباً، وبحسب بعض الباحثين تُعتبر أقدم مدينة في تاريخ البشرية. [انظر اللوحين رقم ٣٤-٣٥]

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ١٢، ١-٦.



اللوحة رقم ٣٤ : موقع مدينة أريحا



اللوحة رقم ٣٥ : من آثار مدينة أريحا

ثم رَزَقَ اللهُ إبراهيمَ ولدين، الأولَ إسماعيلَ، الذي هاجر به أبوه برفقة أمّه للعيش في مكّة المكرّمة، والآخر إسحاق، الذي رَزَقَ بدوره يعقوب (=إسرائيل). ثم انتقل يعقوب -هو وأبناءؤه- للعيش في صحراء كنعان حياةً بدويّة -بسبب بعض الخلافات الأسرية التي دفعته للابتعاد عن المدينة- إلى أن نقلهم ابنه يوسف بعد ذلك إلى أرض مصر ضمن القصّة والأحداث التي عرضها القرآن الكريم والتوراة معاً.

وهكذا تناسل بنو إسرائيل (= يعقوب) في مصر مُعَزَّزِينَ وأصحاب مكانة مرموقة، إلى أن تحوّلوا من موقع الحكم والملك إلى موقع العبودية فيها، ويبدو أنّ هذا التبدّل قد جرى نتيجة تبدّل نظام الحكم. والأرجح أنّ قدومهم كان على عهد من يُطلق عليهم «الهكسوس»، وهم غزاة -لعلّهم من بادية الشام والجزيرة العربية- سيطروا على شمال مصر لأقلّ من قرنين، فلما عاد الحُكم إلى المصريين، اضْطُهد بنو إسرائيل -حلفاء الحُكم السابق- ثم خرجوا من مصر بقيادة النبي موسى قبل ٣٣٠٠-٣٢٠٠ سنة تقريباً، وصاروا في حالة تنقّل وعدم استقرار لأكثر من أربعين سنة. وبعد وفاة النبي موسى قادهم وصيّّه وخليفته يوشع بن نون، فسيطروا على بعض المدن والبلدات الواقعة ضمن الحدود الجغرافية لفلسطين الحالية، ومنها مُدُن أريحا وعاي وغزّة.

نعود مجدّداً إلى التوراة حيث نجد فيها نصّاً يصف ما ذكرناه، ونعتمده كنص تاريخي وليس بلحاظ ديني: (وَلَمَّا سَمِعَ جَمِيعُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ فِي عِبْرِ الْأَرْضِ فِي الْجَبَلِ وَفِي السَّهْلِ وَفِي كُلِّ سَاحِلِ الْبَحْرِ الْكَبِيرِ إِلَى جِهَةِ لُبْنَانَ، الْحِثِّيُّونَ وَالْأَمُورِيُّونَ وَالْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفِرِزِّيُّونَ وَالْحَوِّيُّونَ وَالْيَبُوسِيُّونَ، اجْتَمَعُوا مَعاً لِمُحَارَبَةِ يَشُوعَ وَإِسْرَائِيلَ) أي بني إسرائيل (بِصَوْتٍ وَاحِدٍ)^(١). ولنتعرّف على الأمم المذكورة في النص السابق:

١. الكتاب المقدس: سفر يشوع، الإصحاح ٩، ١-٢.

١. الْحِثْيُونُ: غُزاة احتلّوا جزءً من تلك الأراضي قادمين من الأناضول «تركيا».
٢. الْأَمُورِيُّونَ: من بادية سورية، ولربما الجزيرة العربية أيضاً.
٣. الْكَنْعَانِيُّونَ: سكان المنطقة.
٤. الْفِرِزِّيُّونَ: اسم كنعاني معناه أهل الريف، وهم فرع قرويّ من الكنعانيين.
٥. الْحَوِّيُّونَ: من القبائل التي عاشت في نابلس والحب (١)، ثم انتشروا في شمال فلسطين، وهم -بحسب التوراة- فرع من الكنعانيين أيضاً.
٦. الْيَبُوسِيُّونَ: كنعانيون أسسوا مدينة القدس. ويابيشي أو يابيشي هو الاسم الأقدم لمدينة القدس، وعُرفت به منذ تأسيسها وذلك بين ٥٠٠٠ - ٤٢٠٠ سنة تقريباً، ثم عُرفت المدينة لاحقاً باسم «شاليم» و «أورشاليم».
- وفي نصّ آخر من نفس السّفر: (فَأَخَذَ يَشُوعُ كُلَّ مَدُنِ أَوْلِيكَ الْمُلُوكِ وَجَمِيعَ مُلُوكِهَا وَضَرَبَهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ) (٢). أي كانت هناك مدن، وكان لها حكام، وكان يوشع بن نون -ومن معه من بني إسرائيل- قادمين من خارج تلك الأرض.
- وهذا يتوافق مع ما القرآن الكريم، إذ يقول «تعالى»: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا

١. من القرى الفلسطينية شمال القدس، وتُعرف في التراث الكتابي باسم جبعون.

٢. الكتاب المقدس: سفر يشوع، الإصحاح ٩، ١-٢.

فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٣﴾^(١) فهم لم يؤسسوا دولة على أرض جرداء خالية من المجتمعات السكانية.

هذه المعطيات كما نجدها في التراث الكتابي وفي القرآن الكريم، نجدها أيضاً في أيّ كتاب تاريخي يستعرض تاريخ تلك المنطقة. وعليه، فإنّ الحديث عن الملكية التاريخية لهذه الأراضي من قبل بني إسرائيل واليهود باعتبارهم المؤسسين لها يعتبر ادّعاءً باطلاً وبلا أيّ أساس علمي. كانت هذه قراءة تاريخية مختصرة، أما القراءة الثانية، فهي القراءة الدينية.

فقد يحتجّ البعض بما جاء في القرآن الكريم في قوله «تعالى» على لسان موسى «عليه السلام»: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، فهذه الآية تذكر أن الله قد وهب هذه الأرض لبني إسرائيل وكتبها لهم.

فمن المفترض بنا -كمسلمين- أن نلتزم بالإرادة الإلهية لتكون هذه الأرض لبني إسرائيل، أي اليهود. والتوراة تقول مثل ذلك، ففي سفر اللاويين مثلاً: (وَقُلْتُ لَكُمْ: تَرِثُونَ أَنْتُمْ أَرْضَهُمْ، وَأَنَا أُعْطِيكُمْ إِيَّاهَا لِتَرِثُوهَا، أَرْضًا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا)^(٢).

وفي التوراة نصوص عدّة تدلّ على هذا الأمر، ولذا قال رئيس الوزراء الصهيوني الأسبق «مناحيم بيغن» معقّباً على خطاب الرئيس المصري الأسبق «محمد أنور السادات» أمام الكنيست الإسرائيلي: (إنّ حقّ إسرائيل في فلسطين حقّ أبديّ تاريخي تشهد له الكتب، ومنها القرآن نفسه) واستدل بالآية السابقة ثم قال: (إن الله فرض

١. سورة المائدة: ٢٠-٢٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر اللاويين، الإصحاح ٢٠، ٢٤.

لنا الأرض المقدسة دون سائر الخلق، فلا يجوز لأحد دينياً أن ينازعنا فيها)^(١).

إذاً، القرآن والتوراة ينصّان على هذا الحق، إلا أنه ليس حقاً دائماً أو غير مشروط. فالعطاء الإلهي المشار إليه مرتبط بتحقيق شروط محدّدة، وهو عطاء بلحاظ أنّهم أتباع الرُّسل والرسالات السماوية، وقد مُنحوا هذه الأرض بهدف إقامة دين الله «تعالى» فيها، وليس بناءً على كونهم من ذرية إبراهيم ويعقوب كي تصبح ملكية عائلية متوارثة عبر الأجيال.

ثم إنّ الكثير من اليهود المحتلّين لفلسطين اليوم ليسوا من بني إسرائيل، فقد أثبت علم الجينات الحديث أن البصمة الوراثية للفرد تحمل روابطه مع أسلافه، ويمكن عبرها إثبات النسب. وبناءً على نتائج الفحوصات، صُنّف البشر إلى ٢٠ مجموعة جينية رئيسة تُسمى Haplogroup، وتنبثق منها مجموعات فرعية. وظهر علم جديد يُدعى «جينولوجيا الحمض النووي» يركز على كشف العلاقات النّسبية والجينية بين الناس.

يمكن لهذا العلم تحديد الروابط الجينية بين أشخاص عاشوا في أزمنة مختلفة -تصل إلى آلاف السنين- بدقة جيدة، وتقدير الفترات الزمنية الفاصلة بينهم، حتى دون مؤشرات واضحة للقرابة. بحسب مؤسس علم «جينولوجيا الحمض النووي» البروفيسور أناتولي كليوسوف، فإن "إسرائيل" تعارض دراسة هذا العلم لأنه يتعارض مع روايتها حول عودة اليهود إلى فلسطين، حيث تظهر النتائج أن اليهود مزيج من أعراق متعددة وليست قومية واحدة.

وذكر كليوسوف في أحد كتبه أنه من بين ٣٩٩ يهودياً تم اختبار حمضهم النووي،

اتضح أن ٩٢ فقط يُحتمل أن يكونوا من نسل النبي إبراهيم «عليه السلام»، بينما ينتمي الـ ٣٠٧ المتبقون إلى مجموعات جينية مستقلة لا صلة لها به. وأضاف أن رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، وفقاً للتحليل الجيني، ينتمي إلى مجموعة جينية أوروبية تسمى R١a، وهي غير مرتبطة -نهائياً- بالجذور المفترضة المنسوبة إلى النبيين إبراهيم ويعقوب.

كما تدلّ التوراة على العطاء المشروط لهذه الأرض، وأنهم متى ما تخلّوا عن النهوض بمسؤولياتهم الدينية وانحرفوا، حُرِموا منها وكتب عليهم الشتات والذلّ: (٢٥) إِذَا وَلَدْتُمْ أَوْلَادًا وَأَوْلَادَ أَوْلَادٍ، وَأَظَلْتُمْ الزَّمَانَ فِي الْأَرْضِ، وَفَسَدْتُمْ وَصَنَعْتُمْ تِمْنًا لَا مَنُحُوتًا صُورَةَ شَيْءٍ مَّا، وَفَعَلْتُمْ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ إِلَهُكُمْ لِإِعَاطَتِهِ، ٢٦ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ أَنَّكُمْ تَبِيدُونَ سَرِيعًا عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ الْأَرْضَ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكُوهَا. لَا تُطِيلُونَ الْأَيَّامَ عَلَيْهَا، بَلْ تَهْلِكُونَ لَا مَحَالَةَ. ٢٧ وَيُبَدِّدْكُمْ الرَّبُّ فِي الشُّعُوبِ، فَتَبْقَوْنَ عَدَدًا قَلِيلًا بَيْنَ الْأُمَمِ الَّتِي يَسُوقُكُمْ الرَّبُّ إِلَيْهَا^(١).

وهذا ما تحقّق بالفعل، وعاشوا التجربة المرّة للجلاء والتشريد مكرّراً، بعد أن أشركوا وعصوا وتمردوا وطغوا وأفسدوا في الأرض، وكان أشدّها وقعاً عليهم ما جرى على يد نبوخذ نصر قبل ٢٦٠٠ سنة تقريباً، وسنتحدّث عن هذه النقطة في فصل قادم.

ويؤكد القرآن الكريم أيضاً على هذا المبدأ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا

١. الكتاب المقدس: سفر التثنية، الإصحاح ٤، ٢٥-٢٧.

وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾^(١). فالله لا يستخلف أحداً على أرض ما لأنهم من القومية الفلانية أو من ذرية فلان، بل بالاستحقاق، على مستوى الإيمان والعمل الصالح، وهو ما جاء على لسان موسى «عليه السلام»: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢). فملتقون هم الأحقّ بها، لا خصوص بني إسرائيل. وهذا أيضاً ما تؤكد التوراة في نص آخر: (٢٣) وَالْأَرْضُ لَا تُبَاعُ بَتَّةً، لِأَنَّ لِي الْأَرْضَ، وَأَنْتُمْ غُرَبَاءُ وَنُزَلَاءُ عِنْدِي^(٣). ووفق هذا المبدأ الإلهي، فإن الله «تعالى» فتح لأتباع محمد «صلى الله عليه وآله» الأرض المقدسة حين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذي أنزل معه، واستخلفهم عليها، وجعلهم الوارثين لها والأحقّ بها من سواهم، لأنهم أتباع آخر رسالة سماوية، ولا رسالة سماوية بعدها.

وبذا تبطل حُجج الصهاينة في ادّعاءهم ملكيّة الأراضي الفلسطينية دون قيد أو شرط، ولكنهم غزوا فلسطين، وارتكبوا -وما زالوا يرتكبون- أبشع المجازر، واستباحوا -وما زالوا يستبيحون- الحُرّمات، واغتصبوا -وما زالوا يغتصبون- الأرض، وانتهبوا -وما زالوا ينتهبون- الممتلكات والخيرات، وهجّروا أصحاب الأرض في جريمة تُعدّ واحدة من أكبر جرائم العصر، ووصمة عارٍ وخزي في جبين العالم الذي إن لم يُساند العدوان فقد صمّت عن الحق، واعترف بكيانٍ غاصب، ونبته خبيثة، ودولة لقيطة، أو تحت عنوان الأمر الواقع الذي لا مفرّ منه... فهل يسقط مثل هذا الحق بتقادم الزمان، ليصبح الباطل حقاً والحق باطلاً؟

١. سورة النور: ٥٥.

٢. سورة الأعراف: ١٢٨.

٣. الكتاب المقدس: سفر اللاويين، الإصحاح ٢٥، ٢٣.

وقد لفت انتباهي نصّ تاريخي يعود لقراءة ١٤٠٠ عام، كتبه الأسقف سيبوس الأرميني^(١)، يتحدّث فيه عن بعض اليهود، ويذكر ما ترجمته: (لقد خرجوا^(٢) من الصحراء وجاءوا إلى جزيرة العرب، عند أبناء إسماعيل. فقد التمسوا العون منهم، وأفهموهم بأنهم أقاربهم بحسب الكتاب المقدس، ومع أنهم^(٣) على استعداد للقبول بهذه القرابة الحميمة، إلا أنّهم لم يستطيعوا إقناع عامة الناس، لأنّ عباداتهم كانت مختلفة. في ذلك الوقت، ظهر لهم رجل من أبناء إسماعيل، اسمه [مهميت]^(٤)، تاجر، وكأنّ الله أمره بذلك كبشير، كطريق إلى الحقيقة. وعلمهم كيف يعرفون إله إبراهيم، لأنّه كان مطلعاً على قصة موسى وملماً بها للغاية... والآن، لأنّ الأمر كان من أعلى، فقد اجتمعوا جميعاً بأمر واحد في وحدة الدين، وتركوا عباداتهم الباطلة، وتحولوا إلى الإله الحيّ الذي ظهر لأبيهم إبراهيم. لذلك شرّع لهم [مهميت] ألا يأكلوا الحيفة، ولا يشربوا الخمر، ولا يتكلّموا بالكذب، ولا يزنوا. وقال: [لقد وعد الله إبراهيم ونسله من بعده بهذه الأرض بقسم إلى الأبد. وقد حقق ما وعد به خلال تلك الفترة عندما أحبّ إسماعيل. ولكن الآن أنتم أبناء إبراهيم والله يحقّق لكم وعده لإبراهيم ونسله. أحبّوا يا خلاص إله إبراهيم فقط، واذهبوا واستولوا على الأرض التي أعطاه الله لأبيكم إبراهيم. لن يتمكن أحد من مقاومتكم في المعركة، لأنّ الله معكم]^(٥).

١. سيبوس أو سبيوس، مؤرخ وأسقف بيت باغراتونيس (٦٢٨-٦٦١ م) له كتاب (تاريخ أرمينية). عاصر العديد من الأحداث التي يرويها زمن الفتوحات الإسلامية وينقل كذلك عن شهود عيان.
٢. أي هؤلاء اليهود.
٣. يشير إلى من أسماهم الإسماعيليون، أي من ذرية إسماعيل، أي العرب.
٤. أي محمد.

• الأرض المباركة:

﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾: قال ابن فارس: (الباء والراء والكاف أصل واحد، وهو ثبات الشيء، ثم يتفرع فروعاً يقارب بعضها بعضاً... قال الخليل: البركة من الزيادة والنماء)^(١). وقال ابن منظور: (البركة: النماء والزيادة... وروى ابن عباس: ومعنى البركة الكثرة في كل خير)^(٢)، والتقييد بالخير أدق، لأن البركة ليست مطلق الزيادة والنماء والكثرة، ولو لما هو شرّ، بل لخصوص ما هو خير.

والتعبير عن الفكرة ببركة ما حول المسجد لا يعني خلوّ المسجد منها، بل على العكس من ذلك، إذ تدلّ العبارة على أنّ هذه البركة ليست محصورة في حدود المسجد، بل تعمّ ما حوله، وإن كان هذا المسجد هو محور هذه البركة ومصدرها الأساس، إذ من الطبيعيّ لهذه البركة المحيطة بالمسجد أن تكون منطلقةً منه.

وهذا الخير قد يكون معنوياً مثل الهداية، العمل الصالح، الأمن وصحة الجسد؛ والأقصى مركز لانطلاق الرسائل وهداية الناس. كما يشمل الخير جوانب مادية كالزّرع والشجر والأنعام وتنوّع مصادر المياه والمعادن وغيرها من الموارد الطبيعية، ومن المعلوم أن تلك المنطقة تتميز بوفرة هذه النعم واستمراريتها عبر الزمن.

• آيات الله:

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾: هذه هي غاية الإسراء وفق ما بيّنه القرآن الكريم، وإن تحدّثت بعض الروايات وفصّل بعض المفسّرين في كونها إحدى أو أهمّ غايات الإسراء.

١. ابن فارس: مقاييس اللغة: ج ١، ص ٢٣٠.

٢. ابن منظور: لسان العرب: ج ٢، ص ٧١.

وقد أجمال القرآن في البيان، ولم يُفصّل لنا الكلام حول طبيعة تلك الآيات وماهيّتها، وهو ما دفع بالمفسّرين إلى وضع احتمالات عدّة، من بين ذلك أنها تشير إلى:

١. بعض من دلائل قدرة الله وعظمته، إذ تحقّق الإسراء في وقت قياسي، وشاهد النبي خلال الرحلة -من موضع مرتفع- جانباً من خلق الله.

٢. معالم المسجد الأقصى وخصائصه. إذ أنّه لما سُئل النبي عن وصف المسجد الأقصى، أجابهم وفق مشاهداته في تلك الليلة، فكانت تلك من الآيات على صدق رسالته ومسراه وكتاب الله، إذ لم يُرَ المسجد الأقصى من قبل كي يحيط بما فيه بالصورة التفصيليّة التي أجابهم بها، فأبهرهم.

إلا أن هذا القول يواجه بإشكال تاريخي، حيث أنه لم يكن هناك مسجد وبناء على عهد النبي -كي يزوره ويشاهده ويعرف تفاصيله، إذ كان الهيكل -أو قل المسجد الأقصى- مدّماً آنذاك، وتحول موضع صلاة اليهود إلى مزبلة، فكيف وصفه؟ ويرتفع هذا الإشكال على فرض أنّ كل المساحة المسوّرة على جبل موريا هي المسجد الأقصى، وفيها معالم عدّة، فوصفها النبي لهم.

٣. آيات غيبية كشف الله «تعالى» عنها للنبي في تلك الرحلة خاصّة. ومن المعلوم أنّ الرؤية المباشرة والعينية أقوى وأشدّ ثباتاً وتأثيراً من الإخبار والوصف والسماع والأدلة والبراهين العقلية، ومما يؤكد ذلك قوله «سبحانه وتعالى» في الدلالة على توحيده: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٥)، وفي الدلالة على المعاد: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ قَالَ

بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ لِّيُظْمِنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦٦﴾ (١).

ومن الواضح أنَّ هذه الآيات ليست كسائر الآيات التي يراها الناس، من قبيل آية الليل والنهار وحركة الشمس والقمر والتَّجُوم والسحب والغيوم ونمو النبات وأمثال ذلك كما في قوله «تعالى»: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٦) (٢).

لذا فإنَّ الآيات التي رآها رسولُ الله في الإسراء آياتٌ خاصة امتاز برؤيتها، وكان لها أثر خاصٌّ عليه في هذه الرحلة الإلهية، وعلى أكثر من صعيد.

• الإسراء والصلاة:

لعلَّ من غايات الإسراء إلى المسجد الأقصى أن يطَّلِع النبي «صلى الله عليه وآله» على هذا المسجد بنفسه -إن قلنا أن كل المساحة المسورة هي المسجد- أو الاطلاع على أطلال المسجد وموضعه، فهو القبلة الأولى للمسلمين، وعند الصلاة لا بدَّ من الاتجاه إلى القبلة، ثم إنَّ بين الإسراء وتشريع الصلاة اليومية ارتباطاً بنحو ما، إذ ذكر تشريع فريضة الصلاة اليومية في الأوقات المحددة في نفس هذه السورة، قال «تعالى»: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (١٦٨) (٣).

١. سورة البقرة: ٢٦٠.

٢. سورة البقرة: ١٦٤.

٣. سورة الإسراء: ٧٨.

وعليه تكون سورة الإسراء قد حدّدت البُعدين المكاني والزماني للصلاة، فالمسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى يتعلّق بالبُعد المكاني، والأوقات المذكورة لإقامة الصلاة تتعلّق بالبُعد الزماني.

وقد تباينت الآراء حول بداية تشريع الصلاة، وأهمّ ما طُرح في هذا الباب:

١. شُرِّعت الصلاة ليلة الإسراء، وأنّ المسلمين لم يكونوا يصلّون قبل ذلك.
٢. فُرِضت الصلاة منذ بداية البعثة النبوية، ولكنّها كانت من ركعتين أوّل النهار، وركعتين آخره، وأمّا التي فُرِضت ضمن مناسبة الإسراء فهي الصلاة بفروضها الخمس وبجالتها المعروفة، قال ابن رجب: (وفيه دليل على أن الصلاة شُرِّعت من ابتداء النبوة، لكن الصلوات الخمس لم تُفرض قبل الإسراء بغير خلاف)^(١).

وقال ابن حجر: (فإنه «صلى الله عليه وسلم» كان قبل الإسراء يصليّ قطعاً، وكذلك أصحابه، لكن اختلف هل افترض قبل الخمس شيء من الصلاة أم لا؟ فيصحّ على هذا قول من قال: إنّ الفرض أوّلاً كان صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾^(٢) ونحوها من الآيات)^(٣).

٣. عرف النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمون الصّلاة قبل ليلة الإسراء، ولكنها لم تكن مفروضة في النهار، بل في الليل، ثم فُرِضت الصلاة اليومية في الأوقات الخمس ضمن أحداث الإسراء، قال ابن حجر: (ذهب جماعة إلى أنه لم يكن قبل الإسراء

١. ابن رجب الحنبلي: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٢، ص ٩٩.

٢. سورة طه: ١٣٠.

٣. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٧، ص ٥٣٨.

صلاة مفروضة، إلا ما وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد^(١).

٤. فُرِضَت الصلاة على النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمين ليلة الإسراء، وفي نفس الأوقات التي نصلي فيها، ولكنها كانت من ركعتين، إلا المغرب كانت من ثلاث. وفي ذلك روى أحمد بن حنبل في مسنده عن أم المؤمنين عائشة قالت: (كان أول ما افترض على رسول الله «صلى الله عليه وسلم» من الصلاة: ركعتان ركعتان، إلا المغرب، فإنها كانت ثلاثاً، ثم أتم الله الظهر والعصر والعشاء الآخرة أربعاً في الحضر، وأقر الصلاة على فرضها الأول في السفر)^(٢)، وقالوا بأن هذه الزيادة جاءت بعد الهجرة إلى المدينة.

٥. عُرِفَت الصلاة قبل الإسراء، وأقيمت بترتيب ما، ولعلها لم تكن إلزامية ومفروضة على الجميع، بل كانت من قبيل الدعاء، حيث يتوجه الإنسان به متى شاء، ثم نزل تعميم التشريع على كل المسلمين، وكان ذلك في أجواء حادثة الإسراء.

وأرى أن هذا هو أنسب الأقوال، وفيه أخبار وشواهد عديدة، من بينها ما عن علي «عليه السلام»: (عبدت الله مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» سبع سنين قبل أن يعبدَه أحدٌ من هذه الأمة)^(٣)، وذلك على فرض صحة الرواية وفسرنا العبادة هنا بخصوص الصلاة، أو بالصلاة وغيرها من العبادات، لاسيما بضميمة ما روي عنه «عليه السلام» أنه قال: (صلّيت قبل الناس سبع سنين، وكنا نسجد ولا نركع، وأول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر)^(٤).

١. ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ١، ص ٥٣٣.

٢. ابن حنبل: المسند، ح ٢٥٨٠٦.

٣. الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين، ج ٣، ص ١١٢.

٤. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٥٨.

ونقل المجلسي عن كتاب الشيرازي^(١) أن النبي «صلى الله عليه وآله» لما نزل الوحي عليه، أتى المسجد الحرام وقام يُصلي فيه، فاجتاز به عليٌّ وكان ابن تسع سنين، فناداه: يا علي، إليّ أقبل، فأقبل إليه ملبياً، قال: إني رسول الله إليك خاصة، وإلى الخلق عامة، تعال -يا علي- فقف عن يميني وصلّ معي، فقال: يا رسول الله، حتى أمضي وأستأذن أبا طالب والدي، قال: اذهب، فإنه سيأذن لك، فانطلق يستأذن في أتباعه، فقال: يا ولدي، تعلم أن محمداً -والله- أمينٌ منذ كان، امض واتّبعه ترشد وتفلح وتشهد، فأتى عليٌّ ورسول الله قائمٌ يصلي في المسجد، فقام عن يمينه يُصلي معه، فاجتاز بهما أبو طالب وهما يُصليان، فقال: يا محمد، ما تصنع؟ قال: أعبد إله السماوات والأرض، ومعّي أخي عليٌّ يعبد ما أعبد، يا عمّ، وأنا أدعوك إلى عبادة الله الواحد القهار، فضحك أبو طالب حتى بدت نواجذُه^(٢) وأنشأ يقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أغيب في التراب دفيناً^(٣)

وهذه الرواية تتعارض مع ما جاء في الخطبة القاصعة المروية في نهج البلاغة برقم ١٩٢، والتي بين فيها الإمام أنه كان يرافق النبي إلى غار حراء قبل البعثة، وأنه كان حاضراً معه عند بدء بعثته، وأنه وعى ما جرى آنذاك. كما أنّ مضمون بيت الشعر المذكور لا يتناسب مع ما عرضه النبي على أبي طالب، ولا يصح أن يكون ردّاً مناسباً.

١. الحافظ أبو بكر محمد بن مؤمن الشيرازي (ت ٣٨٨هـ)، وعنوان كتابه: ما نزل من القرآن في عليّ. قال ميرزا عبد الله أفندي الأصفهاني في (تعليقة أمل الآمل) ج ١، ص ٢٩٣: (قال ابن شهر آشوب في المناقب: [وأجاز لي أبو بكر بن محمد بن مؤمن الشيرازي رواية كتاب: ما نزل من القرآن في عليّ].... ويظهر من سياق ذكره في عداد كتب العامة كون مؤلفه من العامة أي غير شيعي).

٢. التواجد: أقصى الأضراس.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٣٨، ص ٢٠٧.

وقد رُوي أيضاً أنّ (أبا طالب رأى النبيّ محمداً وعليّاً يصلّيان، وعليٌّ عن يمينه، فقال لجعفر: صلّ جناح ابن عمك، وصلّ عن يساره)^(١) ومن المعلوم أن جعفرأً هاجر إلى الحبشة قبل نزول آيات سورة الإسراء الخاصّة بأوقات الصلاة.

وفي مسند أحمد بن حنبل بالإسناد عن إسماعيل بن إياس بن عفيف الكندي عن أبيه عن جده قال: (كنت امرأً تاجرأً، فقَدِمْتُ الحج، فأَتَيْتُ العباسَ بن عبد المطلب لأُبتاع منه بعض التجارة، وكان امرأً تاجرأً، فوالله إنني لعنده بمنى إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى الشمس، فلما رآها مالت قام يصلي، قال: ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام -حين راهق الحلم- من ذلك الخباء، فقام معه يصلي، قال: فقلت للعباس: مَنْ هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي. قال: فقلت: مَنْ هذه المرأة؟ قال: هذه امرأته خديجة ابنة خويلد. قال: قلت: مَنْ هذا الفتى؟ قال: هذا علي بن أبي طالب، ابنُ عمه، قال: فقلت: فما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلي، وهو يزعم أنه نبي، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر. قال: فكان عفيف -وهو ابن عم الأشعث بن قيس- يقول: وأسلم بعد ذلك، فحسُن إسلامه، لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثالثاً مع علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»^(٢).

بل وفي الخبر التالي ما يدلّ على أن النبي «صلى الله عليه وآله» أقام الصلاة منذ بدء بعثته المباركة، ففي سنن الترمذي بإسناده عن أنس بن مالك قال: (بُعِثَ النبي يوم

١. ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١ ص ٥٤١-٥٤٣.

٢. ابن حنبل: المسند، ح ١٧٩٠.

الإثنين، وصلى عليّ يوم الثلاثاء. قال أبو عيسى^(١): وفي الباب عن عليّ^(٢).

والغريب أنّ صاحب المستدرک على الصحيحين أتى بالعنوان التالي برقم ١٨٠٤ (نُبئ النبي يوم الإثنين، وصلى عليّ يوم الثلاثاء) بينما جاء الخبر الوحيد المذكور تحت هذا العنوان كالآتي: (حدثنا أبو سعيد أحمد بن عمرو الأحمسي، ثنا الحسين بن حميد بن الربيع، حدثني عبد الرحمن بن بيهس الملائي، حدثني علي بن عابس، عن مسلم الملائي، عن أنس «رضي الله عنه» قال: نُبئ النبي «صلى الله عليه وسلم» يوم الإثنين، وأسلم عليّ يوم الثلاثاء)^(٣)، ولعله أبدلت كلمة (صلى) بكلمة (أسلم)، ومن المحتمل أن يكون ذلك من خطأ النسخ أو من عبث العابثين.

ولابدّ من الالتفات إلى أنّ سوراً قرآنية نزلت قبل سورة الإسراء -بحسب القرائن والشواهد- قد ذكرت الصلاة، كسورة العلق التي قد تكون أوّل سورة نزلت على النبي وفيها: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۖ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۖ﴾^(٤)، وسورة الأعلى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ۖ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۖ﴾^(٥)، وسورة الماعون: ﴿قَوْلِيلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۖ﴾^(٦)، وسورة المدثر: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ﴾^(٧) قَالُوا لَمْ نَكُ مِن الْمُصَلِّينَ ۖ﴾^(٨)، ومن غير المنطقي أن تُذكر الصلاة وأهميتها، والتحذير من تركها

١. أي الترمذي.

٢. الترمذي، ح ٣٧٢٨. وقوله: (وفي الباب عن عليّ) أي رُوي عن الإمام علي مثل ذلك.

٣. الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين، ح ٤٦٤٤.

٤. سورة العلق: ٩-١٠.

٥. سورة الأعلى: ١٤-١٥.

٦. سورة الماعون: ٤-٥.

٧. سورة المدثر: ٤٢-٤٣.

والتهاون فيها بينما لا يوجد تشريع يخص الصلاة، وفي حال أنّ المسلمين لا يؤدّونها، ولو على نحو الاختيار لا الفرض.

وقد أكّد العلامة الطباطبائي على بعض ما سبق وذلك في معرض تفسير قوله «تعالى»: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۙ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۖ﴾ (المراد بالعبد الذي كان يصلي هو النبي «صلى الله عليه وآله» على ما يستفاد من آخر الآيات حيث ينهاء «صلى الله عليه وآله» عن طاعة ذلك الناهي و يأمره بالسجود و الاقتراب. وسياق الآيات -على تقدير كون السورة أوّل ما نزل من القرآن ونزولها دفعة واحدة- يدلّ على صلاة النبي «صلى الله عليه وآله» قبل نزول القرآن، وفيه دلالة على نبوّته قبل رسالته بالقرآن. وأما ما ذكره بعضهم أنه لم يكن الصلاة مفروضة في أوّل البعثة، وإنّما شرّعت ليلة المعراج على ما في الأخبار وهو قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ الإسراء: ٧٨، ففيه أنّ المسلم من دلالتها أنّ الصلوات الخمس اليومية إنّما فرضت بهيئتها الخاصة ركعتين ركعتين ليلة المعراج، ولا دلالة فيها على عدم تشريعها قبل، وقد ورد في كثير من السور المكية -ومنها النازلة قبل سورة الإسراء كالمدثر والمزمل وغيرهما- ذُكر الصلاة بتعبيرات مختلفة، وإن لم يظهر فيها من كيفيتها إلا أنها كانت مشتملة على تلاوة شيء من القرآن والسجود. وقد ورد في بعض الروايات صلاة النبي «صلى الله عليه وآله» مع خديجة و علي في أوائل البعثة وإن لم يذكر كيفية صلاتهم^(١).

وعليه، فلا يصحّ أن يُقال أنّ هذه الآية نزلت -في مناسبة الإسراء- لغرض تشريع الصلاة بصورة مطلقة، بل نزلت: لتشريع الصلاة اليومية المفروضة في صورتها التي

١. الطباطبائي: الميزان، ج ٢٠، تفسير سورة العلق.

نعرفها اليوم، أو لإعادة تنظيم أوقات الفرائض اليومية، وبما يخالف ما اعتاد عليه المسلمون من قبل، أو للتنبيه على أهمية أن تكون الصلاة حاضرة في حياة المسلم في كل أوقات اليوم.

ومن المحتمل أنَّ الأمرَ باتِّخاذ المسجد الأقصى قبلةً في الصلاة زامنَ تشريع الصلاة اليومية وبالترتيب والكيفية التي نعرفها اليوم، ومن هنا كانت رحلة الإسراء -ومن ضمن أهدافها- أن يُطلع رسول الله «صلى الله عليه وآله» على هذه القبلة ويتعرّف عليها، فقد كانت بيتاً من بيوت الله «تعالى»، تعبد فيها رسل الله وأنبيأؤه والصالحون من قبل، وشهد أياماً كثيرة من أيام الله، وارتبطت به أحداثٌ عديدة في أجواء حركة الرسل والرّسالات عبر التاريخ.

ثم إنّه رُوي -في بعض مصادر السنّة والشيعة- أنَّ الصلوات الخمس قد فُرضت حين المعراج إلى السماء، وأنها فُرضت -أولاً- خمسين صلاةً في اليوم، ولكن، عند عودة الرسول «صلى الله عليه وآله» في طريقه إلى الأرض، التقى بالنبي موسى «عليه السلام»، فأشار عليه أن يرجع إلى الله «تعالى»، ويسأله التّخفيف، لأنّ الأمّة لا تطيق ذلك، كما لم يُطقه بنو إسرائيل، فرجع النبي، وسأل الله التّخفيف، فخفّفها إلى أربعين صلاة، وعاد الرسول؛ فمرّ بموسى مجدّداً، فأشار عليه بطلب التّخفيف مرّة أخرى، ففعل، فخفّفت إلى ثلاثين، ثم تكرّر المشهد فبلغت العشرين، ثم العشرة، ثم نزلت إلى خمس صلوات، ثم استحيا الرسول من المراجعة من جديد، فاستقرّت على خمس!

فمن مصادر الشيعة ما رواه الصدوق بإسناده عن زيد بن علي في حوارهِ مع أبيهِ الإمام زين العابدين «عليه السلام» أنه قال: (سألتُ أبي سيّد العابدين «عليه السلام» فقلت

له: يا أبة، أخيرني عن جدنا رسول الله لما عُرج به إلى السماء، وأمره ربُّه «عزَّ وجل» بخمسين صلاة، كيف لم يسأله التَّخفيف عن أمته حتى قال له موسى بن عمران «عليه السلام»: ارجع إلى ربِّك فاسأله التَّخفيف، فإنَّ أمتك لا تُطبق ذلك؟ فقال: يا بني، إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان لا يقترح على ربِّه «عزَّ وجل» ولا يراجعه في شيء يأمره به، فلما سأله موسى «عليه السلام» ذلك فكان شفيعاً لأُمَّته إليه، لم يُجزَّ له ردُّ شفاعته أخيه موسى «عليه السلام»، فرجع إلى ربه فسأله التَّخفيف إلى أن ردَّها إلى خمس صلوات. قال: قلت له: يا أبة، فلم لا يرجع إلى ربه «عزَّ وجل» ويسأله التَّخفيف عن خمس صلوات، وقد سأله موسى «عليه السلام» أن يرجع إلى ربِّه ويسأله التَّخفيف؟ فقال: يا بني، أراد «صلى الله عليه وآله» أن يحصل لأُمَّته التَّخفيف مع أجر خمسين صلاة، يقول الله «عزَّ وجل»: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(١) ألا ترى أنه «صلى الله عليه وآله» لما هبط إلى الأرض نزل عليه جبرئيل «عليه السلام» فقال: يا محمد، إنَّ ربَّك يُقرِّئك السلام ويقول: إنها خمس بخمسين، ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٢).....^(٣).

وعلق المجلسي في بحار الأنوار على بعض ما جاء في الرواية فقال: (قوله: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ لعلَّ المعنى أنه كان مرادي بالخمسين أن أعطيهم ثواب الخمسين، أو أنه «تعالى» لما قرَّر لهم خمسين صلاة، فلو بدَّلها ولم يُعْطِهم هذا الثواب لكان ظُلماً في جنب عظمتهم وقُدْرته وعَجْزِ خَلْقِهِ وافتقارهم إليه.... تذييل: قال السيد المرتضى

١. سورة الأنعام: ١٦٠.

٢. سورة ق: ٢٩.

٣. الصدوق: علل الشرائع، ص ٥٥-٥٦.

«رضي الله عنه» في جواب بعض الإشكالات الموردة على هذا الخبر: [قلنا: أمّا هذه الرواية فهي من طريق الآحاد التي لا تُوجب علماً، وهي مع ذلك مُضعفة] ثم أورد المجلسي تنمّة ما ذكره المرتضى من توجيهات على فرض صحّة الرواية ^(١).

وقد روي في مصادر أهل السّنة عن شريك عن أنس بن مالك رواية طويلة سنذكرها في الفصل الخاص بالمعراج، ومما جاء فيها حول تشريع الصلاة في المعراج: (وأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة على أمته كل يوم وليلة، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه، فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال: عهد إلي خمسين صلاة على أمتي كل يوم وليلة. قال: إنّ أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك وعنهم، فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشير في ذلك، فأشار إليه أن نعم، فعاد به جبرائيل حتى أتى الجبار «عز وجل» وهو مكانه، فقال: ربّ خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا، فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى «عليه السلام» فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه عند الخمس، فقال: يا محمد، قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من هذه الخمس، فضعفوا وتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت إلى جبرائيل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبرائيل، فرفعه عند الخمس، فقال: يا رب، إنّ أمتي ضعاف أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فخفف عنا، قال الجبار «جل جلاله»: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، فقال: إني لا يبدّل القول لدي، كما كتبت عليك في أم الكتاب، ولك بكل حسنة عشر أمثالها، وهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك. فرجع إلى موسى، فقال: كيف فعلت؟ فقال: خفّف عني، أعطانا

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣٤٩-٣٥٠.

بكل حسنة عشر أمثالها، قال: قد والله راودني بني إسرائيل على أدنى من هذا فتركوه فارجع فليخفف عنك أيضاً، قال: يا موسى، قد والله استحييت من ربي مما اختلف إليه، قال: فاهبط باسم الله، فاستيقظ وهو في المسجد الحرام^(١).

ودخول النبي موسى «عليه السلام» على الخط في محاولة منه للمماكسة في مقدار الصلوات المفروضة على أمة الإسلام قد يكون مؤشراً على إسرائيلية الرواية.

هذا، وفي بعض الروايات الإمامية ما يشير إلى نحو من تطوّر تشريع الصلاة، فقد روى الصدوق بإسناده عن سعيد بن المسيب أنه: (سأل علي بن الحسين «عليه السلام» فقال له: متى فرضت الصلاة على المسلمين على ما هي اليوم عليه؟ فقال: بالمدينة حين ظهرت الدعوة وقوي الاسلام، وكتب الله «عز وجل» على المسلمين الجهاد، زاد رسول الله «صلى الله عليه وآله» في الصلاة سبع ركعات: في الظهر ركعتين، وفي العصر ركعتين، وفي المغرب ركعة، وفي العشاء الآخرة ركعتين، وأقرّ الفجر على ما فرضت بمكة لتعجيل عروج ملائكة الليل إلى السماء، ولتعجيل نزول ملائكة النهار إلى الأرض، وكانت ملائكة النهار وملائكة الليل يشهدون مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» صلاة الفجر، فلذلك قال الله «تعالى»: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾^(٢) يشهده المسلمون وتشهده ملائكة النهار وملائكة الليل^(٣).

وفي رواية أخرى للكوفي ما يدل أيضاً على قيام النبي بزيادة عدد الركعات في العهد المدني ولكن في سياق آخر، مع التفصيل من حيث اختلاف صلاة المسافر عن

١. الطبري: جامع البيان، ج ٨، ص ٥-٦.

٢. سورة الإسراء: ٧٨.

٣. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٤٤٩١.

الحاضر، فقد روى بالإسناد عن الإمام محمد الباقر «عليه السلام» أنه قال: (لَمَّا عُرِجَ برسول الله «صلى الله عليه وآله» نزل بالصلاة عشر ركعات، ركعتين ركعتين، فلَمَّا وُلِدَ الحسن والحسين زاد رسول الله «صلى الله عليه وآله» سبع ركعات شكراً لله، فأجاز الله له ذلك، وترك الفجر لم يزد فيها لضيق وقتها، لأنَّه يحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار، فلَمَّا أمره الله بالتقصير في السَّفر وضع عن أمّته ستَّ ركعات، وترك المغرب لم يُنْقِصْ منها شيئاً^(١).

وقد يُقال: لماذا يُلْزِمُ النبي أمّته بركعات إضافية لولادة السبطين؟ فلو أراد أن يؤدّي شكر ذلك، فلْيُلْزِمْ نفسه بعبادةٍ أو ركعاتٍ إضافية، لا أن يُلْزِمَ الأمة كلّها بذلك. إلا أن يُقال أن هذه الزيادة بهذه الغاية جاءت للتأكيد على مقام السبطين، وعلى ضرورة أن يعرف المسلمون لهما ذلك، وأن يتذكّروا شأنهما كلّما أقاموا الصلاة بعدد ركعاتها الإضافية على ما كانت عليه.

على أيّ حال، إن صحّت رواية الصدوق عن سعيد، وضمّمنا إليها ما ذكرناه مسبقاً، فسنخلص إلى أنّ الصلاة -منذ بدء البعثة- كانت تُقام بصورةٍ ما من حيث أوقات الإقامة وكيفية وعدد ركعاتها، بل ومن حيث الإلزام وعدمه، ثم أخذت -ضمن الإسراء- قالباً تشريعياً مختلفاً من حيث الإلزام وعدد الركعات، ومن حيث أوقات إقامتها وجهة الاستقبال، ثم استقرّت لاحقاً -في العهد المدني- على الوضع الذي نشهده اليوم في كلّ الأبعاد المشار إليها. بل يمكن القول أن النبي كان يصليّ نحواً من الصلاة قبل بعثته أيضاً، كما جاء في كلام العلامة الطباطبائي وبعض الروايات.

١. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٤٥٧٠.

• خاتمة الآية:

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: لقد سمع الله من عبده وأبصر من حاله -ظاهراً وباطناً- ما استدعى أن يُكرِّمه بالإسراء، وأن يُريه بعضاً من آياته «سبحانه»، أو سمع وأبصر ما عبّر به النبي «صلى الله عليه وآله» من إخلاصه وتوحيده له، ومن خشوعه وخضوعه وعبادته وإطاعته، فمنحه هذا اللطف والتّكريم... وقد تدلّ العبارة على كلّ ذلك. وهكذا يكافئ الله عباده المخلصين ويرعاهم ويشملهم بعنايته الخاصة.

وقد أرجع بعض المفسّرين الضميرين إلى النبي «صلى الله عليه وآله»، فيكون السميع البصير هو شخص النبي الذي كان مُدرِكاً وواعياً لكلّ ما سمع وأبصر، ولم يكن كاذباً ولا متوهماً كما زعم المشركون، فتكون خاتمة الآية قد جاءت من أجل تنزيه الرسول «صلى الله عليه وآله» عن الكذب والتّوهّم. وهذا القول غريب، وجمهور المفسّرين على أنّ الضميرين يعودان إلى الله «تعالى».

• هل تعدّ حادثة الإسراء معجزة؟

لا بد من التنبيه -أولاً- إلى أنّ القرآن الكريم لم يستعمل مصطلح «معجزة» للدلالة على ما أُيد به بعض الرّسل، بل استعمل مصطلح «آية»، والآية هي العلامة والإمارة الظاهرة التي تدلّ على شيء ما وتستدعي النظر والتّثبت والتوقف عندها. وهي مشتقة من «التأيي»، الذي هو التّثبت: (يقال: قد تأيَّيتُ، أي: تلبَّثْتُ وتحسَّبتُ)^(١).

ومن هنا أطلق الله «عز وجل» على محتويات السور القرآنية عنوان «آيات»، لأنها علامات وإمارات ودلائل ظاهرة تدلّ على سماويّتها وصحّة نبوة محمد

١. ابن منظور: لسان العرب، ج ١٤، ص ٦٣.

«صلى الله عليه وآله» وما فيها من مضامين إيمانية وتشريعية وأخلاقية وحكّمية، وهي تستدعي النظر والتثبت والتوقف عندها والاستفادة منها.

واستعمال كلمة «آية» بشأن ما نُطْلَق عليه عنوان «المعجزة» أوفق بالغاية منها. فالغاية الرئيسة والأهم عند الله «عز وجل» هي هداية الناس وإرشادهم وإخراجهم من غفلتهم وفتح أعينهم على الحقائق، لا التعجيز والتغلب والقهر والدخول في حالة تحدّد مع عباده وهو القوي العزيز، وإن كان ذلك متحققاً في بعض الأحيان -وبالتّبع- بسبب العناد والطغيان والجحود.

ولعل استبدال مصطلح «آية» القرآني بمصطلح «معجزة» جاء بتأثير مسيحي من خلال البيئات المسيحية التي دخلها الإسلام في العراق والشام ومصر وغيرها، حيث أنه المصطلح المستعمل فيها للدلالة على «آيات» الله. ولهجران المصطلحات القرآنية واستبدالها بمصطلحات أخرى آثار سلبية عدّة، من بينها:

١. ضياع المعايير القرآنية في الحُكم على الأشياء، وذلك من قبيل استبدال مصطلح «الإيمان» بمصطلح «العقيدة»، فحدود الإيمان واضحة في القرآن، ويمكن التعرّف عليها بتتبّع الموارد التي تحدّثت عن صفات المؤمنين، وما هي العناوين التي يجب أن يؤمن بها الإنسان كي يكون مؤمناً وفق المصطلح القرآني. ومثال ذلك ما جاء في الآيات الأولى من سورة البقرة: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢﴾﴾^(١).

أما مصطلح العقيدة فلم يُستعمل في القرآن ولا في الأحاديث، بل هو مصطلح اخترعه بعض علماء المسلمين، ولعل ذلك كان في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني، وصار بذلك عنواناً مطّاطاً يمكن البعض من إدخال أو إخراج ما شاءوا من عناوين وشروط وتفاصيل تُمثّل بالنسبة إليهم ضوابط لإدخال الناس في دائرة الإيمان والمؤمنين، أو إخراجهم منها إلى دائرة الكُفر والكافرين.

٢. خفاء أو ضياع بعض المفاهيم المهمة المرتبطة بالمصطلح، وذلك من قبيل استبدال كلمة «آية» بكلمة «معجزة»، مما يؤدي أيضاً لخلل عند التطبيق بإدخال أو إخراج بعض الأحداث وفقاً لاختلاف المعنى والمعايير.

ثم إن من مميزات الآيات «المعاجز» الإلهية بحسب القرآن الكريم أنها:

(أ) تفوق قدرات البشر: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٨٨).^(١)

(ب) واضحة لا لبس فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ (١١).^(٢) ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥).^(٣)

(ج) إثبات مصداقية النبي: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١) ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٥).

١. سورة الإسراء: ٨٨.

٢. سورة الإسراء: ١٠١.

٣. سورة يونس: ١٥.

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٨﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٧٠﴾ (١).

(د) إنقاذ لصاحبها: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴿٢﴾. ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴿٣﴾.

(هـ) تحدي بغرض الهداية: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ﴿٦٨﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٦٩﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٧٠﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٢﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴿٤﴾.

(و) تخويف وصدمة بغرض الهداية: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ ﴿٧٤﴾. ﴿٥﴾. فالله «سبحانه» لم يعضد رسوله محمداً «صلى الله عليه وآله» بالآيات المادية، ولم يكن السبب في ذلك بطلان رسالته، بل لانعدام تأثيرها، فالتجارب السابقة بيّنت أن لا طائلة من مثلها،

١. سورة الأعراف: ١٠٤-١٠٨.

٢. سورة الأنبياء: ٦٨-٧٠.

٣. سورة الشعراء: ٦١-٦٧.

٤. سورة الطور: ٢٩-٣٤.

٥. سورة الإسراء: ٥٩.

فكما أنكرها ووجد بها السابقون، كذلك سينكرها ويوجد بها المشركون، وسيرتّب على ذلك عذاب الاستئصال كما استؤصل من سبقهم، وقد شاء الله أن لا يستأصلهم بأجمعهم، بل يُبقي الفرصة قائمة لهم لعلهم يهتدون.

يضاف إلى ذلك أن إنزال الآيات المادية يستهدف الإنذار والتخويف، وهذا متحقّق عن طريق ما جاء في القرآن من إنذار ووعيد وتهديد وإخبار عن الماضي والمستقبل الدنيوي والأخروي: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (١).

والنصوص التالية تدلّ على أن الله لم يعضد نبيّه بآيات ماديّة، واكتفى بالقرآن الكريم للدلالة على صحّة نبوته:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٣) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

٢. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٥).

٣. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾ (٦).

١. سورة الإسراء: ٦٠.

٢. سورة الأنعام: ٣٥-٣٧.

٣. سورة الرعد: ٧.

٤. سورة الرعد: ٢٧.

٤. ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦﴾ إِنَّ نَاشِئُنَا مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ
أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٧﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٨﴾
فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴿٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾﴾ (١).

٥. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ أَوَلَمْ
يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ (٢).

والبديل عن الآيات المُبصرة «=المادية» هو الدَّعوة للتدبُّر في «آيات» القرآن وفي
الآفاق وفي النفس كوسيلة من وسائل الهداية للتوحيد والنبوة والآخر.

قد يقال: إنَّ عدم إرسال مثل تلك الآيات المادية يجعل النبي «صلى الله عليه وآله»
أقلَّ مرتبة وشأنًا من سائر الرُّسل... والجواب:

أ. لا دليل على أنَّ هذا من معايير التفاضل بين الرُّسل، أو أنَّ من المعايير التفاضل في
عددها أو نوعيتها، لأنَّ الغرض منها -بحسب القرآن- هو التخويف والإنذار وإثبات
النبوة وغير ذلك مما ذكرناه مسبقاً، لا التفاضل بين الأنبياء.

ب. آيات القرآن الخالدة وعظمة تأثيرها تفوق شأنًا -وبراتب- الآيات المادية محدودة
الزمن والتأثير. فالآيات المادية زالت وبقي خبرها بعد أن عاينها من عاينها، وأما
الآيات القرآنية فهي باقية ما بقي الدهر، وستبقى مؤثرة وفاعلة، وتعمل على تغيير مَنْ
يعمل بها ولو بعد نزولها بآلاف السنين. كما أنَّها من حيث العدد تفوق بمراتب آيات
الرسل السابقين بأجمعهم.

١. سورة الشعراء: ٣-٨.

٢. سورة العنكبوت: ٥٠-٥١.

بعد هذا العرض لتصحيح مفهوم الآيات «= المعاجز» نعود إلى السؤال المطروح حول كون الإسراء آية، وجوابه هو النفي وفقاً للاحتمالين: الأول، القول بأن الإسراء كان بالروح أو في المنام، وبناءً على ذلك لن يكون الإسراء آية كما هو واضح. والثاني، القول بتحقيق الإسراء بالجسد والروح معاً وفي عالم الواقع - كما هو مدلول ظاهر الآية القرآنية - وبناءً على ذلك فإنّ الحدث أيضاً ليس بآية، لأنه لم يقع على مشهد من المشركين، بينما الغاية من الآيات التخويف والإنذار وإثبات النبوة والإنقاذ، ومجرد ذكر حدوث ذلك من خلال القرآن الكريم أو بشهادة بعض رجال القافلة - كما في رواية - لا يكفي لجعلها آية.

والذي يمكن أن يقال هنا أنّ الإسراء كان شأنًا خاصاً بالنبي «صلى الله عليه وآله» إكراماً وتثبيتاً له، وهذا ما تلخّصه عبارة: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

• خلاصة الفصل:

○ نصّ القرآن الكريم على أنّ منطلق الإسراء هو المسجد الحرام، وهو منصرفٌ إلى المسجد الذي يضمّ الكعبة المشرفة بمكة، فلا يُلتفت إلى ما رُوي من أنّ مبدأ الإسراء كان من موضع آخر، إلا على القول بأنّ للنبي معراجاً لا علاقة له بهذا الإسراء، وقد تمّ في مناسبة أخرى، وأنّ تلك الروايات ناظرة إلى هذا المعراج، لا إلى الإسراء المذكور في الآية، وهو قول غير أكيد.

○ مُنتهى الإسراء هو المسجد الأقصى، وهو المسجد المعروف الموجود في مدينة القدس في فلسطين، ولا يصحّ ادّعاء أنه مسجد في السماء أو في ميقات الجعرانة.

○ اختُلف في تحديد مؤسّس المسجد الأقصى، والأرجح أنّه النبي سليمان، حيث

أقام صرحاً كبيراً وفخماً للعبادة على جبل موريا «مروة» في القدس، ويُعرف عند العرب باسم هيكل سليمان، وقد تعرّض للهدم مرتين، الأولى على يد الغزاة البابليين والأخرى على يد المحتلّين البيزنطيين.

○ ليس لليهود -اليوم- حقٌّ في المسجد الأقصى، ولا في الأرض الفلسطينية ككل، فما جاء من نصوص كتابية وقرآنية بهذا الخصوص إنما قيّد بالإيمان والطاعة والتقوى، وحيث تمرّدوا إلى حدّ الشرك، وعصوا بارتكاب أشدّ الموبقات، حلّ عليهم غضب الله، وسلبهم هذه العطية الإلهية، وزال حقّهم في الأرض المباركة.

○ تنصّ الآية الأولى من السورة على أن الغاية الوحيدة أو الرئيسة للإسراء هو أن يرى النبي من آيات الله، ولعلّ منها معاينته أرض البركة والرسالات في القدس، لاسيما وأن المسجد الأقصى كان القبلة الأولى للمسلمين.

○ ارتبط تشريع الصلاة اليومية بحدث الإسراء، وتحدّثت السورة عن أوقات هذه الصلوات، واختلف علماء المسلمين في دلالة ذلك على مبدأ تشريع الصلاة أو تشريعها بصورتها المعهودة، والأرجح أن المسلمين قد عرفوا الصلاة قبل ذلك، بل وأقامها النبي والمسلمون، ولكن من المحتمل أنها لم تكن بهذه الطريقة والتفاصيل والأحكام التي نعرفها، وأنها استقرّت على الصورة الحالية في أجواء الإسراء.

○ الإسراء ليس معجزة وفق المعنى الاصطلاحي لها، لاسيما حيث لم يشهده أحد سوى النبي، بينما تكون الآيات «المعاجز» بغرض التخويف والحثّ على الإيمان بالرسالة من خلال التأكيد على ارتباط الرسول بالغيب، وهو ما لم يتحقّق هنا، بل كان الإسراء تكريماً وشأناً خاصاً بالنبي: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

بنو إسرائيل بين الوعد والوعيد

بنو إسرائيل بين الوعد والوعيد

• موضوعات هذا الفصل:

- البحث عن علاقة آية الإسراء بما يليها من آيات تحدّثت عن النبي موسى وحركة بني إسرائيل في التاريخ، والسّنن الحاكمة لهذه الحركة، ومآلاتها.
- ما دور الإسراء في هداية الأمة الإسلامية، وحفظها من تكرار تجربة بني إسرائيل السلبية عبر التاريخ؟ وهل استفاد المسلمون من هذه الهبة الإلهية؟
- بيان وشرح الآيات السبعة (٢-٨) التي تناولت أحوال بني إسرائيل الماضية والمستقبلية، وكيف أوّل المفسّرون تلك الأحداث؟ وماذا يقول المؤرّخون؟
- مناقشة نسب بني إسرائيل كما عرضه القرآن الكريم مقارنةً بما جاء في التوراة ومصادر أهل الكتاب، وعلاقة ذلك بتوارث النبوة.

- كيف وصفت التوراة الوعيدين الأول والثاني؟ وماذا جاء حولهما في سفر إشعياء وإرميا؟ وما مدى التطابق بين هذه النصوص وما جاء في القرآن الكريم.
- ماذا جاء في الروايات حول علاقة الإمام المهدي ببيت المقدس وما سيقع من قتال مع اليهود؟

• بين الإسراء وبني إسرائيل:

بعد أن تحدّث الآية الأولى من السّورة عن الإسراء، إذا بها تنتقل فجأة للحديث عن النبي موسى وتاريخ بني إسرائيل، ومصيرهم المستقبلي في الحياتين، الدنيا والآخرة، ضمن مآلات مواقفهم المرتبهة بالتبدلات الحادثة في قناعاتهم الفكرية والإيمانية والأخلاقية والمبدئية، والسّنن الحاكمة لهذه الحركة.

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ۝ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝﴾ (١).

فما علاقة هذه الآيات مع ما جاء في الآية الأولى التي تحدّثت عن الإسراء؟ وما

علاقتها بالآية التاسعة وما بعدها والتي ستتحدث عن إنزال القرآن ودوره في الهداية وعن مصير الكافرين برسالة النبي، وعن سُنن الله «تعالى» في حركة التاريخ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ... مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ۝ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝﴾ (١).

اعتبر العلامة الطباطبائي أنَّ الآيات السبع الخاصة ببني إسرائيل آيات معترضة بين الآية الأولى والتاسعة، والغاية من ذكرها أن تكون تمهيداً لما سيأتي بعدها.

فمن رسائل القسم الأول من سورة الإسراء التأكيد على وجود سنّة تاريخية تحكم حركة الأمم، ومفاد هذه السنّة أنَّ الله خلق النَّاس مختارين في الطاعة والمعصية، وعمل على هدايتهم إلى التوحيد والعبودية له، وأمدَّهم بالتَّعم وبأسباب الطاعة والمعصية، فإنَّ هم أطاعوا وأحسنوا، أثابهم بسعادة الدنيا والآخرة، وإنَّ أساءوا وعصوا، جازاهم بنگال الدّنيا وعذاب الآخرة.

وجاءت حركة بني إسرائيل التاريخية نموذجاً تصديقاً لهذه السنّة، حيث أنزل الله على رسوله الكتاب، وجعله لهم هدىً يهتدون به، وقضى إليهم فيه أنَّهم سيعلون ويظغون ويفسقون ويفسدون في الأرض، فينتقم الله منهم إذ يستولي عليهم العدو، وسيذوقون مرارة النذل والقتل والأسر والسبي، ثم يعودون إلى الطاعة، فيعود الله «تعالى» فيُنعم عليهم ويرحمهم، ثم يَستعلون ويُفسدون ويظغون ثانيةً، فينتقم الله

منهم بما هو أشدّ من الانتقام السابق، ثمّ من المرجوّ أن يرحمهم ربّهم بعد ذلك كلّه، وستبقى السنّة حاكمةً على حركتهم، فإنّ يَعودوا للتمردّ والعِصيان، سيعود الله عليهم بالعقوبة من جديد، ولربّما بصورة أشدّ وأكبر.

هذا المثل التاريخي رسالة إلى أمة محمّد «صلى الله عليه وآله»، مفادها أنّهم مشمولون وغير مستثنّين من هذه السنّة الإلهية، فإنّ هم آمنوا وأحسنوا وأطاعوا الله، أغدق عليهم من نعمه، وإنّ هم عصوا وتمردوا وظغوا واستكبروا وأفسدوا في الأرض، عاقبهم ونكّل بهم، وإنّ عادوا وأصلحو سيعود الله عليهم بالتّعمة والرحمة، وإنّ كرّروا ذات التجربة السابقة، كرّر الله عقابه، وبما هو أشدّ وأكبر، وجعلهم أدلاء مستضعفين في الأرض لعلهم يرجعون. ثم سيلاقى الجميع مصيرهم في الآخرة دون استثناء^(١).

وبالفعل، فإنّ من ينظر إلى تاريخ الأُمّة الإسلامية، سيجد نحواً من هذا التماثل بين حركة الأُمّتين، إذ ذاق المسلمون الذلّ والهوان والخوف والاحتلال ونهب الثروات وتدمير الإنجازات الحضاريّة والمدنيّة على يد المغول والصليبيّين والمستعمرين الغربيّين والصهاينة الإسرائيليّين وغيرهم، وسامهم خُلفاء الجور وولاّتهم وعُمّاهم سوء العذاب، وهُدّمت الكعبةُ المشرفةُ أكثرَ من مرّة، كما هُدم هيكل اليهود، وقُتل أوصياء النبي «صلى الله عليه وآله» واضطّهدوا وحوربوا من قبل حكام الجور وأزلامهم كما قُتل الأنبياء «عليهم السلام» واضطّهدوا وحوربوا على يد بني إسرائيل، وما زالت الأُمّة -على الرغم من كلّ التّعصّب التي ترفل فيها- تترنّح وتعيش مآسي التبعيّة والإذلال والاستضعاف على يد أكثر من عدوّ.

وأيد العلامة الطباطبائي فكرته بما روي في تفسير البرهان عن ابن قولويه بإسناده

١. انظر تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٣٥-٣٦.

عن صالح بن سهل عن أبي عبد الله «عليه السلام»: في قول الله «عز وجل»: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ....﴾ قال: قتل أمير المؤمنين وطفن الحسن بن علي «عليهما السلام» ﴿.... وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ۝﴾ قال: قتل الحسين «عليه السلام» ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا....﴾ قال: إذا جاء نصر الحسين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ....﴾ قوم يبعثهم الله قبل قيام القائم لا يدعون لآل محمد وتراً^(١) إلا أخذوه ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝﴾).

ثم علّق عليها بقوله: (وفي معناها روايات أخرى، وهي مسوقة لتطبيق ما يجري في هذه الأمة من الحوادث على ما جرى منها في بني إسرائيل، تصديقاً لما تواتر عن النبي «صلى الله عليه وآله» أنّ هذه الأمة ستركب ما ركبته بنو إسرائيل حذو التعل بالتعل والقدة بالقدة، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخله هؤلاء).

وأحسن العلامة الطباطبائي إذ نبّه بعد ذلك إلى أنّ ما في هذه الروايات ليس من باب تفسير الآيات كي يرد الإشكال بمخالفة ظاهر النص وباختلاف المعنيين، إذ تتحدّث الآيات عن بني إسرائيل، بينما تتحدّث الروايات عن المسلمين، بل هي واردة مورد التأويل والتطبيق، ومما يؤكّد ذلك أنّ التّطبيقات في الروايات متعدّدة ومتباينة^(٢).

ولربّما دلّ هذا على أنّ حادثة الإسراء جاءت كواحدة من أسباب وأدوات هداية الأمة من خلال تقوية دور النبي «صلى الله عليه وآله» وحرّكته في هدايتها، مثلما كان «الكتاب» الذي آتاه الله «تعالى» نبيّه موسى «عليه السلام» أحد أسباب وأدوات هداية بني إسرائيل على يد رسولهم، وكما أنّ للقرآن الكريم مثل هذا الدور أيضاً.

١. أي ثأراً.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ١٣، ص ٤٣-٤٤.

وهناك أمر آخر محتمل يفسر العلاقة بين الآيات، ويمكنه أن يكمل صورة التداخل بين مستقبل أمة محمد «صلى الله عليه وآله»، ومستقبل بني إسرائيل.

فقد رزق الله «تعالى» نبيّه إبراهيم -أولاً- بابنه إسماعيل من أمّته هاجر، وبعد سنوات عديدة، لعلّها تبلغ ١٣ سنة، بشّره الله بولد ثانٍ من زوجته سارة، وهو إسحاق. أمّا الولد الأوّل والبكر، النبيّ إسماعيل، فقد شاء الله أن يكون من ذريته نبياً محمد «صلى الله عليه وآله»، في حين كانت النبوة والرّسالة في الفرع الثاني ممتدة من إسحاق ومروراً بـيعقوب فيوسف فموسى وسائر أنبياء ورسّل بني إسرائيل إلى المسيح عيسى ابن مريم «عليهم السلام».

وهكذا تلتقي الأمتان، أمة بني إسرائيل وأمة محمد، في أخوين هما إسماعيل وإسحاق، وفي أب واحد هو الخليل إبراهيم. والأمتان وإن انطلقتا من دين واحد هو دين إبراهيم، وهو الإسلام، ومن رسالتين متقاربتين من حيث الأصول والمبادئ، كالتوحيد والإيمان بالنبوة والمعاد، إلّا أنّ عوامل عديدة كالحسد والغيرة وروحيّة الاستعلاء حولت الأمر إلى حالة من الصراع والكراهية على الرغم من الدعوات القرآنية المتكررة لتجاوز ذلك كلّّه والتوافق والانسجام والتكامل من خلال نقاط الالتقاء:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢).

١. سورة آل عمران: ٦٤.

٢. سورة البقرة: ٦٢.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٣﴾
قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا
أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٥٤﴾
فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٥٥﴾﴾^(١).

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ
وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ
كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن
آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ
يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا
بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدَاهُمْ اِقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا
ذِكْرَى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾^(٢).

تسعى هذه الآيات الكريمة وغيرها من آيات القرآن إلى معالجة الحالة السلبية في
العلاقة بين الأمتين عبر الدعوة للالتقاء حول المشتركات، وخاصة الإيمان بالرسول
والرسالات والكتب السماوية، وهو أمر يُعتبر أساساً في عقيدة أمة محمد.

إلا أنّ هذه الدعوات المتكررة قرآنياً لم تغيّر ذلك الواقع السلبي في مشاعر ومواقف

١. سورة البقرة: ١٥٣-١٥٥.

٢. سورة الأنعام: ٨٣-٩٠.

اليهود من أمةٍ سَلِيلِ إِسْمَاعِيلَ، إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْهُمْ، كَمَا تَحَدَّثَتْ عَنْ ذَلِكَ سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٥ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا ۝١٦ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۝١٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٨ وَيَجِرُونَ لِلَّذِينَ يَكْفُرُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝١٩﴾ (١).

هذا هو الاستثناء في موقف أهل الكتاب، وأمّا الموقف العام فيتمثل في الإنكار والعناد والمواجهة وإعانة المشركين في مواقفهم العدائية، وهو ما تصفه الآيات التالية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١﴾ (٢).

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٥٢ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ۝٥٣ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٥٤﴾ (٣).

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٧٩ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَقُولُونَ اللَّهُمَّ إِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٨٠ وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٨١ وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٨٢ وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٨٣ وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٨٤ وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٨٥ وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٨٦ وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٨٧ وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٨٨ وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٨٩ وَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۝٩٠﴾

١. سورة الإسراء: ١٥-١٠٩.

٢. سورة النساء: ٥١.

٣. سورة البقرة: ٤٤-٤٤.

وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ
وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ
بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ (١).

وقد رسخت بعض التصوص الكتابية أسس هذا الصراع منذ القدم، ووضعته في إطار صراع بين أخوين من جهة، وبين سيّدة وأمّتها من جهة ثانية، وتحدثت عن الغيرة والكراهية المتأصلة بين الفرعين، والممتدة زمنياً.

ففي سفر التكوين من التوراة، عند الحديث عن بشارة الله للنبي إبراهيم بولادة إسحاق من سارة بعد إسماعيل من هاجر: (١٨) وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلَّهِ: «لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعْيشُ أَمَامَكَ!» يفهم من هذه العبارة أنّ إبراهيم طلب من الله أن تكون استمرارية النبوة والرسالة والعهد الإلهي في إسماعيل، في نصّ يُشبه في دلالة قوله «تعالى»: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢).

إلا أنّ الله أخبره أنّ العهد والنبوة والرسالة ستكون في ولدٍ آخر سيولد من زوجته سارة: (١٩) فَقَالَ اللَّهُ: «بَلْ سَارَةُ امْرَأَتُكَ تَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ إِسْحَاقَ. وَأَقِيمُ عَهْدِي مَعَهُ عَهْدًا أَبَدِيًّا لِنَسْلِهِ مِنْ بَعْدِهِ. ٢٠ وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أَبَارِكُهُ

١. سورة المائدة: ٧٨-٨٦.

٢. سورة البقرة: ١٢٤.

وَأُثْمِرُهُ وَأَكْثَرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. إِنِّنِّي عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً) فإسماعيل وفرعه لن يرثوا النبوة والرسالة بل سيكون مباركاً من حيث العدد فحسب، في حين أَنَّ النبوة والرسالة ستكون في إسحاق وفرعه: (٢١) وَلَكِنْ عَهْدِي أُقِيمُهُ مَعَ إِسْحَاقَ الَّذِي تَلِدُهُ لَكَ سَارَةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ فِي السَّنَةِ الْآتِيَةِ»^(١).

ثم يتحدث النص التوراتي عن بدء الخلاف بين البيتين: (٩) وَرَأَتْ سَارَةُ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي وَلَدَتْهُ لِإِبْرَاهِيمَ يَمْرُحُ، ١٠ فَقَالَتْ لِإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَّةَ وَابْنَهَا، لِأَنَّ ابْنَ هَذِهِ الْجَارِيَّةِ لَا يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ»). [انظر اللوحة رقم ٣٦]

فانزعج إبراهيم من ذلك بشدة إلا أَنَّ الله أمره بالاستجابة لطلب سارة، حفاظاً على إسحاق وذريته، فهم الأولى بالرعاية: (فَبَكَرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْرًا وَقَرِيبَةً مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، وَاضْعَا إِيَّاهُمَا عَلَى كَفِيفِهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةٍ بِئْرِ سَبْعٍ. ١٥ وَلَمَّا فَرَّغَ الْمَاءُ مِنَ الْقَرِيبَةِ طَرَحَتْ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الْأَشْجَارِ، ١٦ وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمِيَةِ قَوْسٍ، لِأَنَّهَا قَالَتْ: «لَا أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ»^(٢)). فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. ١٧ فَسَمِعَ اللَّهُ صَوْتَ الْغُلَامِ، وَنَادَى مَلَأَكُ اللَّهُ هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لِكَ يَا هَاجَرُ؟ لَا تَخَافِي، لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ لَصَوْتِ الْغُلَامِ حَيْثُ هُوَ. ١٨ قُومِي احْمِلِي الْغُلَامَ وَشَدِّي يَدَكَ بِهِ، لِأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً». ١٩ وَفَتَحَ اللَّهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بئْرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلَأَتِ الْقَرِيبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلَامَ. ٢٠ وَكَانَ اللَّهُ مَعَ الْغُلَامِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ يَنْمُو رَايِي قَوْسٍ. ٢١ وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةٍ فَارَانَ،

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ١٧، ١٨-٢١.

٢. بسبب عطشه لفقدان مصدرٍ للماء في تلك الصحراء، وهو ما يذكرنا بعطش إسماعيل بجوار البيت الحرام في مكة المكرمة، وبحث أمه عن مصدر للماء، وكيف أنبع الله له ماء زمزم كما جاء في بعض الروايات الإسلامية.



اللوحة رقم ٣٦ : لوحة فنية تمثل موقف سارة من هاجر

وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ^(١).

ونجد في سفر المزامير - على لسان «آساف» كبير مُنشدي بلاط النبي داود^(٢) - وصف ذرية إسماعيل بأنهم أعداء الله وأعداء بني إسرائيل: (١) اَللّٰهُمَّ، لَا تَصْمُتْ. لَا تَسْكُتْ وَلَا تَهْدَأْ يَا اَللّٰهُ. ٢ فَهُوَذَا اَعْدَاؤُكَ يَعْجُونَ، وَمُبْغِضُوكَ قَدْ رَفَعُوا الرَّأْسَ. ٣ عَلَى شَعْبِكَ مَكْرُوا مُؤَامَرَةً، وَتَشَاوَرُوا عَلَى اَحْيَائِكَ. ٤ قَالُوا: «هَلُمَّ نُبْذِهِمْ مِنْ بَيْنِ الشُّعُوبِ، وَلَا

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٢٢، ٩-٢١.

٢. اسم هذا المنشد آساف بن برخيا، وهو ذاته آصف بن برخيا المذكور في مرويات المسلمين على أنه المقصود في قوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وقد تعرضت لهذا الموضوع في الجزء الأول من كتابي (في عمق التاريخ) وبينت أن إقحام اسمه في الروايات والأخبار التأويلية إنما جاء بيد إسرائيلية قصدت العبث في تأويل الآية، إذ جعلت منشداً يملك هذا العلم الخارق... فراجع.

يُذَكِّرُ اسْمُ إِسْرَائِيلَ بَعْدُ). ٥ لَأَنْتَهُمْ تَأْمَرُوا بِالْقَلْبِ مَعًا. عَلَيْكَ تَعَاهَدُوا عَهْدًا. ٦ خِيَامُ أَدُومَ وَالْإِسْمَاعِيلِيِّينَ، مُوآبُ وَالْهَاجَرِيُّونَ).

ثم يَصُبُّ عليهم اللعنات كي يبيدوا ويهلكوا كما فعل بهم الله من قبل في عصر القضاة عندما أهلك أهل مَدْيَن بيد القاضي «جدعون»، وكما أهلك «يايين» ملك كنعان ورئيس جيشه «سيسرا» عند نهر «قيشون»، وهرب هؤلاء الأعداء في منطقة «عين دور» التي بجوار «مجدو» الواقعة جنوب بحر الجليل، وصارت جثثهم سماداً للأرض، ودعا الله - كذلك - أن يهلك رؤساء الأعداء، كما أهلك قديماً أمراء وملوك مَدْيَن، فهؤلاء حاولوا احتلال بلاد بني إسرائيل: (٩) افْعَلْ بِهِمْ كَمَا بِمَدْيَانَ، كَمَا بِسَيْسَرَ، كَمَا بِيَايِينَ فِي وَادِي قَيْشُونَ. ١٠ بَادُوا فِي عَيْنِ دُورٍ. صَارُوا دِمْنًا لِلْأَرْضِ... ١٣ يَا إِلَهِي، اجْعَلْهُمْ مِثْلَ الْجُلِّ^(١)، مِثْلَ الْقَشِّ أَمَامَ الرِّيحِ. ١٤ كَنَارٍ تَحْرِقُ الْوَعْرَ، كَلْهَيْبٍ يُشْعِلُ الْجِبَالَ. ١٥ هَكَذَا اطْرُدْهُمْ بِعَاصِفَتِكَ، وَبِرُوحِكَ رَوِّعْهُمْ. ١٦ اْمْلَأْ وُجُوهَهُمْ خِزْيًا، فَيَطْلُبُوا اسْمَكَ يَا رَبُّ. ١٧ لِيَخْزُوا وَيَرْتَاغُوا إِلَى الْأَبَدِ، وَلِيَخْجَلُوا وَيَبِيدُوا^(٢).

وفي التناخ «العهد القديم» نصوصٌ أخرى تتحدّث عن الصراع المستدام بين الفئتين عبر القرون، بما يؤكّد الفكرة السابقة التي أشرنا إليها، والتي ستستمرّ بظهور النبي محمد ومَن آمن برسالته من العرب، ولاسيّما من ذرية إسماعيل، وبين ذرية إسحاق ويعقوب «بني إسرائيل». هكذا تترسّخ صورة هذا الصراع، حتى قال بعضهم بأنّ الله يمتحنُ كلّاً منهما بالآخر.

ولذا أقول، لربّما جاءت سورة الإسراء في بداياتها للتحدّث عن واقع هذا الصّراع

١. الجل: التبن الناعم الخفيف.

٢. الكتاب المقدس: سفر المزامير، تسيحة لأساف، ١-١٧.

الذي ما كان ينبغي له أن يحدث، ولكنها العصبية والحسد والأنانية والنصوص «المقدسة» عند اليهود والتي لم ترسم معالم العلاقة بين الفئتين سوى في صورة أمتين متصارعتين لا تلتقيان.

فآية تُبين وحدة الرسالات من خلال ما مثّله رحلة الإسراء بالنبي محمد إلى موطن أنبياء بني إسرائيل، ومن المسجد الحرام الذي أسسه الأب المشترك إبراهيم بمعية ابنه البكر إسماعيل وبما يمثّله هذا المكان المقدس من رمزية عند أمة محمد، إلى المسجد الأقصى الذي نحتل أن يكون مؤسسه الأول هو إبراهيم أيضاً، أو أنه الذي مهد لتأسيسه لاحقاً على يد رسل وأنبياء من ذريته من الفرع الإِسْحَاقِي، وبما يمثّله من رمزية عند بني إسرائيل من قبل... وهذه الوحدة الرسالية تفترض الالتقاء والتعاون والتكامل بين الأمتين المنحدرتين من الفرعين الإسماعيلي والإسحاقِي، إلّا أن هذا لم يتحقق.

وهل الخلل في من مثل الفرع الإسماعيلي، وهو النبي محمد؟ كلا... فقد سعى -بأمرٍ من الله وفي نصوص قرآنية عدّة مرّت معنا- أن يُقَرَّب ولا يُبْعَد، وأن يُوحَّد ولا يُفَرَّق، وأن يُكامل ولا يُصَادِم، إلّا أن الخلل كان في من مثل الفرع الثاني، الفرع الإِسْحَاقِي، بني إسرائيل الذين يمثّلون الثقل اليهودي، فقد منّ الله عليهم بأسباب الهداية، ومنه الكتاب المنزل على رسولهم الكريم^(١)، ولكنهم -عبر التاريخ- تمرّدوا على الله وطغوا وأفسدوا في الأرض، وكانوا خير مصداق لقوله «تعالى»: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾^(٢)، فيذيقهم الله من بأسه على أيدي بعض عباده، وكلّما تابوا رجع الله

١. كما في الآية الثانية من سورة الإسراء.

٢. سورة العلق: ٦-٧.

عليهم، وأمدهم بأسباب القوة، حتى إذا تمرّدوا طغوا وأفسدوا في الأرض، أذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا قبل الآخرة... وما داموا هكذا، بين خضوع وتمرد، فإنّ حالة الصراع مع أمة محمد ستبقى مفتوحة، لتوفّر أسبابها عندهم... ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾.

هذه هي الفكرة الثانية التي يمكن استخلاصها من ذكر خلاصة لمسيرة بني إسرائيل عبر التاريخ بعد الإشارة إلى حادثة الإسراء في هذه السّورة.

ومن لطيف ما قرأت في هذا الباب ما ذكره ابن الأثير في تاريخه، قال: (وهرب يعقوب خوفاً من أخيه إلى خاله، وكان يسري بالليل ويكمن بالنهار، فلذلك سُمّي إسرائيل)^(١)، وكأنّها إشارة إلى وجود ارتباط بين جذر كلمة الإسراء ولقب النبي يعقوب.. إسرائيل^(٢)! فيكون الانتقال من قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى...﴾ في الآية الأولى من السّورة إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ في الآية الثانية منها، انتقالاً عجباً ولافتاً بين إسرائَيْن وحدثين يفصل بينهما أكثر من ألفي سنة.

بعد هذه المقدّمة ننقل لشرح الآيات ٢-٨ من السّورة، ومن ثمّ نُعرّج على البحث في تاريخ بني إسرائيل لاكتشاف البُعد التاريخي لبعض التفاصيل الواردة في هذه الآيات، وما جاء فيها من حديثٍ عن مستقبل هؤلاء القوم الذين قُدّموا للمسلمين نموذجاً عملياً على واحدة من أخطر التّحديات التي ستواجه المسلمين في مستقبلهم.

• كتاب بني إسرائيل:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾: اختلف المفسّرون في المراد من الكتاب في هذه الآية،

١. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٩٦.

٢. مرّ معنا من قبل أن كلمة إسرائيل كلمة عبرية، وتعني: يجاهد مع الله أو المصارع مع الله. وبحسب التوراة فقد أعطي هذا اللقب للنبي يعقوب بعد أن بنى موضع عبادة ومذبح لله في بيت إيل.

فذهب قسمٌ منهم -كالعلامة الطباطبائي- إلى أنه بمعنى «ما كُتِبَ وفُرضَ على بني إسرائيل»، وليس كتاباً بعينه، قال: (مجموع الشرائع المكتوبة على الناس، القضية بينهم فيما اختلفوا فيه، من الاعتقاد والعمل، ففيه دلالة على اشتماله على الوظائف الاعتقادية والعملية التي عليهم أن يأخذوها ويتلبّسوا بها)^(١).

بينما صرح قسمٌ آخر من المفسرين -كابن عاشور- بأنّ الكتاب هو التوراة، بدليل المقابلة مع القرآن في الآية التاسعة من السورة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي للطريقة التي هي أقوم من طريقة التوراة، وإنّ كان كلاهما هدى ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(٢).

﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾: أي وقد جعل الله هذا الكتاب هدىً لبني إسرائيل. ولعلّ هذا الوصف يؤيد القول بأنّ المراد من الكتاب هو التوراة ككل، لا خصوص ما كُتِبَ على بني إسرائيل من أصول الاعتقاد والتّشريع، إذ كانت هدايتهم أيضاً من خلال ما جاء في التوراة من قصص الأنبياء، وقصة موسى، وغير ذلك من التفاصيل. ومن البديهي أن ذكر بني إسرائيل هنا لا يراد منه نفي كونه هداية لأتباع الشريعة الموسوية ممّن لا ينتمون لبني إسرائيل كذرية، ولكنّ حيث كان بنو إسرائيل هم الأساس في الرسالة الموسوية، لذا خُصّوا بالذكر.

وهنا يبرز السؤال التالي: لماذا هو هدىً لخصوص بني إسرائيل ولمن يلحق بهم من أتباع الرسالة الموسوية؟ ألا يفترض بكتاب سماويّ نازل على رسولٍ من أولي العزم أن يكون هادياً لكلّ الناس، تماماً كما هو شأن القرآن الكريم في كونه هدىً للناس؟ لا

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١٣، ص ٣٦.

٢. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٢٥.

سيما وأنّ في سورة الأنعام ما يدلّ على عموم هدايته للناس، لا لخصوص بني إسرائيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ (١).

أرجع العلامة ابن عاشور ذلك إلى كونهم المخاطبين بشريعة التوراة، دون غيرهم، ولذا كان كتاب هداية لهم لا لعموم الناس. وأنّهم هم الـ«الناس» في آية سورة الأنعام، لأنّ كلمة الناس قد تُطلق ولا يُراد بها كلّ من يصدق عليه ذلك، بل يراد بها بعضهم. ثم تراجع العلامة ابن عاشور قليلاً عن هذا التخصيص، إذ اعتبر إمكانية أن يكون هذا الكتاب هادياً لغير بني إسرائيل -أيضاً- ولكن شريطة أن لا يكونوا مخاطبين بكتاب آخر من عند الله «سبحانه» (٢).

وأما العلامة فضل الله فقد نفى دلالة الآية على اختصاص هداية الكتاب بهم، كما يفهم من ظاهرها، لأنّ الهداية من خلاله ممكنة لكلّ الناس، وأمّا سبب ذكرهم -على وجه الخصوص- فبلحاظ نزول الكتاب فيهم، إذ أنّهم الجماعة الأولى التي جاء موسى «عليه السلام» ليخلصها من ظلم فرعون، كمقدمة لتخليص الناس الآخرين من ظلمه وظلم أمثاله على أساس الشريعة، فصاروا مُنطلق حركة الرسالة وهداية الناس، لأنّه لم تكن لموسى «عليه السلام» آية فرصة أخرى في مجتمع آخر عند نزول الكتاب (٣). وبذا لا يتعارض هذا مع ما جاء في سورة الأنعام ولا يُقيده.

• توحيد الله في الربوبية:

﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾: الوكيل هو الذي تُفوض إليه أمورك، وتعتمد عليه

١. سورة الأنعام: ٩١.

٢. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٢٥.

٣. فضل الله: من وحي القرآن، ج ١٤، ص ٢٨.

في شؤونك العامة أو الخاصة، والمراد به -في الآية- الرب، لأن المؤمنين به يفوضون أمورهم إليه، ويعتمدون عليه في شؤونهم المختلفة، ويتكلمون عليه في أمور الرزق، والعافية، والخلاص من المصاعب، وتجاوز المحن والشدائد، وغير ذلك من التحديات والاحتياجات الكثيرة التي تواجه الناس في حياتهم. وإذا آمنوا بالآخرة، فوَّضوا أمورهم الآخروية إليه أيضاً، لأن بيده الحساب والثواب والعقاب وقبول التوبة والعفو والشفاعة وغير ذلك من شؤون المعاد.

ومن هنا، فإن الآية تبين أن الركيزة الأساسية في الهداية المتحققة من هذا الكتاب «التوراة» هو نهيه إياهم أن يتخذوا من دون الله أرباباً، كشأن المشركين الذين يؤمنون بالله خالقاً، ولكنهم يشركون به على مستوى الربوبية اعتقاداً وعملاً، فيجعلون معه أرباباً، يحبونهم، ويعبدونهم، ويتقربون إليهم، ويقدمون إليهم القرابين، ويدعونهم، ويطلبون شفاعتهم، وغير ذلك من شؤون الربوبية. وكل ما عداها من تفرعات الهداية تعتمد على هذه الركيزة الإيمانية والعملية.

وكما أنها -توراتياً- الركيزة الأساسية في الهداية، لذا فهي كذلك في كل الكتب المنزلة على الرسل، وفي رسالاتهم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾^(١). ونجد في التوراة الحاضرة ما يدل على ذلك في النصوص التالية:

في بداية ما يُعرف بعنوان الوصايا العشر: (١) ثُمَّ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ قَائِلاً: ٢ أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضٍ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. ٣ لَا يَكُنْ لَكَ

آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. ٤ لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْنَالًا مَنُحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ. ٥ لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدُهُنَّ، لِأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَهَ غَيْرٍ^(١).

وتكرّرت هذه الوصايا في سفر التثنية: (١) وَدَعَا مُوسَى جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمْ: «اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلَ الْفَرَائِضَ وَالْأَحْكَامَ الَّتِي أَتَكَلَّمُ بِهَا فِي مَسَامِعِكُمْ الْيَوْمَ، وَتَعَلَّمُوهَا وَاحْتَرِزُوا لِتَعْمَلُوهَا. ٢ الرَّبُّ إِلَهُنَا قَطَعَ مَعَنَا عَهْدًا فِي حُورِيبَ ٥ فَقَالَ: ٦ أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. ٧ لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. ٨ لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْنَالًا مَنُحُوتًا صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَسْفَلُ وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ. ٩ لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدُهُنَّ، لِأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَهَ غَيْرٍ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الْآبَاءِ فِي الْأَبْنَاءِ وَفِي الْحِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنَ الَّذِينَ يُبْغِضُونِي^(٢).

وتقرّرت عقوبة القتل بحق المرتد: (٢) إِذَا وُجِدَ فِي وَسْطِكَ فِي أَحَدِ أَبْوَابِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً يَفْعَلُ شَرًّا فِي عَيْنِي الرَّبِّ إِلَهُكَ بِتَجَاوُزِ عَهْدِهِ، ٣ وَيَذْهَبُ وَيَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى وَيَسْجُدُ لَهَا، أَوْ لِلشَّمْسِ أَوْ لِلْقَمَرِ أَوْ لِكُلِّ مِنْ جُنْدِ السَّمَاءِ، الشَّيْءَ الَّذِي لَمْ أَوْصِ بِهِ، ٤ وَأُخْبِرْتَ وَسَمِعْتَ وَفَحَصْتَ جَيِّدًا وَإِذَا الْأَمْرُ صَحِيحٌ أَكِيدُ. قَدْ عَمِلَ ذَلِكَ الرَّجُلُ فِي إِسْرَائِيلَ، ٥ فَأَخْرِجْ ذَلِكَ الرَّجُلَ أَوْ تِلْكَ الْمَرْأَةَ، الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ الْأَمْرَ الشَّرِيرَ إِلَى أَبْوَابِكَ، الرَّجُلَ أَوْ الْمَرْأَةَ، وَارْجُمْهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ^(٣).

١. الكتاب المقدس، سفر الخروج، الإصحاح ٢٠، ١-٥.

٢. الكتاب المقدس، سفر التثنية، الإصحاح ٥، ١-٩.

٣. الكتاب المقدس، سفر التثنية، الإصحاح ١٧، ٢-٥.

ونجد في القرآن الكريم إشارة إلى توكل النبي يعقوب على الله: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾^(١)، مما قد يُرشد إلى أنَّ إطلاق صفة الوكيل على الرب، وعنوان التوكل على الله، كان حاضراً في كلمات بني إسرائيل انطلاقاً من كلمات أبيهم يعقوب «= إسرائيل».

• ذرية نوح وإبراهيم:

﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: في القرآن الكريم إشارة -إجمالية- لنسب بني إسرائيل، وهذه واحدة من الآيات التي أشارت إلى ذلك، إذ أرجعت نسبهم إلى مَنْ حُمِلُوا في الفُلك مع نوح «عليه السلام».

وفي سورة الأنعام إشارة أخرى إذ قال «سبحانه»: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٩٠﴾﴾^(٢).

وقد اختلف المفسرون في الضمير الموجود في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ هل تعود إلى إبراهيم، أم إلى نوح، فقد كان مبتدأ الكلام حول إبراهيم «عليه السلام»، ثم صار الكلام عن

١. سورة يوسف: ٦٦-٦٧.

٢. سورة الأنعام: ٧٣-٧٨.

نوح «عليه السلام»، والأرجح أن الضمير يعود إلى الأقرب في ترتيب الكلام، أي نوح، ويؤكد ذلك ذكر لوط «عليه السلام» في نهاية القائمة، ولوط -على الأقل- ليس من ذرية إبراهيم^(١)، كما ويحتمل أن لا يكون أيوب كذلك، مما يعني أن الضمير يعود إلى نوح، وأن أنبياء بني إسرائيل، يوسف، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان... إلخ هم من ذرية نوح، وحيث نعلم أن بني إسرائيل هم ذرية يعقوب، ويعقوب وإسحاق من ذرية إبراهيم^(٢) كما أشير إلى ذلك في نفس السورة، وفي قوله: ﴿وإبراهيم إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْفِقُوا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١٦) ... وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١٧)، لذا فإن إبراهيم من ذرية نوح.

وهكذا نجد ما يؤكد ذلك في سورة مريم: ﴿ذَكَرْ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾^(٢٠) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا^(٢١) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتُ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا^(٢٢) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ^(٢٣) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا^(٢٤) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا^(٢٥) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا^(٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا^(٢٧) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا^(٢٨) وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا^(٢٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ

١. حول العلاقة النسبية بين إبراهيم ولوط انظر كتابي: (أبوالأنبياء).

٢. بل نعلم من مصادر عديدة أن يعقوب ابن إسحاق، وإسحاق ابن إبراهيم على وجه التحديد، وإن لم يصرح القرآن بذلك.

٣. سورة العنكبوت: ١٦-٢٧.

نُوحٌ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ (١).

قال الفخر الرازي: (و﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من لدن زكريا إلى إدريس، ثم جمعهم في كونهم من ذرية آدم، ثم خص بعضهم بأنه من ذرية من حمل مع نوح، والذي يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس «عليه السلام»، فقد كان سابقاً على نوح على ما ثبت في الأخبار، والذين هم من ذرية من حمل مع نوح هو إبراهيم «عليه السلام»، لأنه من ولد سام بن نوح، وإسماعيل وإسحق ويعقوب من ذرية إبراهيم، ثم خص بعضهم بأنهم من ولد إسرائيل، أي يعقوب، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى من قبل الأم، فرتب الله «سبحانه وتعالى» أحوال الأنبياء «عليهم السلام» الذين ذكرهم على هذا الترتيب، منبهاً بذلك على أنهم كما فضّلوا بأعمالهم، فلهم مزيد في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء (٢).

وهذا يعني أن قوله: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ذرية أولاد نوح التاجين من الطوفان، دون ولده الذي كفر وتمرد والذي: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٣)، مما يعني أن بني إسرائيل من ذرية نوح «عليه السلام».

ويؤكد ذلك قوله «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَخَجَّنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٤).

١. سورة مريم: ٢ - ٥٨.

٢. الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، ج ٥، ص ٥٥١.

٣. سورة هود: ٤٣.

٤. سورة الصافات: ٧٥-٧٨.

وفي السردية التوراتية، جاء انتساب بني إسرائيل إلى نوح كالتالي: (٢٨) وَعَاشَ لَامَكُ مِئَةً وَاثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ ابْنًا. ٢٩ وَدَعَا اسْمَهُ نُوحًا، قَائِلًا: «هَذَا يُعَزِّينَا عَنْ عَمَلِنَا وَتَعْبِ أَيْدِينَا مِنْ قَبْلِ الْأَرْضِ الَّتِي لَعَنَهَا الرَّبُّ». ٣٠ وَعَاشَ لَامَكُ بَعْدَ مَا وَلَدَ نُوحًا خَمْسَ مِئَةٍ وَخَمْسًا وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ بَنَيْنِ وَبَنَاتٍ.... ٣٢ وَوَلَدَ نُوحٌ: سَامًا، وَحَامًا، وَيَافَثَ....^(١).

(٦) وَلَمَّا كَانَ نُوحٌ ابْنٌ سِتٍّ مِئَةٍ سَنَةٍ صَارَ طُوفَانُ الْمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ، ٧ فَدَخَلَ نُوحٌ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ إِلَى الْفُلْكِ مِنْ وَجْهِ مِيَاهِ الطُّوفَانِ... ٢٣ فَمَحَا اللَّهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ: النَّاسَ، وَالْبَهَائِمَ، وَالذَّبَابَاتِ، وَطُيُورَ السَّمَاءِ. فَانْمَحَتْ مِنَ الْأَرْضِ. وَتَبَقِيَ نُوحٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ فَقَطْ....^(٢).

(١) وَبَارَكَ اللَّهُ نُوحًا وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: «اثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلَأُوا الْأَرْضَ..... ١٨ وَكَانَ بَنُو نُوحٍ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْفُلْكِ سَامًا وَحَامًا وَيَافَثَ. وَحَامٌ هُوَ أَبُو كَنْعَانَ. ١٩ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ تَشَعَّبَتْ كُلُّ الْأَرْضِ»^(٣).

(١٠) هَذِهِ مَوَالِيدُ سَامٍ: لَمَّا كَانَ سَامٌ ابْنٌ مِئَةٍ سَنَةٍ وَلَدَ أَرْفَكْشَادَ، بَعْدَ الطُّوفَانِ بِسَنَتَيْنِ.... ١٢ وَعَاشَ أَرْفَكْشَادُ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ شَالَحَ.... ١٤ وَعَاشَ شَالَحُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ عَابِرَ.... ١٦ وَعَاشَ عَابِرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ فَالَجَ... ١٨ وَعَاشَ فَالَجُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ رَعُو.... ٢٠ وَعَاشَ رَعُو اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ سَرُوجَ.... ٢٢ وَعَاشَ سَرُوجُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ نَاخُورَ.... ٢٤ وَعَاشَ نَاخُورُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَوَلَدَ تَارَحَ.... ٢٦

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٥، ٢٨-٣٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٧، ٦-٢٣.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٩، ١-١٩.

وَعَاشَ تَارِحُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ أَبْرَامَ^(١) وَنَاحُورَ وَهَارَانَ ٢٧..... وَوَلَدَ هَارَانُ لُوطًا^(٢).

(٢) فَحَبَلْتُ سَارَةَ وَوَلَدْتُ لِإِبْرَاهِيمَ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِي، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكَلَّمَ اللَّهُ عَنْهُ. ٣ وَدَعَا إِبْرَاهِيمُ اسْمَ ابْنِهِ الْمَوْلُودِ لَهُ، الَّذِي وَلَدَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحَاقَ»^(٣).

(١٩) وَهَذِهِ مَوَالِيدُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: وَلَدَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ. ٢٠ وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمَّا اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً... ٢٤ فَلَمَّا كُمِلَتْ أَيَّامُهَا لَتَلَدَ إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوَّامَانِ. ٢٥ فَخَرَجَ الْأَوَّلُ أَحْمَرَ، كُلُّهُ كَفَرَوَةٍ شَعْرٍ، فَدَعَوْا اسْمَهُ «عِيسُو». ٢٦ وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو، فَدُعِيَ اسْمُهُ «يَعْقُوبَ»^(٤).

وبذا تكون سلسلة نسب يعقوب «إسرائيل» إلى نوح -بحسب التوراة الحاضرة- كالتالي: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رغو بن فالج ابن عابر بن شالح بن أرفكشاد بن سام بن نوح.

وتستمرّ التوراة في هذا النسب إلى آدم «عليه السلام»، إلا أن هذا خارج عن بحثنا. إذاً -بحسب التوراة- فإنّ بين بني إسرائيل والنبي نوح ١٢ أباً.

هذا وقد أثير -مؤخراً- احتمالية أنّ إسرائيل ليس بـيعقوب، وأنّ إسرائيل وبني إسرائيل من ذرية قابيل، وأنّ قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ وليس ذرية نوح للإشارة إلى ذلك، وأنّ القرآن يذكر يعقوب باسم يعقوب، ولا يذكره باسم إسرائيل. ولذا فقد صدر عن بني إسرائيل ما صدر من جرائم، كجدهم قابيل -بحسب الادعاء-

١. أي النبي إبراهيم، وبحسب التوراة، هذا اسمه الذي عُرف به إلى أن غيره الله إلى إبراهيم.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ١١، ١٠-٢٧.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٢١، ٢-٣.

٤. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ٢٥، ١٩-٢٦.

ويؤيد ذلك أن الله «تعالى» بعد أن ذكر جريمة قابيل: ﴿وَأَنزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾^(١) وقد عَقَلَ أصحابُ هذا الرأي أنهم بذلك يطعنون في كل الرسل والأنبياء من بني إسرائيل ممن ذُكروا في سورة مريم كما مر معنا، ومن غيرهم ممن لم يذكرهم القرآن، ومنهم موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى «عليهم السلام» إذ نسبوهم إلى قابيل، وإذ نفوا انتسابهم إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، كما أنَّ أصحاب هذا الرأي لم يأخذوا في الحسبان كل النقاط التي ذكرناها خلال هذا البحث مما جاءت به الآيات الشريفة حول العلاقة النسبية بين هؤلاء الرسل وبين نوح وإبراهيم.

ثم هل يذكر الله «إسرائيل» بمعينة خليفه إبراهيم في سلسلة الأنبياء المجتبيين المنعم عليهم في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾^(٢) في حين أنه -بحسب مدعاهم- مذموم، وذريته مذمومة، وأنهم من نسل قابيل القاتل المجرم المذموم في كتاب الله وفي التوراة؟

وأما قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾

١. سورة المائدة: ٢٧-٣٢.

٢. سورة مريم: ٥٨.

بعد ذكر قصة ابني آدم فلا دليل فيه على أنهم من ذرية الولد القاتل، بل جاء ذلك لموضع الاعتبار والتحذير من مغبة التساهل بشأن الدماء قتلاً وعدواناً، وتحذيراً لهم من الوقوع في هذه الجريمة والخطيئة العظيمة، وقد أخذ الله منهم العهود والمواثيق بعدم تجاوز ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ... ﴿٨٥﴾﴾^(١).

ولكنهم لم يلتزموا، بل وبلغت بهم الجرأة أن قتلوا رسلهم وأنبيائهم، كما سعوا لقتل المسيح: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾^(٢).

ثم هل من يمكن تعقل أن لا يصدر أي بيان في الأحاديث أو الأخبار أو في الكتب التفسيرية أو غيرها من كتب التراث الإسلامية ما ينكر انتسابهم لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولا تشير من قريب ولا بعيد لانتسابهم إلى قابيل؟ بل وتقوم كل هذه الكتب بتأكيد انتسابهم إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم دون أدنى شك ولا ترديد؟ والخلاصة أن نفي انتساب بني إسرائيل لنوح وإبراهيم ويعقوب لا يقوم على دليل واضح، ولا أساس متين، وأن القرآن لا يخالف حقيقة أنهم من ذرية يعقوب.

١. سورة البقرة: ٨٤-٨٥.

٢. سورة النساء: ١٥٥-١٥٨.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝﴾: أي أنزلنا على موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل لأنهم ذرية من حملنا مع نوح، وقد كان نوح عبداً شكوراً، فاستحقّ التقدير والجزاء الإلهي المعجل في الدنيا، كما استحقّ التقدير والجزاء العظيم في الآخرة.

ويُستدل من القرآن الكريم أنّ جعل النبوة والرسالة في ذرية نوح تارة، وفي ذرية إبراهيم تارة أخرى كان لجهة التكريم الديني لهذين النبيين:

١. ﴿وإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝... وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝﴾^(١). وذلك بملاحظة جملة ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ التي جاءت بعد قوله ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

٢. ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝... وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾^(٢). فقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ... وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ وربط ذلك بقوله ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يدل على أنه جزء أو كل الأجر الديني الذي مرّ ذكره في سورة العنكبوت.

٣. ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝... وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي

١. سورة العنكبوت: ١٦-٢٧.

٢. سورة الأنعام: ٨٣-٨٧.

قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾^(١). مجدداً يبرز ذكر الذرية في ضمن الحديث عن الدور الرسالي الذي نهض به إبراهيم «عليه السلام»، وبعد سلسلة الابتلاءات والاختبارات الإلهية التي عبّر عنها في الآية بقوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ ونجاحه في اجتيازها ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، فجاءت المكافأة الإلهية أولاً لإبراهيم وحده: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ والإمامة تمثل المسؤولية المناطة به من قبل الله «تعالى» ليكون «عليه السلام» هو القائد والقدوة والهادي للناس من موقع النبوة والرسالة وحمل الكتاب. إلا أن الخليل إبراهيم «عليه السلام» تطّلع إلى ما هو أكثر من ذلك، إذ رغب في أن يكون لهذه المكافأة الإلهية الدنيوية استمرار وامتداد عبر الزمن من خلال منح الإمامة لذريته، فكان له ذلك، على أن تكون خاصة بمن يستحقها، فجاءه الجواب من عند الله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾، فليس كل من ينتسب إليه يستحق ذلك تلقائياً، إذ كان منهم الظالمون ومنهم المحسنون: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١٢٣﴾﴾^(٢)، وامتداد هذه الإمامة في الذرية الصالحة المنتسبة لإبراهيم «عليه السلام» نعمة عظيمة ومميّزة، أنعم الله بها عليه، وعلى ذريته من بني يعقوب «إسرائيل».

٤. ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾^(٣)، فالمراد بالترك الإبقاء، وقد ذُكرت هذه الجملة بعد ذكر إبراهيم «عليه السلام» أيضاً في هذه السورة: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ

١. سورة البقرة: ١٢٢-١٢٤.

٢. سورة الصافات: ١١٢-١١٣.

٣. سورة الصافات: ٧٥-٨٠.

إِبْرَاهِيمَ ﴿١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾^(١)، وبضميمة ما في سورة الشعراء: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ ... رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾^(٢)، أي أن يبعث الله «تعالى» بعده من يحمل الرسالة ويدعو إلى ملة التوحيد، يتبين لنا أنّ المراد بالإبقاء في الآخرين هو استمرار دعوة نوح «عليه السلام» ودعوة إبراهيم «عليه السلام» إلى التوحيد في الأجيال والعصور القادمة من خلال ذريتهما، فيكون منهم الأنبياء والرسل وحملة الكتاب، وهو تأكيد مجدّد على أنّ ذلك نحواً من التقدير والمكافأة الإلهية المعجلة لهذين النبيين الكريمين في الدنيا، ولذا قال: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١﴾﴾.

٥. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦١﴾﴾^(٣)، وهذه الآية لم تُشر إلى السبب في جعل النبوة والكتاب في ذرية نوح وإبراهيم، ولكن يمكن معرفة السبب بضميمة الآيات السابقة.

٦. ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾^(٤)، ومن الواضح أنّ هذا الاصطفاء للأفراد وذريّاتهم يتعلّق بالإطار الإيماني والرسالي.

٧. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٥٩﴾﴾ وكأن الآية ٤٩ إشارة إلى أنّ الله «سبحانه» كافأ إبراهيم بأن وهبه إسحاق ويعقوب وجعل النبوة ممتدة من خلاهما،

١. سورة الصافات: ١٠٨-١١.

٢. سورة الشعراء: ٦٩-٨٤.

٣. سورة الحديد: ٢٦.

٤. سورة آل عمران: ٣٣-٣٤.

وذلك نتيجة المقام الذي حاز عليه إبراهيم «عليه السلام» والجهود والتضحيات التي بذلها في طريق الرسالة، ثم زاده بامتداد ذلك في ذريتهما ولم يتوقف الأمر عندهما ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِّسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾ ومن هؤلاء: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ٥١﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٢﴾ ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ٥٣﴾ أولئك الذين أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ٥٤﴾^(١).

ويُلاحظ في الآيات التأكيد على فكرة الذرية، ودورها في الاجتناء، وتحميلهم المسؤولية الرسالية، على أن تكون من الذرية المهتدية حق الهداية والمخلصة في عبوديتها لله «سبحانه».

وأما قوله ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ فقد اختلف المفسرون في كونهما صفتين للنبيين أو إشارة إلى غيرهم؟

اعتبر الفخر الرازي أنَّ الصفتين للنبيين المذكورين في السورة، قال: (فرتَّب الله «سبحانه وتعالى» أحوال الأنبياء «عليهم السلام» الذين ذكرهم على هذا الترتيب، منبِّهاً بذلك على أنَّهم كما فُضِّلوا بأعمالهم، فلهم مزيد في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء، ثم بيَّن أنهم ممَّن هدينا واجتبتينا، منبِّهاً بذلك على أنَّهم اختُصُّوا بهذه المنازل لهداية الله «تعالى» لهم، ولأنه اختارهم للرسالة)^(٢).

وعرَّض الألوسي رأيين، وخطأ الثاني منهما، قال: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ عَظَفَ

١. سورة مريم: ٤١-٥٨.

٢. الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج ٧، ص ٢١٦.

على قوله «تعالى»: ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ وَمِنْ للتبعيض أي، وَمِنْ جملة مَنْ هديناهم إلى الحق واخترناهم للنبوّة والكرامة. وَجُوزَ أن يكون عطفاً على قوله «سبحانه»: ﴿مَنْ النَّبِيِّينَ﴾، وَمِنْ للبيان، وأوردَ عليه أن ظاهر العطف المغايرة، فيحتاج إلى أن يقال: المراد مَنْ جمعنا له بين النبوة والهداية والاجتباء للكرامة، وهو خلاف الظاهر^(١).

بينما قال العلامة الطباطبائي في تفسيره: ﴿وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ معطوف على قوله: ﴿مَنْ النَّبِيِّينَ﴾، وهؤلاء غير النبيين من الذين أنعم الله عليهم. فَإِنَّ هذه النعمة غير خاصة بالنبيين ولا منحصرة فيهم بدليل قوله «تعالى»: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾^(٢)، وقد ذكر الله «سبحانه» بين مَنْ قَصَّ قصته مريم «عليها السلام» مُعْتَبِئاً بها إذ قال: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وليست من النبيين، فالمراد بقوله: ﴿وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ غير النبيين، من الصديقين والشهداء والصالحين لا محالة، وكانت مريم من الصديقين لقوله «تعالى»: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾^(٣). وهي التفاتة دقيقة وفي محلها.

• القضاء الإلهي بحق بني إسرائيل:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ قال ابن فارس: (القاف والضاد والحرف المعتل: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إحكام أمرٍ وإتقانه وإنفاذه لجهته، قال الله «تعالى»: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(٤) أي أحكم خلقهن.... والقضاء الحُكم. قال

١. الألوسي: روح البيان، ج ٦، ص ٤٢٥.

٢. سورة النساء: ٦٩.

٣. الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ١٤، ص ٧٥. والآية الأخير من سورة المائدة: ٧٥.

٤. سورة فصلت: ١٢.

الله «سبحانه» في ذكر مَنْ قال: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾^(١) أي اصنع واحكم، ولذلك سُمِّي القاضي قاضياً، لأنه يحكم الأحكام وينفذها. وَسُمِّيَتِ المنيّة قضاءً لأنه أمر يُنْقَذُ في ابن آدم وغيره من الخلق... وكلّ كلمة في الباب فإنها تجري على القياس الذي ذكرناه^(٢).

وهنا نقطة مهمّة سنستفيد منها لاحقاً عند البحث حول تطبيق الأحداث المذكورة في الآيات مع الأحداث التي مرّ بها بنو إسرائيل عبر التاريخ، وهي أنّ تعديّة الفعل «قضى» بجرف الجَرِّ «إلى» يفيد معنى الإبلاغ، وهذا الإبلاغ مذكور في «الكتاب». وبذا يكون المراد من قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أنّ الله «سبحانه» أبلغ بني إسرائيل في «الكتاب» أنّه قد حكم حُكماً نافذاً وأكيداً ولا رجعة فيه مفاده: ﴿لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾^(٣) إلخ الآيات.

• هل كانوا عباداً مؤمنين؟

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾^(٤). الوعد هنا إشارة إلى الزمان المقدّر لوقوع الكارثة الأولى بحق بني إسرائيل، و ﴿أُولَاهُمَا﴾ أي المرّة الأولى من الإفساد والعلوّ المذكورين في قوله: ﴿لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾^(٥).

وقد فهم بعض المفسّرين من جملة ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ أنّ الجيش الذي ستتحقّق الكارثة على يديه هو جيش من الموحدّين المؤمنين بالله «تعالى»، وقد أمرهم بالخروج لأداء هذه المهمّة الجهادية، فخرجوا مؤتمّرين بأمر الله ومطيعين له، لاسيما

١. سورة طه: ٧٢.

٢. ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٩٩ - ١٠٠.

بلحاظ استعمال عبارة ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ التي استدلّوا بها -أيضاً- على إيمان قادة وأفراد هذا الجيش. بينما ارتأى آخرون أنّ هذا الجيش الغازي لم يكن جيشاً من القادة والأفراد المؤمنين الموحدّين، إلا أنّ الله «تعالى» أمر أحد أنبيائه بالتحريض على غزو بني إسرائيل وقتلهم وإلحاق الأذى بهم، ولذا صحّ أن يكون بعثاً إلهياً كما جاء في الآية ﴿بَعَثْنَا﴾، وكان هذا التحريض جزءاً من العقوبة الإلهية بحقهم.

وفي حين وافق العلامة الطباطبائي على كون هذا الغزو -وما جرى فيه من قتل ذريع وأسر والسبي ونهب وتخريب- بعثاً إلهياً، لأنه كان على سبيل المجازاة على الإفساد في الأرض والعلوّ والبغي، وأنّ الله لم يظلمهم بذلك، إذ كانوا هم الظالمين لأنفسهم... إلا أنه لم يجد لزوماً لعدمهم من المؤمنين، إذ لا مانع من نسبة البعث إليهم بالمعنى المذكور آنفاً، ومن عدّهم عباداً لله وهم كفار^(١).

وهكذا اعتبر العلامة ابن عاشور -وحسناً فعل- أنّ البعث في الآية بعثٌ تكويني وتسخيري، لا بعثٌ بوحى وأمر، أي أنّ الله «سبحانه» هيأ وسخر الأسباب لتحقيق هذا الغزو إلى حدّ صار فيه بمثابة الأمر بالمسير إليهم. ولا دلالة في عبارة ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ على أنّهم كانوا من المؤمنين، فالمراد بذلك وصفهم بأنهم مملوكون لله، فهو خالقهم^(٢).

وفي تعدية الفعل ﴿بَعَثْنَا﴾ بحرف الجرّ «على» المتضمّن معنى الاستعلاء دلالة على أنّ مآلات ونتائج بعث هذا الجيش هو التسلّط على بني إسرائيل، ولا يقتصر الأمر على مجرّد التغلّب عليهم في معركة، على خلاف الوضع في معركة أُحُد التي جرت في السنة الثالثة للهجرة على سبيل المثال، إذ انتهت المواجهة لصالح المشركين، وكانت الغلبة

١. انظر تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٣٩-٤٠.

٢. انظر تفسير التحرير والتنوير، ج ١٦، ص ٣٠.

لهم، ولكن لم يتحقق لهم الاستعلاء، لأنهم بعد الانتهاء من المعركة لم يغزوا المدينة ولم يسيطروا عليها، ولم يأسروا ولم يستعبدوا أحداً من المسلمين، فبهذا لم يتحقق هم الاستعلاء على المؤمنين، وقد قال «تعالى»: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١). فالاستعلاء لا يتحقق -بالضرورة- مع كل انتصار في المعركة.

﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ البأس: الشوكة والشدة في الحرب، ووصفُ البأس بالشديد للدلالة على عظمه.

﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾: قال ابن فارس: [جَوَسَ]: الجيم والواو والسين أصل واحد، وهو تخلل الشيء، يُقال: جاسوا خلال الديار يجوسون. قال الله «تعالى»: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ (٢). فهؤلاء المقاتلون سيلاحقون بني إسرائيل ويتتبعونهم في عُقر دارهم، ليتمكنوا من القضاء على أكبر عدد ممكن منهم، أو أسرهم واستعبادهم.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾: حتمياً، سيتحقق تماماً كما أخبرهم به الله «تعالى» وحذرهم من وقوعه.

• ما بعد الوعد الأول:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الحرف «ثُمَّ» يُفيد التراخي، أي أنّ هذا الحدث سيعقب ما تمّ بيانه في الآية السابقة، ولكن بعد حين، وليس بصورة مباشرة وسريعة. والكرّة بمعنى الرجعة، أي أنّ الأوضاع ستنقلب -لاحقاً- رأساً على عقب، إذ ستكون الغلبة وموازن القوة لصالح بني إسرائيل على نفس ذلك العدو الذي غزاهم وقهرهم من قبل.

١. سورة آل عمران: ١٣٩.

٢. ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص ٤٩٥.

﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ﴾ النفير: اسمُ جمع^(١) للجماعة التي تنفر مع المرء من قومه وعشيرته. والمراد بذلك بيان أحوال بني إسرائيل في المرحلة اللاحقة، والتي ستكون من أسباب غلبتهم على ذلك العدو، إذ سيتخلّصون من سيطرتهم، بل وستعود إليهم قوتهم من حيث العدد والإمكانات المادية والعسكرية واللوجستية الكبيرة.

• تحذير ووعيد:

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾: فأنتم من ستجنون النتائج وتتأثرون بها، إيجابية كانت أم سلبية.

وحيث كانت الأمم معرضة للطغيان والفساد والظلم عند امتلاك أسباب القوة والمنعة بشهادة قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْغَىٰ ۚ أَن رَّاهُ اسْتَغْنَىٰ ۚ﴾^(٢) لذا حذر الله بني إسرائيل من الطغيان نتيجة تبدل أوضاعهم، وازدياد عددهم، وتضخم إمكاناتهم المادية والعسكرية واللوجستية.

فإن هم حافظوا على إيمانهم وتقواهم وأحسنوا العمل ووظفوا تلك الطاقات والإمكانات في ما يرضي الله، ترتبت النتائج الإيجابية لصالحهم، وحصدوا ثمار ذلك بما هو خير لهم في الدنيا والآخرة، وأمّا إن هم عادوا للشرك وإساءة استغلال وتوظيف

١. في اللغة العربية يوجد جمع من قبيل كتاب وكتب، مدرسة ومدارس، ويوجد اسم جمع، من قبيل نساء وقوم. والفرق بينهما أن للجمع مفرد من لفظه، وأمّا اسم الجمع فليس له مفرد من لفظه، إذ ليس لكلمة نساء مفرد من نفس اللفظ، بل من لفظ آخر، وهو امرأة. وقيل أن نفير جمع مفردة (نفر) وليس اسم جمع.

٢. سورة العلق: ٦-٧.

تلك التَّعَم، فسيذوقون وبال أمرهم عاجلاً وآجلاً. بل وستكون نعمة الله عليهم - هذه المرّة - أشدّ وأكبر وأكثر امتداداً وتأثيراً.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾: أي إذا حان الوقت المقدّر لوقوع الكارثة الثانية بحقهم، نتيجة الإفساد والعلو الثاني المشار إليه في قوله: ﴿لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿لَيَسُوْؤُوا وُجُوْهُكُمْ﴾: إساءة وجوههم بمعنى ظهور الحزن والكآبة وآثار الذلة والمسكنة وصغار الاستعباد عليها نتيجة ما سيتركّب فيهم من القتل الذريع والسبي والنهب والتدمير والحرق وغير ذلك من صور المهانة والعذاب. والمعنى: فإذا جاء وعد الآخرة بعثنا عليكم عباداً لنا، وعلة هذا البعث هو أن يسوؤوا وجوهكم.... إلخ.

﴿وَلَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: وهذا دليل على أنّ الكلام يتعلّق بنفس القوم الذين غزوا ديار بني إسرائيل أوّل مرة، فجاسوا خلاها، واستعلوا عليهم، وأفشوا فيهم القتل والسبي، ودمّروا ممتلكاتهم. خاصة بضميمة قوله فيما سبق: ﴿رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾. وهذا لا يعني - بالضرورة - أنّ نفس الملك أو نفس الأفراد هم من سيغزونهم مجدّداً، وهم من سيدخلون المسجد مرّة أخرى، بل إشارة إلى وقوع الغزو من نفس القومية أو الملة أو القاطنين في منطقة جغرافية محدّدة، خصوصاً وأنّ تبدل الأوضاع بالصورة التي ذكرت في الآيات يحتاج إلى وقت طويل نسبياً.

والمسجد هو مسجد بيت المقدس، أي المسجد الأقصى (= هيكّل سليمان)، فقد دخلوه من قبل، وأفسدوا فيه، ودمّروه بشكل جزئي، وسيدخلونه مجدّداً ولكنهم - هذه المرّة - سيدمّرونه بشكل تام، ويحرقونه.

﴿وَلِيَتَّبِعُوا مَا عَلَّمُوا تَتَبِيرًا ۝﴾: التتبير يعني الإهلاك، وهذه هي العلة الثالثة المذكورة في الآية لبعث هؤلاء الغزاة. والإهلاك للنفوس يكون بقتلها، أو بما يُشبه القتل، كالسبي وإلحاق الأذى الجسدي البليغ والنفي وأمثال ذلك، بينما الإهلاك للممتلكات والبيوت والمصانع والمزارع والمحاصيل وغير ذلك، فيكون بالتدمير والإحراق والنهب والسلب. فهؤلاء الغزاة سيقومون بذلك بحق كل نفس أو شيء يتمكنون منه ويستولون عليه، وذلك بدلالة قوله: ﴿مَا عَلَّمُوا﴾، وهو العلو المجازي، أي الاستيلاء والغلبة.

وهل هذه هي النهاية المكتوبة لبني إسرائيل في هذه الحياة وختام حركتهم في التاريخ، ولن يخرجوا من حالة العبودية والذل والاستعباد والتشتت وزوال مملكتهم ومركز عبادتهم في بيت المقدس؟ كلا.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فالأمل موجود بأن يُعطوا فرصة مجددة، ليعودوا إلى الله ويتوبوا ويصلحوا أوضاعهم ولا يُكرّروا التجارب السلبية السابقة، ومع هذا الأمل، ستبقى سنة الله حاکمة على حركتهم: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ فإن أفسدوا وطغوا من جديد، فلن يختلف مصيرهم عن المرتين السابقتين على مستوى الأنفس والممتلكات ومركز عبادتهم في بيت المقدس: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝﴾ يُحصرون فيها.

• تطبيق الآيات وتأويلها:

وقع الخلاف بين المفسرين في تأويل الآيات السابقة، وخلاصة الأقوال كالآتي:

١. تحقّق الوعيدان في زمن سابق، إذ تمثّل الوعيد الأول في ما يُعرف بالسبي البابلي على يد الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني، وذلك في الربع الأول من القرن السادس قبل الميلاد، وتمثّل الوعيد الثاني في ما جرى على يد البيزنطيين سنة ٧٠ م نتيجة طغيانهم

وإفسادهم في الأرض، ولكفرهم بالمسيح ورسالته، ومحاولتهم قتله صلباً.

وممن رأى ذلك الطباطبائي وابن عاشور وآخرون، قال الأول: (والذي يظهر من تاريخ اليهود أن المبعوث أولاً لتخريب بيت المقدس هو بخت نصر وبقي خراباً سبعين سنة، والمبعوث ثانياً هو قيصر الروم «اسبانوس»^(١)، سَرَّ إليهم وزيره «طوطوز»^(٢) فخرَّب البيت^(٣)، وأذلَّ القوم، قبل الميلاد بقرن تقريباً^(٤). وليس من البعيد أن يكون الحادثتان هما المرادتان في الآيات).

ثم أثار إشكالاً على هذا التأويل إذ قال: (ولا يُبْعِدُهُ الا ما تقدّمت الإشارة إليه في تفسير الآيات أنّ فيها إشعاراً بأنّ المبعوث إلى بني إسرائيل في المرّة الأولى والثانية قوم بأعيانهم، وأنّ قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ مُشْعَرٌ بأنّ الكرّة من بني إسرائيل على القوم المبعوثين عليهم أولاً، وأنّ قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ مُشْعَرٌ برجوع ضمير الجمع إلى ما تقدم من قوله: ﴿عِبَادًا لَنَا﴾).

١. اسبانيوس: طيطوس قَلَا فيُّوس قَيْصَرِ إِسْفَسِيَانُوسِ أَغْسُطُس، ويُعرف كذلك باسم اسمائوس وفِسْبِسِيَانُوسِ وَأَسْبَسِيَانُوسِ وَأَشْبِيشِيَانِ (ت ٧٩م) تاسع أباطرة الروم، ملك عشر سنين (٦٩ - ٧٩م). وخلفه ابنه (طيطوس = طوطوز).

٢. طوطوز: طيطوس قَلَا فيُّوس سَابِيْنُوسِ إِسْفَسِيَانُوسِ أَوْ طَاطِرِيُّ بْنُ اسْمَائُوسِ (باللاتينية: Titus Flavius Vespasianus) المعروف إيجازاً باسم طيطوس أو طيطس (ت ٨١ م)، كان الإمبراطور الروماني العاشر الذي ساد بإيجاز (٢٤ يونيو ٧٩ م - ١٣ سبتمبر ٨١ م). وقبل ذلك، اكتسب طيطوس شهرة كقائد عسكري، وخدم تحت قيادة والده في (مملكة يهودا) خلال الحرب اليهودية الرومانية الأولى. في عام ٧٠، حاصر القدس واستولى عليها، ودمّر المدينة والهيكل الثاني.

٣. أي بيت العبادة: هيكل سليمان.

٤. لا بد من وجود خطأ في البين، فإما أن الكلمة هي (بعد) وليست (قبل)، والخطأ وقع سهواً من المصنف أو الناسخ، لأن الشخصيتين والأحداث جرت بعد ميلاد المسيح بسبعين سنة، وإما أن يكون العلامة قد وقع في خطأ تاريخي.

وردّ على هذا الإشكال باحتمال دخول طرف ثالث في الصراع، فينتفع بنو إسرائيل من ضعف العدو الأول، ويكون ضمير الجمع في قوله ﴿لَيْسُوؤُوا وَجُوهَكُمْ﴾ عائداً إلى هذا الطرف الثالث، فلا يكون المبعوثون ثانياً هم المبعوثين أولاً، ويصحّ القول -حينئذ- بأنّ العدو في المرّة الأولى هم الكلدانيون، وفي المرّة الثانية هم البيزنطيون^(١).

٢. تحقّق الوعيد الأوّل على يد المسلمين في الصدر الأوّل، وبانتظار تحقّق الوعيد الثاني على يد الإمام المهدي «عليه السلام».

قال الشيخ علي الكوراني: (والرأي الصحيح: أنّ العقوبة الأولى على إفسادهم الأوّل قد وقعت في صدر الإسلام على يد المسلمين، ثم ردّ الله الكرة لليهود على المسلمين عندما ابتعد المسلمون عن الإسلام، وأفسد اليهود ثانية وعلموا في الأرض، وسيجيء وقت العقوبة الثانية وستكون على أيدي المسلمين أيضاً، عندما يعودون إلى إسلامهم مجدداً. وبهذا التفسير وردت الأحاديث الشريفة عن الأئمة «عليهم السلام»، فقد فسّرت هؤلاء القوم الذين سيبعثهم الله «تعالى» على اليهود في المرّة الثانية بأنهم المهدي «عليه السلام» وأصحابه، وبأنهم أهل قم، وبأنهم قوم يبعثهم الله «تعالى» قبل ظهور القائم «عليه السلام». ثم استشهد بالروايات التالية:

(١) في بحار الأنوار عن تفسير العياشي عن الإمام الباقر «عليه السلام» أنه قال بعد أن قرأ قوله «تعالى» ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: (هو القائم وأصحابه، أولو بأس شديد)^(٢).

تعليق: ما جاء في الرواية لا ينسجم مع وصف الشيخ الكوراني، لأن الآية تخصّ

١. انظر تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٤٤-٤٥.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٤٦.

الإفساد والوعيد الأول، بينما ذكر في بيانه أن دور الإمام المهدي يخص الإفساد والعلو والوعيد الثاني.

(٢) في تفسير نور الثقلين، عن روضة الكافي، عن الإمام الصادق «عليه السلام»، أنه قال في تفسيرها: (قوم يبعثهم الله قبل خروج القائم، فلا يدعون وتراً لآل محمد «صلى الله عليه وآله» إلا قتلوه)^(١).

تعليق: أتى لهم قتل من قد ماتوا قبل أكثر من ألف سنة؟

(٣) في بحار الأنوار: (وروى بعض أصحابنا قال: كنت عند أبي عبد الله «عليه السلام» جالساً إذ قرأ هذه الآية ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خُلُلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ ﴿٥٠﴾ فقلنا: جعلنا فداك، من هؤلاء؟ فقال ثلاث مرات: هم والله أهل قم)^(٢).

تعليق: ما جاء في الرواية لا ينسجم مع وصف الشيخ الكوراني، لأن الآية تخص الإفساد والوعيد الأول، بينما ذكر في بيانه أن دور أهل قم الممهدين للإمام المهدي يخص الإفساد والعلو والوعيد الثاني.

ونفى الكوراني التعارض بين هذه الروايات، بدعوى أن المراد من أهل قم عموم أهل إيران، وهم أنصار المهدي الذين يبعثهم الله «تعالى» للتمهيد له، وقد دلت الأحاديث على أن فيهم العديد من أصحابه الخاصين عندما يظهر. مضافاً إلى أن مقاومة اليهود من قبل هؤلاء القوم ومن معهم من المسلمين تكون على مراحل، حتى يظهر المهدي «عليه السلام» فيكون القضاء النهائي على اليهود بقيادته وعلى يديه.

١. الكليني: الروضة من الكافي، ص ٢٠٦.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥٧، ص ٢١٦.

ثم استدَلَّ بأمور نذكرها بالمعنى:

- (١) القوم الذين وعدَ الله أن يبعثهم عليهم في المرتين أمة واحدة.
 - (٢) الصفات التي ذكرت لهم ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾، لا تنطبق إلا على المسلمين.
 - (٣) صفات حربهم لا تنطبق إلا على المسلمين، فقد عاقبهم الله على أيدي المسلمين في صدر الإسلام، ثم غلبهم اليهود، وأمدَّهم الله بأموال وبنين وجعلهم أكثر منهم أنصاراً ونفيراً عليهم.
 - (٤) بدأ المجاهدون المسلمون بتوجيه ضرباتٍ إليهم تُسيء وجوههم.
 - (٥) لم يتحقَّق علوُّهم الموعود على أي شعب إلا في عصرنا الحاضر، فهو العلو الوحيد الموعود الذي تأتى على أثره العقوبة الموعودة بتبشيرهم^(١).
- وما لاحظته الكوراني بخصوص وحدة المتسلطين على بني إسرائيل سليمة، إلا أنه افترض أنَّ العباد المنسوبين إلى الله «تعالى» لابد وأن يكونوا مؤمنين صالحين، وقد بيَّنتُ عند تفسير الآيات أنَّ افتراض ذلك غير دقيق، ولا ضرورة له.
- كما لا يصلح أن تغاضى عن أهمِّ حدثٍ مأساوي في تاريخ بني إسرائيل والذي وقع على يد نبوخذ نصر الثاني كعقوبة إلهية نزلت بهم نتيجة إفسادهم وعلوهم في الأرض. ثالثاً، فإنَّ ادِّعاء عدم تحقُّق هذا العلوِّ منهم في الماضي يتعارض مع نصوص كتبهم المقدسة والمعطيات التاريخية مما سنبيِّنه لاحقاً بالتفصيل.
- ويُضاف إلى ذلك أنَّ المسلمين لم يدخلوا المسجد الأقصى وهو تحت حكم اليهود، بل كان النصارى هم المتسلطون على الأمور. ولذا يمكن القول بأنَّ ما يخصُّ دور

١. الكوراني: عصر الظهور، ص ٦٣-٦٤.

المسلمين في الماضي والحاضر والمستقبل في المواجهة مع بني إسرائيل -أو اليهود عموماً- يمكن أن يكون من مصاديق ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ وليست تأويلاً للوعيديين الأولين.

• روايات وآراء غريبة:

إضافة إلى القولين السابقين، توجد في البين روايات وأخبار وآراء غريبة وغير متوافقة مع المسلمات التاريخية، وقد وردت عن مفسرين أو قصاصين أولوا الآيات دون الاعتماد على مصادر قرآنية أو حديثة أو تاريخية موثوقة، ومنها ما يلي:

٣. الوعيد الأول على يد سابور ذي الأكتاف، والثاني على يد نبوخذ نصر. قال ابن زيد: (كان إفسادهم الذي يفسدون في الأرض مرتين: قتل زكريا ويحيى بن زكريا، سلط الله عليهم سابور ذا الأكتاف ملكاً من ملوك فارس، من قبل زكريا، وسلط عليهم بختنصر، من قبل يحيى)^(١).

علماً بأن النبي زكريا «عليه السلام» عاش في القرن الأول قبل الميلاد، وعاش ابنه النبي يحيى «عليه السلام» في ذلك القرن، وبقي حياً إلى أن أرسل المسيح «عليه السلام»، ثم استشهد بعد ذلك بوقت قصير. وشابور الثاني المعروف بلقب ذي الأكتاف عاش بين (٣٠٩-٣٧٩ م)، ولم تكن لليهود دولة آنذاك لثغرى، ولا هيكل ليهدم، ولا شأن ولا قوة، والفاصل الزمني بين النبيين وبينه أكثر من ثلاثة قرون. وبختنصر، أي نبوخذ نصر الثاني عاش بين (٦٤٢ - ٥٦١ ق.م) أي قبل مولد النبي يحيى بخمسة قرون، فكيف سلطه الله «عز وجل» على اليهود لقتلهم النبي يحيى؟

٤. الوعيد الأول على يد نبوخذ نصر، والثاني على يد «إبطياخوس». فعن ربعي بن

١. الطبري: جامع البيان، ج ١٧، ص ٣٥٩.

حراش، قال: سمعت حُذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (إِنَّ بني إسرائيل لما اعتدوا وعلوا وقتلوا الأنبياء، بعث الله عليهم ملك فارس بختنصر، وكان الله ملكه سبع مائة سنة، فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس، فحاصرها وفتحها، وقتل على دم زكريا سبعين ألفاً، ثم سبى أهلها وبني الأنبياء، وسلب حليَّ بيت المقدس، واستخرج منها سبعين ألفاً ومائة ألف عجلة من حُلِّي حتى أورده بابل، قال حذيفة: فقلت: يا رسول الله، لقد كان بيت المقدس عظيماً عند الله؟ قال: أجل، بناه سليمان بن داود من ذهب ودرّ وياقوت وزبرجد، وكان بلاطه بلاطة من ذهب وبلاطة من فضّة، وعمدّه ذهباً، أعطاه الله ذلك، وسخر له الشياطين يأتونه بهذه الأشياء في طرفه عين، فسار بختنصر بهذه الأشياء حتى نزل بها بابل، فأقام بنو إسرائيل في يديه مائة سنة تُعَذِّبهم المجوس وأبناء المجوس، فيهم الأنبياء وأبناء الأنبياء، ثم إنَّ الله رحمهم، فأوحى إلى ملك من ملوك فارس يقال له كورس، وكان مؤمناً، أنْ سِر إلى بقايا بني إسرائيل حتى تستنقذهم، فسار كورس ببني إسرائيل وحلي بيت المقدس حتى رَدّه إليه، فأقام بنو إسرائيل مطيعين لله مائة سنة، ثم إنَّهم عادوا في المعاصي، فسَلَّط الله عليهم «إبطينحوس» فغزا بأبناء من غزا مع بختنصر، فغزا بني إسرائيل حتى أتاهم بيت المقدس، فسبى أهلها، وأحرق بيت المقدس، وقال لهم: يا بني إسرائيل، إنْ عُدتُم في المعاصي عُدنا عليكم بالسباء، فعادوا في المعاصي، فسَيَّر الله عليهم السباء الثالث، ملك رومية، يُقال له «قاقس بن إسبايوس»، فغزاهم في البر والبحر، فسباهم وسبى حلي بيت المقدس، وأحرق بيت المقدس بالنيران، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: هذا من صنعة حلي بيت المقدس، ويردّه المهدي إلى بيت المقدس، وهو ألف سفينة وسبع مائة سفينة، يرسى

بها على يافا حتى تُنقل إلى بيت المقدس، وبها يجمع الله الأولين والآخرين^(١).
 من الواضح أنّ الرواية مزيج من الإسرائيليات وقصص القصّاصين، ومن يملك أبسط المعلومات التاريخية عن ذلك العصر يدرك فداحة الأخطاء الواردة في هذه الرواية الغربية، ومنها أن نبوخذ نصر مات قبل وفاة النبي زكريا «عليه السلام» بأكثر من خمسة قرون، ولم يكن ملكاً على فارس، بل مملكة بابل في ما بين النهرين، ولم يكن هو ولا أبناء بلاد ما بين النهرين على دين المجوسية، ولم يُقيم بنو إسرائيل في السّبي مائة سنة، ولم يكن الفاصل بين كوروش الإخميني وبين نبوخذ نصر مائة سنة، ولا يُعرف من هو «إبطياخوس» المذكور في السّبي الثاني، وكيف غزاهم بأبناء من غزا مع نبوخذ نصر بعد أن حرّر كوروش بني إسرائيل وبقيت بلاد ما بين النهرين تحت حكم الإخمينيين لقرون، ولا يُعرف وقوع سبي لليهود على عهدهم، ولا من هو ملك رومية «قاقوس بن إسبايوس»، وهل يُعقل أن مقدار حُلّي بيت المقدس حمل ١٧٠٠ سفينة؟!.

٥. الوعيد الأوّل على يد سنحاريب الآشوري ونبوخذ نصر. جاء ذلك في نصّ لمحمّد بن إسحاق، ولم يروه عن أحدٍ، ولم يُرجعه إلى مصدر، وهو نص طويل جداً، وبه تفاصيل مأخوذة من سفر إشعياء الذي هو من أسفار الكتاب المقدّس، مع كثير من التّحريف والأخطاء التاريخية. ومن الواضح أنّ ابن إسحاق -كعاداته- قد أخذه عن بعض أهل الكتاب المعاصرين له، ولم يكونوا صادقين في نقلهم -كعاداتهم- فأدخلوا في الأحداث تلك المغالطات. وقد أشرتُ في بحوث سابقة إلى نماذج عديدة من هذا القبيل، قام به كعب الأحبار ووهب بن منبه وآخرون^(٢).

١. الطبري: جامع البيان، ج ١٧، ص ٣٥٧-٣٥٨.

٢. انظر على سبيل المثال كتابي (الكليم موسى بن عمران) وكتابي الآخر (في عمق التاريخ).

يتحدّث الخبر عن تعرّض بني إسرائيل للغزو من قبل سنحاريب الآشوري (ت ٦٨١ ق.م) وكيف تدخّلت الإرادة الإلهية فأنقذتهم، ثم عودة نبوخذ نصر - حفيد سنحاريب بزعم هذا الخبر - لغزوهم مجدداً، بعد أن أفسدوا وطفغوا، وقتلوا نبيهم إشعياء، فسَلَطَ الله عليهم نبوخذ نصر، وهذا هو الوعيد الأول المذكور في سورة الإسراء^(١).

والصحيح أنّ الآشوريين في زمن سنحاريب غزوا بني إسرائيل وأوقعوا فيهم القتل والدمار، وأنّ نبوخذ نصر الثاني (ت ٥٦١ ق.م) لم يكن آشورياً، بل من البابليين الكلدانيين، وكان حكمه بعد قرن تقريباً من عصر سنحاريب وذلك بعد أن أسقط البابليون دولة الآشوريين، وغير ذلك من المغالطات الكثيرة الواردة في الخبر. وستتضح الصورة أكثر عندما نتناول ما جاء في سفر إشعياء وإرميا حول أحداث ذلك العصر. ثم إنّ ابن إسحاق لم يذكر مصداق الوعيد الثاني بحسب هذه المقولة.

٦. تحقّق الوعيد الأوّل على يد المجوس. قال الفخر الرازي في معرض بيان الأقوال في تأويل الآيات: (إنّ قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَّا﴾ هو أنه «تعالى» ألقى الرّعب من بني إسرائيل في قلوب المجوس، فلما كثرت المعاصي فيهم أزال ذلك الرّعب عن قلوب المجوس، فقصدهم وبالغوا في قتلهم وإفنائهم وإهلاكهم^(٢). ولا أدري إلى مَ يشير صاحب هذه المقولة.

فلاحتمال الأوّل أنّه يشير إلى ما جرى لليهود على عهد «خشيارشاه» الإخميني (ت ٤٦٥ ق.م) حيث أراد الوزير هامان أن يكيد بهم، فخلّصتهم «إستير» اليهودية زوجة الملك الإخميني بالتعاون مع الوزير الأعظم اليهودي «مردخاي»، أي لم تقع بحق

١. انظر جامع البيان للطبري، ج ١٧، ص ٣٥٨-٣٦١.

٢. الفخر الرازي: مفاتيح الغيب، ج ٧، ص ١٣١.

اليهود آية مجزرة، وهذا يتنافى مع ما في هذا القول، ولم أجد مورداً آخر يذكر أن الفرس المجوس قد قاموا بشيء من هذا القبيل في تاريخ علاقاتهم ببني إسرائيل واليهود.

والاحتمال الثاني أنه أراد بالمجوس خصوص جيش نبوخذ نصر، حيث مر معنا في قول سابق ذكره الطبري ادعاء مجوسية البابليين. وبذا لن تختلف هذه المقولة عن مقولة سابقة مرت معنا تشير إلى أن الوعيد الأول يخص السبي البابلي. ثم إن الفخر الرازي لم يذكر مصداق الوعيد الثاني بحسب هذه المقولة.

٧. الوعيد الأول على يد ملك التَّبَط «صحابين» وقائده نبوخذ نصر. ففي تفسير الطبري عن السدي في خبر ذكره بإسناده عن عبد الله^(١): (أَنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي التَّوْرَةِ ﴿لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فَكَانَ أَوَّلُ الْفَسَادَيْنِ: قَتْلُ زَكَرِيَّا، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَلِكًا التَّبَطَّ، وَكَانَ يُدْعَى «صَحَابِينَ»^(٢) فَبَعَثَ الْجُنُودَ، وَكَانَ أَسَاوِرَتَهُ^(٣) مِنْ أَهْلِ فَارَسَ، فَهَمُّ أُولَئِكَ شَدِيدٌ، فَتَحَصَّنَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَخَرَجَ فِيهِمْ بِخَتْنَصْرٍ يَتِيمًا مُسْكِينًا، إِنَّمَا خَرَجَ يَسْتَطْعِمُ، وَتَلَطَّفَ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ فَأَتَى مَجَالِسَهُمْ^(٤)، فَسَمِعَهُمْ يَقُولُونَ: لَوْ يَعْلَمُ عَدُوُّنَا مَا قُذِفَ فِي قُلُوبِنَا مِنَ الرَّعْبِ بِذُنُوبِنَا مَا أَرَادُوا قِتَالَنَا، فَخَرَجَ بِخَتْنَصْرٍ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وَاشْتَدَّ الْقِيَامُ عَلَى الْجَيْشِ، فَارْجَعُوا، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ ثم إن بني إسرائيل تجهَّزوا، فغزوا التَّبَطَّ، فأصابوا منهم واستنقذوا ما في أيديهم، فذلك قول

١. أي الصحابي عبدالله بن مسعود.

٢. في تاريخ الطبري (ج ٢ ص ٦٥٧ طبعة أوروبا): صحابنين، وفي بعض النسخ في هامشه، صحابنين، وصحابين، وسنحارب، وفي ٦٥٦ منه: صيحون، وفي رواية بهامشه عدة صور لبقية الخبر.

٣. أي فرسانه.

٤. أي أن بختنصر (نبوخذ نصر) قد دخل مدينته متنكراً في صورة فقير يستجدي الطعام.

الله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾
يقول: عددًا^(١).

ولا يستقيم شيء مما جاء في هذا الخبر، فإن كان المراد من الملك «صحاين»
سنحاريب الآشوري، فما علاقته بالنبط؟ وما علاقة نبوخذ نصر (المولود ٦٤١ ق.م)
بسنحاريب (ت ٦٨١ ق.م) وقد تُوِّفِّي قبل ولادته بأربعين سنة؟ والخبر يُدرك أن في
تفاصيل الخبر ما يدل على أنه من قصص القصاصين.

٨. تحقق الوعيد الأول على يد جالوت، والثاني على يد نبوخذ نصر. فقد روى السيوطي
عن ابن أبي حاتم عن عطية قال: (أفسدوا في المرة الأولى، فأرسل الله عليهم جالوت
فقتلهم، وأفسدوا المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا، فبعث الله عليهم بختنصر)^(٢).
وقد ذكرت من قبل أن عصر نبوخذ نصر يسبق عصر النبي زكريا بخمسة قرون تقريباً.

٩. تحقق الوعيد الأول على يد الفرس دون وقوع قتال، والوعيد الثاني على يد نبوخذ
نصر بأمر من ملك الفرس. فقد روى السيوطي عن مجاهد في قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ
عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، قال: (جند أتوا من فارس يتجسسون من أخبارهم،
ويسمعون حديثهم، معهم بختنصر، فوعى أحاديثهم من بين أصحابه، ثم رجعت فارس
ولم يكن قتال، ونصرت عليهم بنو إسرائيل، فهذا وعد الأولى، فإذا جاء وعد الآخرة
بعث ملك فارس ببابل جيشاً، وأمر عليهم بختنصر، فدمروهم. فهذا وعد الآخرة)^(٣).

وهناك عدة أخطاء في هذا التأويل، فقد بينت الآيات الشريفة أن هؤلاء الغزاة قد

١. الطبري: جامع البيان، ج ١٧، ص ٣٥٦-٣٥٧.

٢. السيوطي: الدر المنثور، ج ٩، ص ٢٥١.

٣. السيوطي: الدر المنثور، ج ٩، ص ٢٦٢.

دخلوا المسجد مرّتين، وجاسوا خلال الديار، فكيف يتمّ ذلك من دون قتال؟ ثم لا نعرف ملكاً فارسياً عمل نبوخذ نصرّ تحت حكمه، بل هو الغازي، وهو ملك البابليين.

ومن الواضح أن القاصّ أسقط أوضاع بلاد ما بين النهرين في الزمن القريب من روايته على أوضاعها قبل عشرات القرون، فقد كانت هذه البلاد تحت حكم الفُرس ثم فُتحت بيد المسلمين، وأما في نبوخذ نصرّ فقد كان البابليون الكلدانيون هم من يحكمون تلك البلاد، ثم غزاهم الإخمينيون من بلاد فارس بعد ذلك بعشرات العقود، وصارت بلاد ما بين النهرين من بعدها تحت حكمهم ثم حكم الفرثيين ثم الساسانيين، وكلّهم من بلاد فارس.

١٠. تحقّق الوعيدين في العصر الحاضر على يد المسلمين، وذلك بحسب ما نقله العلامة مكارم الشيرازي في تفسيره الأمل^(١) من أنّ قيام الحزب الصهيوني وتشكيل دولة لليهود باسم «إسرائيل» في قلب العالم الإسلامي مثّل الإفساد والطغيان والعلوّ الأوّل لهم، وبذلك فإنّ وعي البلاد الإسلامية لخطر هؤلاء الشعوب الإسلامية في ذلك الوقت إلى التوحّد وتطهير بيت المقدس وقسمًا آخر من مدن وقرى فلسطين، حتى أصبح المسجد الأقصى خارج نطاق احتلالهم بشكل كامل.

أمّا المقصود من الإفساد الثاني فهو احتلال اليهود مجدّداً للمسجد الأقصى بعد أن حشدت «إسرائيل» قواها واستعانت بالقوى الدولية الاستعمارية في شنّ هجومها الغادر (عام ١٩٦٧).

١. عن الكاتب «إبراهيم الأنصاري» في مجلّة «عقيدة الإسلام» السنة ١٢، العدد ١٢.

وبهذا الشكل يكون المسلمون اليوم في انتظار النصر الثاني على بني إسرائيل، ليخلصوا المسجد الأقصى من دنس هؤلاء، ويقطعوا دابرهم عن كل الأرض الإسلامية. وهذا ما وُعد به المسلمون من فتح ونصرٍ آتٍ بلا ريب^(١).

ويلاحظ على هذا التأويل أمور:

أولاً، عدم صحّة التغاضي عن أحداث مأساوية كبيرة وقعت على بني إسرائيل وتعتبر مفصليّة في تاريخهم، ومن بينها السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، وما جرى على يد البيزنطيين في القرن الميلادي الأول، والذي شتّتهم إلى مطلع القرن الميلادي العشرين.

ثانياً، اشتبه الأمر على صاحب التفسير -أو كاتب المقال- إذ نسب إلى السيّد قطب القول بعدم وقوع الحادثتين في الماضي، وأنهما تتعلّقان بالمستقبل أي ما بعد نزول هذه السورة القرآنية^(٢)، وأنّ الوعيد الأول يتعلّق بتسليط هتلر عليهم، وأنّ الفساد الثاني تحقق، ولم يأت الوعيد الثاني بعد.

والصحيح أنّ سيد قطب في تفسيره لآية: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ قال: (ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد، فسَلَّطَ اللهُ على بني إسرائيل مَنْ قهرهم أَوَّلَ مرةٍ، ثم سَلَّطَ عليهم مَنْ شردهم في الأرض، ودمّر مملكتهم فيها تدميراً، ولا ينصّ القرآن على جنسية هؤلاء الذين سَلَّطَهم على بني إسرائيل، لأنّ النص عليها لا يزيد في العبرة شيئاً، والعبرة هي المطلوبة هنا، وبيان سنّة الله في الخلق هو المقصود).

١. مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ٤٠٨.

٢. مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ٤٠١.

وأضاف بعد الآية الثامنة: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم وَإِنْ عُدتُمْ عُدنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾: (ولقد عادوا إلى الإفساد، فسَلَطَ الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها. ثم عادوا إلى الإفساد فسَلَطَ عليهم عباداً آخرين، حتى كان العصر الحديث فسَلَطَ عليهم «هتلر»، ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات. وليسلطن الله عليهم مَنْ يسومهم سوء العذاب، تصديقاً لوعد الله القاطع، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف. وإنَّ غداً لناظره قريب)^(١).

وعليه، فإنَّ سيّد قطب لم يدَّعِ أنَّ الوعيدين لم يتحققا قبل نزول سورة الإسراء، بل أقرَّ بذلك، ثم ذكر مصاديق لعودة بني إسرائيل للإفساد والعلو المتجدد من قبلهم، ومنها ما يخصَّ المرحلة السابقة لتسليط هتلر عليهم، وبانتظار مَنْ سيتسلطَّ مجدداً نتيجة إفسادهم وعلوهم في الأرض بعد تأسيس كيانهـم الغاصب في فلسطين.

• الرأي المختار:

ولي رأي مختلف في تأويل الآيات، وأنطلق في ذلك من خلال ما جاء في كتب اليهود أنفسهم، إذ قد ذكر فيها وصف الوعيدين والكرّة بينهما، ثم الوعيد بالعود إنَّ هُم عادوا، وهذا هو مفتاح تأويل الآيات.

فقد ذكرت في شرحها أن تعديـة الفعل «قضى» بحرف الجرّ «إلى» يُفيد معنى الإبلاغ، وبحسب الآية، فإنَّ هذا الإبلاغ مذكور في «الكتاب»: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفُسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾^(٢).. إلخ الآيات، وهو ما يستدعي

١. سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢٢١٤.

أن نبحث في كتبهم المقدسة عن هذين الوعدين، بل وحتى الوعيد الثالث الذي يُمتلّ السّنة الإلهية في ما يقع عليهم وهو قوله «سبحانه»: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾.

• المصدر الأوّل:

أشارت التوراة إجمالاً إلى الوعيد الإلهي لبني إسرائيل في ما لو أفسدوا في الأرض وطغوا. وهذا يتفق مع فرض أنّ المراد من «الكتاب» في الآية الرابعة خصوص التوراة، وذلك بضمّها إلى قوله: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، بدعوى أن «ال» التعريف في كلمة «الْكِتَابَ» في الآية الرابعة عهديّة، أي الكتاب الذي ذُكر آنفاً وعهدتموه في الآية الثانية من هذه السورة. وفي التوراة أيضاً حديثٌ حول الوعد الإلهي لبني إسرائيل بالتمكين في الأرض التي سيستقرون فيها، ويعمرونها، ونزول البركات عليهم إنّ هم أطاعوه ولم يشركوا به شيئاً، وذلك وفق التفاصيل الآتية:

١. الاستعلاء على الأمم: (١) ﴿وَإِنْ سَمِعْتَ سَمْعًا لِّصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، يَجْعَلَكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ مُسْتَعْلِيًّا عَلَى جَمِيعِ قَبَائِلِ الْأَرْضِ). بما يقترب من دلالة قوله «سبحانه»: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...﴾^(١)، وقوله «تعالى»: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

٢. نزول البركات: (٢) وَتَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ هَذِهِ الْبَرَكَاتِ وَتُذَرِّكَ، إِذَا سَمِعْتَ لِّصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ. ٣ مُبَارَكًا تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ، وَمُبَارَكًا تَكُونُ فِي الْحَقْلِ). بما يقترب من

١. سورة النور: ٥٥.

٢. سورة آل عمران: ١٣٩.

دلالة قوله «سبحانه»: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾^(١).

٣. هزيمة الأعداء: (٧) يَجْعَلُ الرَّبُّ أَعْدَاءَكَ الْقَائِمِينَ عَلَيْكَ مُنْهَزِمِينَ أَمَامَكَ. في طريق وَاحِدَةٍ يَخْرُجُونَ عَلَيْكَ، وَفِي سَبْعِ طُرُقٍ يَهْرُبُونَ أَمَامَكَ). وهذا يقترب من دلالة قوله «سبحانه»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(٢).

٤. القوة الاقتصادية: (٨) يَا مُرْ لَكَ الرَّبُّ بِالْبَرَكَةِ فِي خَزَائِنِكَ وَفِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ، وَيُبَارِكُكَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ... بما يقترب من دلالة قوله «سبحانه»: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾^(٣).

٥. العزة والقوة: (١٠) فَيَرَىٰ جَمِيعُ شُعُوبِ الْأَرْضِ أَنَّ اسْمَ الرَّبِّ قَدْ سُمِّيَ عَلَيْكَ وَيَخْأَفُونَ مِنْكَ...^(٤). وهذا يقترب من دلالة قوله «سبحانه»: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٥)، وقوله «تعالى»: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...﴾^(٦).

ويعقبه الكلام حول حرمانهم وطردهم منها ولعنهم وإذلالهم وإنزال صور العذاب الديني بهم إن هم أشركوا وعصوا، وذلك وفق العناوين التالية:

(١) سَلْبُ الْبَرَكَاتِ وحلول اللعنات: (١٥) «وَلَكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعْ لِصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهُكَ لِتَحْرِصَ أَنْ تَعْمَلَ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ وَقَرَائِصِهِ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْكَ جَمِيعُ

١. سورة الأعراف: ٩٦.

٢. سورة محمد: ٧.

٣. سورة الأعراف: ٩٦.

٤. الكتاب المقدس، سفر التثنية، الإصحاح ٢٨، ١-١٠.

٥. سورة يونس: ٦٥.

٦. سورة المنافقون: ٨.

هَذِهِ اللَّعَنَاتِ وَتُذَرِّكَ: ١٦ مَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ وَمَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْحَقْلِ.
 ١٧ مَلْعُونَةً تَكُونُ سَلَّتْكَ وَمِعْجَنُكَ..... ٢٠ يُرْسِلُ الرَّبُّ عَلَيْكَ اللَّعْنَ وَالْاضْطِرَابَ
 وَالزَّجَرَ فِي كُلِّ مَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ يَدُكَ لِتَعْمَلَهُ، حَتَّى تَهْلِكَ وَتَفْنَى سَرِيعًا مِنْ أَجْلِ سُوءِ
 أَفْعَالِكَ إِذْ تَرَكْتَنِي).

(٢) الهزيمة أمام الأعداء: (٢٥) يَجْعَلُكَ الرَّبُّ مُنْهَرِمًا أَمَامَ أَعْدَائِكَ. فِي طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ
 تَخْرُجُ عَلَيْهِمْ، وَفِي سَبْعِ طُرُقٍ تَهْرُبُ أَمَامَهُمْ، وَتَكُونُ قَلِقًا فِي جَمِيعِ مَمَالِكِ الْأَرْضِ.
 ٢٦ وَتَكُونُ جُثَّتُكَ طَعَامًا لَجَمِيعِ طُيُورِ السَّمَاءِ وَوُحُوشِ الْأَرْضِ وَلَيْسَ مَنْ يُزْعِجُهَا).
 (٣) السبي إلى أرض غريبة والاستعباد والدَّلة: (٣٦) يَذْهَبُ بِكَ الرَّبُّ وَبِمَلِكِكَ الَّذِي
 تُقِيمُهُ عَلَيْكَ إِلَى أُمَّةٍ لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلَا آبَاؤُكَ، وَتَعْبُدُ هُنَاكَ إِلَهَةً أُخْرَى مِنْ حَشَبٍ
 وَحَجَرٍ، ٣٧ وَتَكُونُ دَهْشًا وَمَثَلًا وَهَزْأَةً فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ يَسُوقُكَ الرَّبُّ إِلَيْهِمْ....
 ٤٧ مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ لَمْ تَعْبُدِ الرَّبَّ إِلَهَكَ بِفَرَحٍ وَبِطَبِيبَةٍ قَلْبٍ لِكثْرَةِ كُلِّ شَيْءٍ. ٤٨ تُسْتَعْبَدُ
 لِأَعْدَائِكَ الَّذِينَ يُرْسِلُهُمُ الرَّبُّ عَلَيْكَ فِي جُوعٍ وَعَطَشٍ وَعُرْيٍ وَعَوَزٍ كُلِّ شَيْءٍ. فَيَجْعَلُ
 نِيرَ حَدِيدٍ عَلَى عُنُقِكَ حَتَّى يَهْلِكَكَ).

(٤) التعرّض للغزو المفاجئ من قبل أعداء أشداء لا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلوبهم:
 (٤٩) يَجْلِبُ الرَّبُّ عَلَيْكَ أُمَّةً مِنْ بَعِيدٍ، مِنْ أَقْصَاءِ الْأَرْضِ كَمَا يَطِيرُ النَّسْرُ، أُمَّةٌ لَا تَفْهَمُ
 لِسَانَهَا، ٥٠ أُمَّةٌ جَافِيَةُ الْوَجْهِ لَا تَهَابُ الشَّيْخَ وَلَا تَحْنُ إِلَى الْوَلَدِ، ٥١ فَتَأْكُلُ ثَمَرَةَ بَهَائِمِكَ
 وَثَمَرَةَ أَرْضِكَ حَتَّى تَهْلِكَ، وَلَا تُبْقِي لَكَ قَمْحًا وَلَا خَمْراً وَلَا زَيْتًا، وَلَا نِتَاجَ بَقَرِكَ وَلَا
 إِنَاثَ غَنَمِكَ، حَتَّى تُفْنِكَ. ٥٢ وَتُحَاصِرُكَ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِكَ حَتَّى تَهْبِطَ أَسْوَارُكَ الشَّاحِجَةُ
 الْحَصِينَةُ الَّتِي أَنْتَ تَتَّقِي بِهَا فِي كُلِّ أَرْضِكَ. تُحَاصِرُكَ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِكَ، فِي كُلِّ أَرْضِكَ الَّتِي
 يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ).

(٥) قلة العدد: (٦٢) فَتَبْقَوْنَ نَفَرًا قَلِيلًا عَوَّضَ مَا كُنْتُمْ كُنُجُومَ السَّمَاءِ فِي الْكَثَرَةِ، لَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ لَصَوْتِ الرَّبِّ إِلَهَكَ. ٦٣ وَكَمَا فَرِحَ الرَّبُّ لَكُمْ لِيُحْسِنَ إِلَيْكُمْ وَيُكَثِّرْكُمْ، كَذَلِكَ يَفْرَحُ الرَّبُّ لَكُمْ لِيُفْنِيَكُمْ وَيُهْلِكَكُمْ، فَتُسْتَأْصَلُونَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا).

(٦) التشريد في الأرض والضعف والمهانة: (٦٤) وَيُبَدِّدُكَ الرَّبُّ فِي جَمِيعِ الشُّعُوبِ مِنْ أَقْصَاءِ الْأَرْضِ إِلَى أَقْصَائِهَا، وَتَعْبُدُ هُنَاكَ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلَا آبَاؤُكَ، مِنْ خَشَبٍ وَحَجَرٍ. ٦٥. وَفِي تِلْكَ الْأُمَمِ لَا تَطْمَئِنُّ وَلَا يَكُونُ قَرَارٌ لِقَدَمِكَ، بَلْ يُعْطِيكَ الرَّبُّ هُنَاكَ قَلْبًا مُرْتَجِحًا وَكَلَالًا الْعَيْنَيْنِ وَذُبُولَ النَّفْسِ).

(٧) العودة إلى أرض مصر مستعبدين قهراً: (٦٨) وَيَرُدُّكَ الرَّبُّ إِلَى مِصْرَ فِي سُفْنٍ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي قُلْتُ لَكَ لَا تَعُدْ تَرَاهَا، فَتُبَاعُونَ هُنَاكَ لِأَعْدَائِكَ عَبِيدًا وَإِمَاءً، وَلَيْسَ مَنْ يَشْتَرِي^(١)... ومجموع النصوص السابقة يمثل الوعد والوعيد الأولين.

ثم يتحدث الإصحاح ٣٠ عن إمكانية التوبة عليهم إن هم تابوا بعد أن أشركوا وأفسدوا في الأرض: (١) «وَمَتَى أَتَتْ عَلَيْكَ كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ، الْبَرَكَهَ وَاللَّعْنَةَ، اللَّتَانِ جَعَلْتُهُمَا قُدَامَكَ^(٢)، فَإِنْ رَدَدْتَ فِي قَلْبِكَ بَيْنَ جَمِيعِ الْأُمَمِ الَّذِينَ طَرَدَكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ إِلَيْهِمْ،^٢ وَرَجَعْتَ إِلَى الرَّبِّ إِلَهَكَ، وَسَمِعْتَ لَصَوْتِهِ حَسَبَ كُلِّ مَا أَنَا أُوصِيكَ بِهِ الْيَوْمَ، أَنْتَ وَبَنُوكَ، بِكُلِّ قَلْبِكَ وَبِكُلِّ نَفْسِكَ).

ونتائج هذه التوبة ستتمثل في الآتي:

١. العودة من السبي والتهجير والتشرد: (٣) يَرُدُّكَ الرَّبُّ إِلَهَكَ سَبِيكَ وَيَرْحِمُكَ، وَيَعُودُ

١. الكتاب المقدس، سفر التثنية، الإصحاح ٢٨، ١٥-٦٨.

٢. أي مضمون الوعد الأول.

فَيَجْمَعُكَ مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ بَدَّدَكَ إِلَيْهِمُ الرَّبُّ إِلَهُكَ. ٤ إِنْ يَكُنْ قَدْ بَدَّدَكَ إِلَى أَقْصَاءِ السَّمَاوَاتِ، فَمِنْ هُنَاكَ يَجْمَعُكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَأْخُذُكَ).

٢. العودة لتملك الأرض التي فقدوا حكمها: (٥ وَيَأْتِي بِكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي امْتَلَكَهَا آبَاؤُكَ فَتَمْتَلِكُهَا).

٣. زيادة العدد: (وَيُحَسِّنُ إِلَيْكَ وَيُكَثِّرُكَ أَكْثَرَ مِنْ آبَائِكَ).

٤. التطهير من رجس الشرك: (٦ وَيَخْتِنُ الرَّبُّ إِلَهُكَ قَلْبَكَ وَقَلْبَ نَسْلِكَ، لِكَيْ تُحِبَّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ لِتَحْيَا).

٥. إنزال اللعنات والعذاب بالأعداء: (٧ وَيَجْعَلُ الرَّبُّ إِلَهُكَ كُلَّ هَذِهِ اللَّعَنَاتِ عَلَى أَعْدَائِكَ، وَعَلَى مُبْغِضِيكَ الَّذِينَ طَرَدُوكَ).

٦. حلول البركة من جديد: (٨ وَأَمَّا أَنْتَ فَتَعُودُ تَسْمَعُ لَصَوْتِ الرَّبِّ، وَتَعْمَلُ بِجَمِيعِ وَصَايَاهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ، ٩ فَيَزِيدُكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ خَيْرًا فِي كُلِّ عَمَلٍ يَدُكَ، فِي ثَمَرَةٍ بَطْنِكَ وَثَمَرَةٍ بِهَائِمِكَ وَثَمَرَةٍ أَرْضِكَ. لِأَنَّ الرَّبَّ يَرْجِعُ لِيَفْرَحَ لَكَ بِالْخَيْرِ كَمَا فَرِحَ لآبَائِكَ...) (١). هذا هو الوعد الثاني.

وأما الوعيد الثاني إن هم عادوا إلى الشرك والعصيان فيأتي في صورة التهديد التالي: (١٧ فَإِنْ انْصَرَفَ قَلْبُكَ وَلَمْ تَسْمَعْ، بَلْ غَوَيْتَ وَسَجَدْتَ لِآلِهَةٍ أُخْرَى وَعَبَدْتَهَا، ١٨ فَإِنِّي أَنْبِئُكُمْ الْيَوْمَ أَنَّكُمْ لَا مُحَالَةَ تَهْلِكُونَ. لَا تُطِيلُ الْأَيَّامَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ عَابِرُ الْأَرْضِ لِكَيْ تَدْخُلَهَا وَتَمْتَلِكَهَا. ١٩ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ. قَدْ جَعَلْتُ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ. الْبَرَكَةُ وَاللَّعْنَةُ. فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ) (٢).

١. الكتاب المقدس، سفر التثنية، الإصحاح ٣٠، ٩-١.

٢. الكتاب المقدس، سفر التثنية، الإصحاح ٣٠، ١٧-١٩.

وقد تكون هذه العبارة متضمنة لسنة الله فيهم: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾.

وبعيداً عن التفاصيل، يمكن القول أنّ التشابه في الفكرة الرئيسة -إجمالاً- بين ما جاء في سورة الإسراء وما في النصوص التوراتية السابقة كبير، وإنّ خلا النص التوراتي من ذكر «المسجد» في حين أنه ذُكر في قوله «تعالى»: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۖ﴾، بينما ذُكر ما سيجري عليه في الوعدين المشار إليهما، وهي مسألة محورية، وغيابها عن النص التوراتي يجعلنا لا نكتفي به.

بالطبع، من المنطقي أن لا يكون في البين ذكر لهذا المسجد وما سيجري عليه، إذ أنه لم يكن قد أسس بعد، فقد مرّ معنا أن المسجد الأقصى «=هيكل سليمان» قد أسس بعد ذلك بأكثر من ٣٠٠ سنة، وكان بيت الله عندهم في صورة خيمة متنقلة.

وكّل ما سبق على فرض أنّ المراد من «الكتاب» في الآية الرابعة خصوص التوراة، أمّا إذا تنازلنا عن ذلك، واحتملنا أن يكون إشارة إلى كتاب آخر أو كُتب أخرى من كتبهم المقدّسة، والتي تأتي ضمن ما يُعرف عند اليهود باسم الـ«تنخ» وعند المسيحيين باسم «العهد القديم»، فلربّما وجدنا نصوصاً أكثر وضوحاً وتطابقاً مع ما أُشير إليه في سورة الإسراء.

كما أنّ هذا النص لم يُسعفنا في تحديد متى وأين يدّمن ستتحقق هذه الأحداث، وهو ما نحاول اكتشافه وتحديده، ولذا فنحن بحاجة للبحث عن مصدر أو مصادر أخرى كتابية تكون أكثر وضوحاً وانطباقاً على ما جاء في الآيات القرآنية، وأكثر تحديداً وبيانا من النص السابق، وإن كان هذا النص قد قدّم لنا قاعدة عامّة وبياناً للسنة الإلهية الحاكمة على حركة بني إسرائيل في التاريخ، وأسباب ومآلات ذلك.

• المصدر الثاني:

يأتي هذا وفقاً لفرضية أنّ «ال» التعريف في «الكتاب» للجنس، لا للعهد، فلا يكون المراد من الكتاب في الآية الرابعة من سورة الإسراء هو نفس الكتاب المذكور في الآية الثانية، وإلا لاقتصر على ضمير «الهاء» العائد إليه، فقال: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ... وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيهِ﴾ ﴿لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ...﴾، ولو كان نفس الكتاب لكان من المناسب ذكره ظاهراً غير مُضمّر، مما يُشعر بأنه كتاب آخر -أو أكثر من كتاب- من كتبهم المقدّسة، وليس خصوص التوراة المذكورة في الآية الثانية، وأن عنوان «الكتاب» عنوان عام، قد ينطبق على أي كتاب من كتب أنبيائهم، وليس لتحديد العدد بكتابٍ واحدٍ فحسب.

وفي البين كتابان يخدمان الموضوع، أحدهما يتضمّن الوعيد الأوّل -المشار إليه في سورة الإسراء- وما استتبعه من تغيّر أحوال بني إسرائيل، وهو سفر إشعياء.

يُعدّ إشعياء من كبار أنبياء بني إسرائيل (٧٦٦ - ٦٨٦ ق. م)، بل ادّعى أنه أعظم نبيّ بعد النبي موسى، وكانت وفاته قبل قرن من السّبي البابلي (٥٨٧-٥٨٦ ق. م) على يد الملك البابلي نبوخذ نصر الثاني.

يأتي كتابه ضمن أسفار العهد القديم، أي التّنخ، وفيه يحكي رؤيا نبويّة رآها، وهي رؤيا طويلة، وفيها الكثير من التفاصيل والأحداث، ويحذّر -من خلالها- بني إسرائيل وملوكهم من أحداثٍ مأساويةٍ ومدمّرةٍ ستعصفُ بهم إنْ أصروا على الشّرك والعصيان والطّغيان والإفساد في الأرض.

وفي التفاصيل -التي سنختصرها ونُعيد عرضها بالترتيب المناسب- ما يتوافق بشكل

واضح مع جانبٍ مما جاء في آيات سورة الإسراء، وهو المتعلّق بالإفساد الأوّل ونتائجه وتبعاته، كما ونلاحظ هذا التوافق -أيضاً- في بعض التوصيفات المستعملة في النصّين، في سورة الإسراء وفي سفر إشعياء، مع الأخذ في الاعتبار أن أسلوب هذا السّفر أدبيّ مليء بالعبارات المجازية.

الكتاب الثاني الذي يُكمل صورة الأحداث المذكورة في سورة الإسراء هو سفر إرميا، وصاحبه من أنبياء بني إسرائيل (ت ٥٨٧ ق.م)، بُعث في المرحلة التي شهدت سيطرة البابليين على بلاد ما بين النهرين وتعاظّم قوّتهم وتمدّد غزواتهم وتحالفاتهم الإقليمية، في حين بدأ بنو إسرائيل بالانحطاط من جديد على مستوى الإيمان والعمل، وعادوا إلى سيرتهم السابقة من الشّرك والعصيان والطغيان والإفساد في الأرض، فحمل إرميا الرسالة وهو شاب صغير في السنّ، وواجه بها الملك والشعب، مُنذراً بالضربة الإلهية القاصمة التي ستكون على يد البابليّين، ولكن بخسائر تفوق تلك التي نزلت ببني إسرائيل على عهد النبي إشعياء. وتتناول الإصحاحات الأولى من هذا السّفر وصفاً لما آلت إليه أوضاع بني إسرائيل والخطر الذي يتهدّدهم.

وقبل أن نحلّل النصّين المشار إليهما، لابدّ من التمهيد بعرض تاريخي موجز يشرح أوضاع بني إسرائيل وعلاقتهم بالامبراطوريتين الآشورية والبابلية، والأسباب التي أدّت إلى غزو ديارهم بصورة متكرّرة، والأحداث الكارثية التي نزلت بهم خلال عهد هاتين الامبراطوريتين الرافدينيتين المتعاقبتين.

• عرض تاريخي موجز:

على عهد النبي إشعياء، كانت دولة الآشوريين في بلاد ما بين النهرين إحدى الدول

العظمى في المنطقة، وشكّلت أوّل إمبراطورية في التاريخ البشري، وكانت لبني إسرائيل دولتان، شمالية تُعرف بمملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة، وأخرى جنوبية تُعرف بمملكة يهوذا، وعاصمتها أورشليم القدس، وبينهما صراع طويل، وحروب ممتدة، وعداء شديد.

وفيما كانت مملكتا إسرائيل ويهوذا تُعلنان الولاء ظاهرياً للإمبراطورية الآشورية، وتدفعان لها الجزية، إلا أنهما كانتا تتمردان عليها من حينٍ إلى آخر، وتدخلان في تحالفات إقليمية تستفزّها، وهو ما كان يدفع بالآشوريين لشن حروب «تأديبية» تُعيد الأوضاع لصالحها، وتفرض من خلال ذلك المزيد من الأتاوات، وتجديد الولاء للإمبراطورية، ولو بصورة مؤقتة. وفي سنة ٧٢٥ ق.م، أعلنت مملكة إسرائيل الشمالية -من جديد- تمرداً على الآشوريين، وذلك بعد دخولها في حلف مع المصريين، فكان ردّ الفعل الآشوري قاسياً على المنطقة بأسرها، إذ اجتاحت الملك الآشوري «شلمنصر الخامس» مملكة إسرائيل، وأحرق جميع المدن المحيطة بالسامرة، والمدن السورية التي اشتركت معها في هذا التمرد، ودمرها، في القوات الذي لم يلتزم فيه المصريون بوعودهم السابقة بالتدخل لإنقاذ حلفائهم. [انظر اللوحة رقم ٣٧]

وأما السامرة نفسها، فقد واجهت حصاراً لمدة ثلاث سنوات، انتهت بالاستسلام للغزاة في سنة ٧٢٢ ق.م. واختلف المؤرخون في اسم الملك الآشوري الذي استسلمت السامرة على عهده، هل هو «شلمنصر الخامس» أم خليفته «سرجون الثاني»، ومن المحتمل جداً أنّ الأوّل قد مات خلال فترة الحصار، فصار قائد الحملة «سرجون الثاني» ملكاً من بعده. بادر سرجون الثاني إلى نقل الآلاف من أبناء مملكة إسرائيل،



اللوحة رقم ٣٧: أطلال مدينة السامرة

وأسكنهم مناطق بعيدة في بلاد «ميديا»^(١) ومنطقة كوزان الواقعة بين نهر البليخ^(٢) ونهر الخابور^(٣)، فيما أحلّ مكانهم سكّاناً جلبهم من بابل ومناطق أخرى من امبراطوريته، ومن بينهم بعض القبائل العربيّة التي كانت تستوطن شمال الجزيرة العربيّة، فامتزج القادمون الجدد مع اليهود القاطنين في تلك المنطقة، وتأثروا بدينهم

١. ميديا: كيان سياسي ضمن الحدود الجغرافية لإيران الحالية، وتمركز في مدينة إكباتان (همدان)، واستمرّ من القرن السابع قبل الميلاد حتى منتصف القرن السادس قبل الميلاد، ويُعتقد أنه هيمن على جزء كبير من الهضبة الإيرانية، قبل ظهور الامبراطورية الأخمينية القوية.

٢. نهر البليخ: نهر في سوريا يتّبع من قرية عين العروس الواقعة على مسافة ٣ كم جنوب مدينة تل أبيض، في محافظة الرقة بالقرب من الحدود السورية التركية.

٣. نهر الخابور: نهر ينبع من جنوب تركيا بالقرب من الحدود السورية ثم يعبر الحدود جنوباً إلى سوريا من مدينة رأس العين شمال محافظة الحسكة.

التوحيدى، كما تأثر اليهود ببعض معتقدات الوافدين من بلاد ما بين النهرين، وكونوا جماعة دينية تُعرف إلى اليوم باسم «السامريين»، وموطنهم الحالي مدينة نابلس في الضفة الغربية، وهم يؤمنون بأسفار التوراة الخمسة دون سائر كتب التنخ، ويعتقدون بأن بيت الرب يقع على جبل «جرزيم» جنوب نابلس، وليس في القدس، ولهم عقيدة خاصة بالكواكب والنجوم وتأثيراتها، والأرجح أن ذلك يعود إلى تأثرهم -منذ ذلك العصر- بالبابليين الذين عُرف عنهم ذلك عبر التاريخ. [انظر اللوحات رقم ٣٨-٤٠]

أعقب هذه الأحداث تمرّد ملك يهوذا سنة ٧١١ ق.م على الملك سرجون الثاني، ثم تمرّد آخر سنة ٧٠٥ ق.م بعد تولّى «سنحاريب» عرش الامبراطورية، فتعرّضت أورشليم «القدس» إلى الحصار، ولكن تضاربت الروايات حول ما جرى بعد ذلك.

فرواية التنخ تذكر أن الله أرسل ملاكاً قتل مائة وخمسة وثمانين ألفاً من جيش الآشوريين، فقام سنحاريب بفكّ الحصار وعاد إلى نينوى، أما الرواية الآشورية فتذكر أن الملك اليهودي «حزقيا» استسلم للآشوريين، وقدم جزيّة ضخمة، وأعلن ولاءه لهم بعد أن تمكّنوا من فرض سيطرتهم على ست وأربعون مدينة مجاورة لمدينة القدس، وجميع القرى المحيطة بها، فدمّروا وقتلوا وسبوا بعض أهلها.

وفي حين بدأت أوضاع الامبراطورية الآشورية بالتدهور تدريجياً، كان «يوشياهو» (ت ٦٠٨ ق.م) قد تولّى عرش مملكة يهوذا، ومدّ نفوذ دولته إلى إقليم إسرائيل الشمالي، وأعلن استقلاله عن الدولة الآشورية، وأخذ يوسّع مملكته على حساب الممالك القريبة^(١). وبعد سقوط الامبراطورية الآشورية، سيطر البابليون على بلاد الرافدين،

١. للمزيد انظر التطورات السياسية لبلاد الرافدين القديمة: كاظم جبر سلمان: ص ٥٠-٧٦. على

الرابط الإلكتروني: <https://almerja.com/reading.php?idm=65745>



اللوحة رقم ٣٨ : من آثار الميدين



اللوحة رقم ٣٩ : سامريون يقيمون طقوسهم الدينية على جبل جرزيم



اللوحة رقم ٤٠ : سامريون يقيمون طقوسهم الدينية على جبل جرزيم

وأطلق ملكها «نابو بولاصر = نبو بو لاسر^(١)» في عام ٦٠٨ قبل الميلاد حملاته العسكرية في الإقليم، وفي السنة التالية كان ابنه «نبوخذ نصر الثاني^(٢)» يقود عمليات أخرى امتدّت إلى مملكة يهوذا، وتغلّب عليها، ولكنه اضطرّ إلى العودة إلى بابل لوراثة عرش أبيه وترتيب أوضاع الحكم.

ومع تكرّر تمرد اليهود، غزا نبوخذ نصر الثاني مملكتهم في سنة ٥٩٧ ق.م، واستولى على القدس، ودمّر وقتل وأسر، وسبق الملك اليهودي مع أفراد أسرته وكبار موظفيه ونُخبّة من السكّان أسرى إلى بابل، وقُدّر عددهم بأكثر من ثلاثة آلاف أسير. وقام نبوخذ نصر الثاني بتعيين ملك جديد على يهوذا، وأطلق عليه لقب «صدقيا».

١. فُسّر هذا اللقب بمعنى (الإله) نابو احم (حامي) ابني.

٢. فُسّر هذا اللقب بمعنى (الإله) نابو حامي الحيى.

فانقسم المجتمع اليهودي إلى قسمين، أحدهما مؤيد للملك الأسير، والآخر مؤيد للملك الجديد الذي انضم إلى تحالف مصري - عموني - فينيقي^(١)، ممّا دفع بالملك البابلي إلى إرسال قواته إلى المنطقة، فأخضع مدن فينيقية، وحاصر مدينة صور، ثم دخل أراضي مملكة يهوذا مُدمراً الحصون والقلاع، وضرب حصاراً على أورشليم «القدس» عام ٥٨٩ قبل الميلاد، واستمر إلى أن سقطت المدينة في ٥٨٧ أو ٥٨٦، فدُمّرت وأحرقت بما في ذلك سورها وقصر الملك وهيكل سليمان الذي سُلِبَت كنوزُه وأمتعته الثمينة ونُقلت إلى بابل، وتمّ القبض على الملك صدقيا، واقتيد ليشهد مصرع ابنه أمام ناظره قبل أن تُفقأ عيناه ويُقاد أسيراً إلى بابل مع أكثر من ٨٠٠ أسير. وبعد ست سنوات، تمّ سبي أكثر من ٧٠٠ أسير آخر^(٢). [انظر اللوحة رقم ٤١]

بعد هذا العرض الموجز، ننتقل لتحليل النصّين الكتابيّين، بحثاً عن التطابق الإجمالي مع ما جاء في سورة الإسراء.

• الوعيد في سفر إشعياء:

يبدأ الإصحاح الأول من هذا السّفر بتقديم صورة عامّة لأوضاع بني إسرائيل بعد تماديهم في الشّرك والعصيان إلى أقصى حدّ، والضربة التي ستوجّه إليه فتدمّر بلادهم وتُعرضهم للقتل دون أن تُفنيهم، إذ ستُبقى منهم باقية أُملاً في أن يخوضوا تجربة جديدة يعودون من خلالها إلى توحيد الله وطاعته والإصلاح في الأرض بعد إفسادها: (٤) وَيَلْ لِلأُمَّةِ الْخَاطِئَةِ، الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الْإِثْمِ، نَسْلٍ فَاعِلٍ الشَّرِّ، أَوْلَادٍ مُفْسِدِينَ! تَرَكُوا الرَّبَّ، اسْتَهَانُوا بِقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ، ارْتَدُّوا إِلَى وَرَاءِ. ٥ عَلَى مَ تَضْرِبُونَ بَعْدُ؟ تَزْدَادُونَ زَيْغَانًا!

١. فهو تحالف شمل مصر وبعضاً من لبنان والأردن.

٢. للمزيد انظر دول وحضارات الشرق العربي القديم لمحمد حرب و عيد مرعي، ص ٢٠٠-٢٠٩.



اللوحه رقم ٤١ : رُقم يصف أحداث الغزو - ورأس تمثال لنابو بولاصر

كُلُّ الرَّأْسِ مَرِيضٌ، وَكُلُّ الْقَلْبِ سَقِيمٌ. ٦ مِنْ أَسْفَلِ الْقَدَمِ إِلَى الرَّأْسِ لَيْسَ فِيهِ صِحَّةٌ،
بَلْ جُرْحٌ وَأَحْبَاطٌ وَضَرْبَةٌ طَرِيَّةٌ لَمْ تُعْصَرْ وَلَمْ تُعْصَبْ وَلَمْ تُكَلَّيَنَّ بِالزَّيْتِ. ٧ بِلَادُكُمْ
خَرِبَةٌ. مُدُنُكُمْ مُحْرَقَةٌ بِالنَّارِ. أَرْضُكُمْ تَأْكُلُهَا غُرَبَاءُ قُدَّامَكُمْ، وَهِيَ خَرِبَةٌ كَانْفِلَابٍ
الْغُرَبَاءِ. ٨ فَبَقِيَتِ ابْنَةُ صِهْيَوْنَ كِمِظْلَةٍ فِي كَرَمٍ، كَخَيْمَةٍ فِي مَقْتَاةٍ^(١)، كَمَدِينَةٍ مُحَاصَرَةٍ.
٩ لَوْلَا أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ أَبْقَى لَنَا بَقِيَّةً صَغِيرَةً، لَصِرْنَا مِثْلَ سَدُومَ وَشَابَهْنَا عَمُورَةَ^(٢) وهما
المدينتان اللتان أفنيتا تماماً على عهد النبي لوط «عليه السلام»، ولم ينج منها إلا لوط
وقليل ممن معه. ثم يستمر النص في وصف أحوال بني إسرائيل وجرائمهم التي من
أجلها استحقوا هذا العقاب... هذه هي خلاصة المشهد الأول.

١. المقتاة: حقل قثاء (الخيار). أي صارت بلادهم مؤقتة غير مستقرة، وهي وحيدة ومكشوفة، إذ
خرب ما حولها. والعبارات كناية عن كون بلادهم مكشوفة للغزاة، ودولتهم معرضة للزوال للأمد.

٢. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ١١، ٩-١٠.

بعد هذا الوصف الإجمالي لما يتهدد بني إسرائيل، يبدأ الإصحاح الثاني وما بعده في تقديم وصفٍ تفصيلي لأوضاعهم قبل تحقق الوعد الأول، ولنعم الله المعنوية والمادية الوفيرة التي كانت لا تُعدّ ولا تُحصى، نستعرضها ضمن النقاط التالية:

١. تحوّل بيت الله في القدس إلى مركز إيماني: يقصده الناس من كل مكان، طمعاً في الهداية، ورغبة في نيل المعارف الشرعية، واحتكاماً عنده في منازعاتهم: (٢) وَيَكُونُ فِي آخِرِ الْأَيَّامِ أَنَّ جَبَلَ بَيْتِ الرَّبِّ يَكُونُ ثَابِتًا فِي رَأْسِ الْجِبَالِ، وَيَرْتَفِعُ فَوْقَ الثَّلَالِ، وَتَجْرِي إِلَيْهِ كُلُّ الْأُمَمِ. ٣ وَتَسِيرُ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ، وَيَقُولُونَ: «هَلُمَّ نَصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ، إِلَى بَيْتِ إِلَهِ يَعْقُوبَ، فَيُعَلِّمَنَا مِنْ طُرُقِهِ وَنَسْلِكَ فِي سُبُلِهِ». لِأَنَّهُ مِنْ صِهْيُونَ تَخْرُجُ الشَّرِيعَةُ، وَمِنْ أُورُشَلِيمَ كَلِمَةُ الرَّبِّ. ٤ فَيَقْضِي بَيْنَ الْأُمَمِ وَيُنْصِفُ لِشُعُوبٍ كَثِيرِينَ^(١).

٢. تحقيق الأمن والسلام: (٤)... فَيَطْبَعُونَ سُيُوفَهُمْ سِكِّكًا وَرِمَاحَهُمْ مَنَاجِلَ لَا يَعُودُونَ بِحَاجَةٍ إِلَى السِّلَاحِ كَالسِّيفِ وَالرَّمْحِ، وَلِذَا يَحُولُونَهُ إِلَى أَدَوَاتٍ زَرَاعِيَّةٍ (لَا تَرْفَعُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ سَيْفًا، وَلَا يَتَعَلَّمُونَ الْحَرْبَ فِي مَا بَعْدُ)^(٢).

٣. الرخاء الاقتصادي: (٧) وَامْتَلَأَتْ أَرْضُهُمْ فَضَةً وَذَهَبًا وَلَا نِهَآيَةَ لِكُنُوزِهِمْ، وَامْتَلَأَتْ أَرْضُهُمْ خَبَلًا وَلَا نِهَآيَةَ لِمَرْكَبَاتِهِمْ^(٣). وبدلاً من أن يشكروا الله، إذا بهم يُشركون ويعصون ويرتكبون صوراً من الظلم والطغيان والفساد، ومن بينها:

أ. حبّ المال حباً جماً: فكان الجشع يدفعهم إلى التنازل عن قيمهم، ومظاهر التوحيد في بلادهم، بما في ذلك الأرض المقدسة - بيت المقدس - إذ سمحوا للمشرّكين بأن ينصبوا

١. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٢، ٣-٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٢، ٤.

٣. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٢، ٧.

أصنامهم في الطرقات عياناً، وأن يُمارسوا شعائرهم الوثنيّة جهاراً، بما أدّى إلى تأثر اليهود أنفسهم بتلك المعتقدات الباطلة والطقوس الشّركية، والسّقوط في المعصية الكبرى: (٨) وَامْتَلَأَتْ أَرْضُهُمْ أَوْثَانًا. يَسْجُدُونَ لِعَمَلِ أَيْدِيهِمْ لِمَا صَنَعَتْهُ أَصَابِعُهُمْ. ٩ وَيَنْخَفِضُ الْإِنْسَانُ، وَيَنْظَرُ الرَّجُلُ^(١).

ب. انتشار الفساد بين رجال الدين: (١٢) ... يَا شَعْبِي، مُرْشِدُوكَ مُضِلُّونَ، وَيَبْلَعُونَ طَرِيقَ مَسَالِكِكَ^(٢).

ج. اغتصاب حقوق المستضعفين من قبلِ عليّة القوم: وتتنوع النصوص الدالة على ذلك في إصحاحات عدّة، ففي الإصحاح الثالث: (١٤) الرَّبُّ يَدْخُلُ فِي الْمَحَاكِمَةِ مَعَ شُيُوخِ شَعْبِهِ وَرُؤَسَائِهِمْ: «وَأَنْتُمْ قَدْ أَكَلْتُمُ الْكَرَمَ. سَلَبَ الْبَائِسُ فِي بُيُوتِكُمْ. ١٥ مَا لَكُمْ تَسْحَقُونَ شَعْبِي، وَتَطْحَنُونَ وُجُوهَ الْبَائِسِينَ؟ يَقُولُ السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ»^(٣). وفي الإصحاح الخامس: (٢٣) الَّذِينَ يُبَرِّرُونَ الشَّرَّيرَ مِنْ أَجْلِ الرُّشُوءِ، وَأَمَّا حَقُّ الصَّادِقِينَ فَيَنْزِعُونَهُ مِنْهُمْ^(٤).

وفي الإصحاح العاشر: (١) وَيَلْ لِلَّذِينَ يَقْضُونَ أَقْضِيَةَ الْبُطْلِ، وَلِلْكَتَبَةِ الَّذِينَ يُسْجَلُونَ جَوْرًا ٢ لِيَصُدُّوا الضُّعَفَاءَ عَنِ الْحُكْمِ، وَيَسْلُبُوا حَقَّ بَائِسِي شَعْبِي، لِتَكُونَ الْأَرَامِلُ غَنِيمَتَهُمْ وَيَنْهَبُوا الْيَتَامَ^(٥).

د. انحراف النساء، وتخليهن عن العقّة: (١٦) وَقَالَ الرَّبُّ: «مِنْ أَجْلِ أَنْ بَنَاتِ صِهْيُونِ

١. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ١، ٨-٩.

٢. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ١، ١٢.

٣. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٣، ١٤-١٥.

٤. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٥، ٢٣.

٥. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ١٠، ١-٢.

يَنْشَاحُنْ، وَيَمْشِينَ مَمْدُودَاتِ الْأَعْنَاقِ، وَغَامِزَاتِ بُعْيُونِهِنَّ، وَخَاطِرَاتٍ فِي مَشْيِهِنَّ، وَيُحْشِخِشْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ^(١).

هـ انتشار صور الفسق والفجور والتلوي عن ذكر الله ليلاً ونهاراً: (١١) وَيُلِّ لِلْمُبَكِّرِينَ صَبَاحًا يَتَّبِعُونَ الْمُسْكِرَ، لِلْمُتَأَخِّرِينَ فِي الْعَتَمَةِ تُلْهِبُهُمُ الْحُمْرُ. ١٢ وَصَارَ الْغُودُ وَالرَّبَابُ وَالْدَّفُّ وَالنَّائِي وَالْحُمْرُ وَلَا يَمَهُمُ، وَإِلَى فَعَلِ الرَّبِّ لَا يَنْظُرُونَ، وَعَمَلَ يَدَيْهِ لَا يَرَوْنَ^(٢).

وكان نتيجة ذلك كله أن حلّ عليهم غضبُ الله، ومن مظاهر ذلك الغضب:

١. تآكل بلادهم من الداخل: ونزع البركة وأسباب الرخاء منها، وفقدان خيرة الناس وأفضل أهل الخبرة في المجالات المختلفة: (١) فَإِنَّهُ هُوَذَا السَّيِّدُ رَبُّ الْجُنُودِ يَنْزِعُ مِنْ أُورُشَلِيمَ وَمِنْ يَهُودَا السَّنَدَ وَالرُّكْنَ، كُلُّ سَنَدٍ خُبْزٍ، وَكُلُّ سَنَدٍ مَاءٍ. ٢ الْجَبَّارَ وَرَجُلَ الْحَرْبِ. الْقَاضِيَّ وَالنَّيَّ وَالْعَرَّافَ وَالشَّيْخَ. ٣ رَئِيسَ الْخُمْسِينَ وَالْمُعْتَبَرَ وَالْمُشِيرَ، وَالْمَاهِرَ بَيْنَ الصَّنَاعِ، وَالْحَادِقَ بِالرُّقِيَّةِ^(٣).

٢. تسلط الصبيان على الحكم: (٤) وَأَجْعَلُ صُبْيَانًا رُؤَسَاءَ لَهُمْ، وَأَطْفَالًا تَتَسَلَّطُ عَلَيْهِمْ^(٤)..... (١٢) شَعْبِي ظَالِمُوهُ أَوْلَادٌ، وَنِسَاءٌ يَتَسَلَّطْنَ عَلَيْهِ^(٥).

٣. بروز النزاعات بين الأفراد وطبقات المجتمع: (٥) وَيَظْلِمُ الشَّعْبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا،

١. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٤، ١٦. وقد ورد النهي عن مثل هذا في القرآن حيث قال «سبحانه»: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ...﴾ سورة النور: ٣١.

٢. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٥، ١١-١٢.

٣. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٢، ٣-١.

٤. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٢، ٤.

٥. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٣، ١٢.

وَالرَّجُلُ صَاحِبُهُ. يَتَمَرَّدُ الصَّبِيُّ عَلَى الشَّيْخِ، وَالذَّنِيءُ عَلَى الشَّرِيفِ^(١).

٤. فقدان النَّعَم ومظاهر الرخاء: من خلال الحروب والنزاعات والأوبئة، وسلب الصحة والعافية منهم، وتفشي الموت العاجل وامتداد الأحزان: (١٧ يُصْلَعُ السَّيِّدُ هَامَةً بَنَاتِ صِهْيُونَ، وَيُعَرِّي الرَّبُّ عَوْرَتَهُنَّ. ١٨ يَنْزِعُ السَّيِّدُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ زِينَةَ الْخَلَائِيلِ وَالضَّفَائِرِ وَالْأَهْلَةِ، ١٩ وَالْخَلْقِ وَالْأَسَاوِرِ وَالْبَرَاقِعِ ٢٠ وَالْعَصَائِبِ وَالسَّلَاسِلِ وَالْمَنَاطِقِ وَحَنَاجِرِ الشَّمَامَاتِ^(٢) وَالْأَحْرَازِ، ٢١ وَالْحَوَاتِمِ وَخَزَائِمِ الْأَنْفِ، ٢٢ وَالثِّيَابِ الْمَزْخَرَفَةِ وَالْعُظْفِ وَالْأَرْدِيَةِ وَالْأَكْيَاسِ، ٢٣ وَالْمَرَائِي وَالْقُمْصَانِ وَالْعَمَائِمِ وَالْأُزُرِ. ٢٤ فَيَكُونُ عَوَضُ الطَّيِّبِ عُقُونَةً، وَعَوَضُ الْمِنْطَقَةِ حَبْلًا، وَعَوَضُ الْجَدَائِلِ قَرَعَةً، وَعَوَضُ الدِّيَبَاجِ زُنَارُ مِسْجٍ^(٣)، وَعَوَضُ الْجَمَالِ كَيْ^(٤) ٢٥ رِجَالِكِ يَسْقُطُونَ بِالسَّيْفِ، وَأَبْطَالُكَ فِي الْحَرْبِ. ٢٦ فَتَتَيْنَ وَتَنُوحُ أَبْوَابُهَا، وَهِيَ فَارِغَةٌ تَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ)^(٥).

٥. لا تعود بلادهم مهوى لأفئدة الناس: ولا مقصدًا للتجارة، وتخلو البيوت من ساكنيها بموتهم، وتخرب بساتينهم وحقولهم: (٨ وَيَلُّ لِلَّذِينَ يَصِلُونَ بَيْتًا بَيْتًا، وَيَقْرِنُونَ حَقْلًا بِحَقْلٍ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَوْضِعٌ) هكذا كانت أوضاعهم قبل الخراب.. فماذا سيحلُّ بها؟ (فَصِرْتُمْ تَسْكُنُونَ وَحَدُكُمْ فِي وَسْطِ الْأَرْضِ. ٩ فِي أُذُنِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: «أَلَا إِنَّ بُيُوتًا كَثِيرَةً تَصِيرُ خَرَابًا. بُيُوتًا كَبِيرَةً وَحَسَنَةً بِلَا سَاكِنٍ)^(٦).

١. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٢، ٥.

٢. المنطقة: الحزام الذي يشد به الوسط. حناجر الشمامات: صناديق العطور.

٣. الزنار: الحزام. والمسح: لباس خشن مصنوع من شعر الماعز يلبسه الرهبان.

٤. الكي دليل على وجود مرض، وهو يشوّه الملامح.

٥. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٣، ١٧-٢٦.

٦. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٥، ٨-٩.

٦. يصيرون غرضاً للأعداء ومقصداً للغزو والسبي: (١٣) لِيَذِلَّ سَيْي شَعْبِي لِعَدَمِ الْمَعْرِفَةِ، وَتَصِيرُ شَرَفَاؤُهُ رِجَالُ جُوعٍ، وَعَامَّتُهُ يَابِسِينَ مِنَ الْعَطَشِ.. ١٥ وَيَذِلَّ الْإِنْسَانُ وَيُحْطُّ الرَّجُلُ، وَعُيُونُ الْمُسْتَغْلِينَ تُوضَعُ^(١).

ويعقب ذلك كله الحديث عن الوعيد الإلهي الأول: (٢٥) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَمِي غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى شَعْبِهِ، وَمَدَّ يَدُهُ عَلَيْهِ وَضَرَبَهُ، حَتَّى ارْتَعَدَتِ الْجِبَالُ وَصَارَتْ جُثُثُهُمْ كَالزَّبَلِ فِي الْأَرَقَةِ. مَعَ كُلِّ هَذَا لَمْ يَرْتَدَّ غَضَبُهُ، بَلْ يَدُهُ مَمْدُودَةٌ بَعْدَ^(٢). ٢٦ فَيَرْفَعُ رَأْيَهُ لِلْأُمَمِ مِنْ بَعِيدٍ، وَيَصْفِرُ لَهُمْ مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ، فَإِذَا هُمْ بِالْعَجَلَةِ يَأْتُونَ سَرِيعًا. ٢٧ لَيْسَ فِيهِمْ رَازِحٌ وَلَا عَاثِرٌ. لَا يَنَعَسُونَ وَلَا يَنَامُونَ، وَلَا تَنَحُلُ حُزْمُ أَحْقَائِهِمْ، وَلَا تَنْقَطِعُ سُبُورُ أَحْدِيَّتِهِمْ. ٢٨ الَّذِينَ سَهَمُهُمْ مَسْنُونَةٌ، وَجَمِيعُ قَسِيَّتِهِمْ مَمْدُودَةٌ. حَوَافِرُ خَيْلِهِمْ تُحْسَبُ كَالصَّوَانِ، وَبَكَرَاتُهُمْ كَالزُّوْبَعَةِ. ٢٩ لَهُمْ رَمْجَةٌ كَاللَّبَوَةِ، وَيُزْجِرُونَ كَالشَّيْلِ، وَيَهْرُونَ وَيُمْسِكُونَ الْقَرِيصَةَ وَيَسْتَخْلِصُونَهَا وَلَا مُنْقَذَ. ٣٠ يَهْرُونَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ كَهَدِيرِ الْبَحْرِ. فَإِنْ نُظِرَ إِلَى الْأَرْضِ فَهِيَ ظِلَامٌ ضَيِّقٌ، وَالتُّورُ قَدْ أَظْلَمَ بِسُحْبِهَا^(٣). هكذا سينقض عليهم أعداؤهم من أكثر من جهة، فيدمرون بلادهم، ويقتلونهم شر قتلة. وقد تحقق ذلك على يد الامبراطور الآشوري كما بيّنا ذلك سابقاً. وما سبق ينطبق على ما في قوله «تعالى»: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾.

وفي النصوص اللاحقة من هذا السفر بيان لغضب الله على الآشوريين الوثنيين الذين اعتبروا أنّ انتصارهم على بني إسرائيل وإذلالهم بمثابة هزيمة لإله بني إسرائيل

١. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٥، ١٣-١٥.

٢. كما قال «سبحانه»: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾.

٣. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ٥، ٢٥-٣٠.

ولعقيدة التوحيد، وأنهم جعلوا عقيدة الشّرك هي العليا وكلمة التوحيد هي السفلى. فأنزل الله بهم عقاباً أليماً، وتخلّص بنو إسرائيل من قهرهم وجبروتهم، وما عادوا خاضعين أذلاء للآشوريين، وثابوا إلى الله، وحسنت سيرتهم: (١٧) وَيَصِيرُ نُورُ إِسْرَائِيلَ نَارًا وَقُدُوسُهُ لَهِيْبًا، فَيُحْرِقُ وَيَأْكُلُ حَسَكَهُ وَشَوْكُهُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ) أي يتهشم كبرياء الآشوريين وتتحطم قوتهم في فترة زمنية قصيرة (١٨) وَيُفْنِي مَجْدَ وَغَرِهِ وَبُسْتَانِهِ، النَّفْسَ وَالْجَسَدَ جَمِيعًا. فَيَكُونُ كَذَوْبَانِ الْمَرِيضِ. ١٩ وَبَقِيَّةُ أَشْجَارٍ وَغَرِهِ تَكُونُ قَلِيلَةً حَتَّى يَكْتُبَهَا صَيٌّ) كناية عن قلة عدد من سبقي من الآشوريين، إذ يفني الله جيشهم ولا يبقى إلا عدد قليل منهم، هذا من جهة العدد، أمّا من جهة القوة سيفقدون طاقتهم النفسية والجسدية، ويكونون كمصابٍ بالسلّ إذ يذوب من الداء الويل.

(٢٠) وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ بَقِيَّةَ إِسْرَائِيلَ وَالنَّاجِينَ مِنْ بَيْتٍ يَعْقُوبَ لَا يَعُودُونَ يَتَوَكَّلُونَ أَيْضًا عَلَى صَارِبِهِمْ) ولا يعودون خاضعين أو موالين لهم (بَلْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى الرَّبِّ قُدُوسِ إِسْرَائِيلَ بِالْحَقِّ. ٢١ تَرْجِعُ الْبَقِيَّةُ، بَقِيَّةُ يَعْقُوبَ، إِلَى اللَّهِ الْقَدِيرِ. ٢٥ لَأَنَّهُ بَعْدَ قَلِيلٍ جِدًّا يَتِمُّ السَّخَطُ وَغَضَبِي فِي إِبَادَتِهِمْ»^(١) أي إبادة الآشوريين.

وهكذا يعود بنو إسرائيل إلى الله «تعالى»، ويعمّ فيهم العدل والأمن والرخاء: (١١) وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ السَّيِّدَ يُعِيدُ يَدَهُ ثَانِيَةً لِيَقْتَنِي بَقِيَّةَ شَعْبِهِ، الَّتِي بَقِيَتْ، مِنْ أَشُورَ، وَمِنْ مِصْرَ، وَمِنْ فَتْرُوسَ، وَمِنْ كُوشَ، وَمِنْ عِيلَامَ، وَمِنْ شِنْعَارَ^(٢)، وَمِنْ حَمَاةَ، وَمِنْ جَزَائِرِ الْبَحْرِ. ١٢ وَيَرْفَعُ رَايَةً لِلْأُمَمِ، وَيَجْمَعُ مِنْفِي إِسْرَائِيلَ، وَيَضُمُّ مُشْتَتِي

١. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ١٠، ١٧-٢٥.

٢. فتروس: صعيد مصر - كوش: النوبة وشمال السودان، وقيل الحبشة - شنعار: جانب من جنوب العراق نواحي الحلة (بابل).

يَهُودًا مِنْ أَرْبَعَةِ أَطْرَافِ الْأَرْضِ^(١). وهذا ما ينطبق على حال بني إسرائيل بعد انتهاء الوعيد الأول، إذ تعود إليهم قوتهم وبأسهم، ويزداد عددهم، ويمتلكون إمكاناتٍ أكثرَ وأكبرَ من تلك التي كانت عندهم قبل تحقق الوعيد الأول بهم، ويبدأون في غزو البلاد المحيطة بهم، فيتغلبون عليها ويسيطرون على مقدراتها: (١٤) وَيَنْقَضَانِ عَلَى أَكْثَافِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ غَرْبًا، وَيَنْهَبُونَ بَنِي الْمَشْرِقِ مَعًا. يَكُونُ عَلَى أَدُومَ وَمُؤَابَ امْتِدَادُ يَدَيْهِمَا، وَبَنُو عَمُونَ فِي طَاعَتِهِمَا. ١٥ وَيُبِيدُ الرَّبُّ لِسَانَ بَحْرِ مِصْرَ، وَيَهْزِي يَدَهُ عَلَى التَّهْرِ بِقُوَّةِ رِيحِهِ، وَيَضْرِبُهُ إِلَى سَبْعِ سَوَاقٍ، وَيُجِيزُ فِيهَا بِالْأَحْذِيَةِ. ١٦ وَتَكُونُ سِكَّةٌ لِبَقِيَّةِ شَعْبِهِ الَّتِي بَقِيَتْ مِنْ أَشُورَ، كَمَا كَانَ لِإِسْرَائِيلَ يَوْمَ صُغُورِهِ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ^(٢).

بل ويمتد تأثير قوة دولة بني إسرائيل في مقابل ضعف الدولة الآشورية والمصرية أن يدخلوا في تحالفٍ ثلاثي، ينتج عنه انتشار دين التوحيد في مصر وأشور: (٢١) فَيُعْرِفُ الرَّبُّ فِي مِصْرَ، وَيَعْرِفُ الْمِصْرِيُّونَ الرَّبَّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَيُقَدِّمُونَ ذَبِيحَةً وَتَقْدِمَْةً، وَيَنْدُرُونَ لِلرَّبِّ نَذْرًا وَيُوفُونَ بِهِ. ٢٢ وَيَضْرِبُ الرَّبُّ مِصْرَ ضَارِبًا فَشَافِيًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى الرَّبِّ فَيَسْتَجِيبُ لَهُمْ وَيَشْفِيهِمْ. ٢٣ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَكُونُ سِكَّةٌ مِنْ مِصْرَ إِلَى أَشُورَ، فَيَجِيءُ الْأَشُورِيُّونَ إِلَى مِصْرَ وَالْمِصْرِيُّونَ إِلَى أَشُورَ، وَيَعْبُدُ الْمِصْرِيُّونَ مَعَ الْأَشُورِيِّينَ. ٢٤ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ إِسْرَائِيلُ ثُلْثًا لِمِصْرَ وَلَأَشُورَ، بَرَكَهٌ فِي الْأَرْضِ، ٢٥ بِهَا يُبَارِكُ رَبُّ الْجُنُودِ قَائِلًا: «مُبَارَكٌ شَعْبِي مِصْرُ، وَعَمَلُ يَدَيَّ أَشُورُ، وَمِيرَاثِي إِسْرَائِيلُ»^(٣).

كل ذلك إلى حين، حيث ستتبدل الأوضاع بمرور الزمان.

١. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ١١، ١١-١٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ١١، ١٤-١٦.

٣. الكتاب المقدس: سفر إشعياء، الإصحاح ١٩، ٢١-٢٥.

ونتوقف هنا عند ما جاء في سورة الإسراء عند الكلام عن الأوضاع السابقة على تحقق الوعيد الثاني، حيث قال «تعالى»: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ.....﴾ وإذا ضمنا إلى ذلك قوله: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۖ﴾ نلاحظ التقارب في الوصف مع ما جاء في سفر إشعياء عند الكلام عن عودة بني إسرائيل من الشتات، وتعاطف قوتهم.

• الوعيد في سفر إرميا:

المصدر الكتابي الثاني الذي يُكمل صورة الأحداث المذكورة في سورة الإسراء هو سفر إرميا، وتتناول الإصحاحات الأولى من هذا السفر وصفاً لما آلت إليه أوضاع بني إسرائيل، وخلاصة ذلك في العبارة التالية: (١١) لَأَنَّهُ خِيَانَةٌ خَانَنِي بَيْتُ إِسْرَائِيلَ وَبَيْتُ يَهُوذَا^(١) يَقُولُ الرَّبُّ^(٢). وتفصيل أوضاعهم قبل نزول العقاب:

أ. الشُّرك: والجحود والاستهانة بالوعد، وهي الركيزة الأساس لحيانتهم: (١٢) جَحَدُوا الرَّبَّ وَقَالُوا: لَيْسَ هُوَ، وَلَا يَأْتِي عَلَيْنَا شَرٌّ، وَلَا نَرَى سَيِّئًا وَلَا جُوعًا.... ١٩ «وَيَكُونُ حِينَ تَقُولُونَ: لِمَاذَا صَنَعَ الرَّبُّ إِلَهُنَا بِنَا كُلِّ هَذِهِ؟ تَقُولُ لَهُمْ: كَمَا أَنَّكُمْ تَرَكْتُمُونِي وَعَبَدْتُمْ آلِهَةً غَرِيبَةً فِي أَرْضِكُمْ، هَكَذَا تَعْبُدُونَ الْغُرَبَاءَ فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَكُمْ...»^(٣).

ب. ادّعاء النبوة: والكذب على الناس للتنفّع وتسويغ الفساد: (١٣) وَالْأَنْبِيَاءُ يَصِيرُونَ رِجًا، وَالْكَلِمَةُ لَيْسَتْ فِيهِمْ. هَكَذَا يُصْنَعُ بِهِمْ.....) فحيث تكلّموا بالباطل صاروا

١. بَيْتُ إِسْرَائِيلَ: المملكة الشمالية. وَبَيْتُ يَهُوذَا: المملكة الجنوبية.

٢. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٥، ١١.

٣. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٥، ١٢ و١٩.

باطلاً، كالرياح التي لا تدوم، تهبّ ثم تختفي. لقد حكم الله عليهم بالفناء (٣١) الأنبياءُ يتنبأون بالكذب، والكهنةُ تحكّم على أيديهم، وشعبي هكذا أحب. وماذا تعملون في آخرتها؟^(١).

ج. قسوة القلب: والجرأة على المعصية، والاستهانة بها (٢٠) أخبروا بهذا في بيت يعقوب وأسبعوا به في يهودا قائلين: ٢١ اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم، الذين لهم أعين ولا يبصرون. لهم آذان ولا يسمعون. ٢٢ أياي لا تخشون، يقول الرب؟ أولاً ترتعدون من وجهي؟ أنا الذي وضعت الرمل تحوفاً للبحر فريضةً أبديةً لا يتعداها، فتتلاطم ولا تستطيع، وتعجّ أمواجه ولا تتجاوزها. ٢٣ وصار لهذا الشعب قلب عاص ومتمرّد. عصوا ومضوا^(٢).

ونتيجة ذلك كله أن حل غضب الله على بني إسرائيل: (١٤) لذلك هكذا قال الرب إله الجنود: من أجل أنكم تتكلمون بهذه الكلمة، هأنذا جاعلٌ كلامي في فمك نارا) والخطاب هنا لإرميا النبي الذي يستجيب الله دعاءه على هؤلاء القوم الظالمين الفاسدين الجاحدين (وهذا الشعب خطباء، فتأكّلهم)^(٣). ويدعوهم الله للتوبة قبل حلول العقاب: (٨) تأدّي يا أورشليم لئلاّ تجفوك نفسي. لئلاّ أجعلك خراباً، أرضاً غير مسكونة..... ١٦ هكذا قال الرب: قفوا على الطرق وانظروا، واسألوا عن السبل القديمة: أين هو الطريق الصالح؟ وسيروا فيه، فتجدوا راحةً لأنفسكم^(٤).

ويتوالى الإنذار والتحذير قبل فوات الأوان مع بيان صور انحرافهم وفسادهم: (٩)

١. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٥، ١٣ و ٣١.

٢. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٥، ٢٠-٢٣.

٣. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٥، ١٤.

٤. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٦، ٨ و ١٦.

أَتَسْرِقُونَ وَتَقْتُلُونَ وَتَزْنُونَ وَتَخْلِفُونَ كَذِبًا وَتُبْخَرُونَ لِلْبَعْلِ، وَتَسِيرُونَ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا، ١٠ ثُمَّ تَأْتُونَ وَتَقْفُونَ أَمَامِي فِي هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ وَتَقُولُونَ: قَدْ أَتَقَدْنَا. حَتَّى تَعْمَلُوا كُلَّ هَذِهِ الرَّجَاسَاتِ؟ ١١ هَلْ صَارَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي دُعِيَ بِاسْمِي عَلَيْهِ مَعَارَةً لُصُوصٍ فِي أَعْيُنِكُمْ؟ هَآنَذَا أَيْضًا قَدْ رَأَيْتُ، يَقُولُ الرَّبُّ (١).

ولكن دون جدوى: (١٦).... وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: لَا نَسِيرُ فِيهِ!... ٢٨ كُلُّهُمْ عَصَاةٌ مَتَمَرِّدُونَ سَاعُونَ فِي الْوِشَايَةِ. هُمْ نُحَاسٌ وَحَدِيدٌ. كُلُّهُمْ مُفْسِدُونَ (٢). فلن يتراجعوا ولن يتوبوا قبل نزول العذاب، ولذا لن ينسخ الله الحكم الصادر بحقهم، وحق عليهم الوعيد والعذاب: (٢) وَلَمْ يَسْمَعْ هُوَ الْمَلِكُ وَلَا عَبِيدُهُ وَلَا شَعْبُ الْأَرْضِ لِكَلَامِ الرَّبِّ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ عَنْ يَدِ إِرْمِيَا النَّبِيِّ (٣).

ويبدأ النص في وصف القوة الغازية، جيش البابليين القوي الذي لا يعرف الرحمة، بقيادة نبوخذ نصر الثاني، الذي سيتحقق الوعيد على يديه: (١٥) هَآنَذَا أَجْلِبُ عَلَيْكُمْ أُمَّةً مِنْ بَعْدٍ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ، يَقُولُ الرَّبُّ. أُمَّةٌ قَوِيَّةٌ. أُمَّةٌ مِنْذُ الْقَدِيمِ. أُمَّةٌ لَا تَعْرِفُ لِسَانَهَا وَلَا تَفْهَمُ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. ١٦ جُعِبَتْهُمْ كَقَبْرِ مَفْتُوحٍ. كُلُّهُمْ جَبَابِرَةٌ (٤).

ثم يخبرهم عن المصير المهول الذي ينتظرهم نتيجة هذا الإصرار على الشرك والمعصية والتمادي في الغي:

١. استشرء القتل فيهم: (٣٢) لِذَلِكَ هَا هِيَ أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ الرَّبُّ، وَلَا يُسَمَّى بَعْدُ ثَوْفَةً

١. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٧، ٩-١١.

٢. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٦، ١٦ و ٢٨.

٣. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٣٧، ٢.

٤. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٥، ١٥-١٦.

وَلَا وَادِي ابْنِ هِنُومَ، بَلْ وَادِي الْقَتْلِ. وَيَذْفُونُ فِي تُوْفَةٍ حَتَّى لَا يَكُونَ مَوْضِعٌ. ٣٣
وَتَصِيرُ جُثَّتُ هَذَا الشَّعْبِ أَكْلاً لِطُيُورِ السَّمَاءِ وَلَوْحُوشِ الْأَرْضِ، وَلَا مُرْعَجٍ. (١).

في الجنوب الغربي من مدينة القدس تقع مرتفعات تُوْفَةٍ (٢) المطلّة على وادي ابنِ هِنُومَ، حيث كانت تُلقى قمامة وفضلات المدينة (٣) وفي هذا الموضع صنمٌ للإله «مولوك» المصنوع من النحاس.

وفي المصادر الكتابيّة أنّ المشركين كانوا يقدّمون القرابين البشرية من أبنائهم وبناتهم لهذا الإله وهم أحياء، إذ يتمّ رميهم عليه بعد إشعاله بالنار حتى يحمرّ لونه. وعلى هذه السيرة الباطلة سار بنو إسرائيل أيضاً، فغضب الله عليهم. وتقول هذه المصادر أنّ الاسم هِنُومَ تحوّل في اليونانية إلى كلمة «جهنّم»، بإضافة «جي = أرض» في بدايتها، ليكون المجموع «أرض هِنُوم = جهنّم». وبسبب الحرائق التي اشتعلت فيها، والقرابين البشرية التي أُحرقت بها، صارت هذه الكلمة مفردة تدلّ على وادي النار والعذاب. ويسمى وادي هِنُوم اليوم وادي الرّبابة (٤).

وفي التفسير التطبيقي للكتاب المقدس أنّ النص السابق يندربني إسرائيل بأنّ هذا الوادي سيُصبح موضعَ قتلهم بيد البابليين، ففي المكان الذي قُتل فيه الناس أولادهم في عبادة الوثن الشريرة، سيُقتلون هم أنفسهم (٥).

١. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٧، ٣٢.

٢. ومعناها «مكان النار».

٣. في بعض المصادر الكتابيّة أنّ هذا الوادي تحوّل في زمن لاحق إلى مزبلة، ولم يكن كذلك في الزمن الي كانوا يقدّمون فيه القرابين البشرية، إذ كان في الأساس مذبحاً للإله مولوك.

4. <https://st-takla.org/Bibles/BibleSearch/showVerses.php?book=30&chapter=7&vmin=32>

٥. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ١٤٩٢.

٢. انتشار الأحزان وخراب الديار: (١٠) «اضعدوا على أسوارها واخربوها ولكن لا تُفْنوها. اِنْزِعُوا أَفْنَانَهَا لِأَنَّهَا لَيْسَتْ لِلرَّبِّ»^(١). (٣٤) وَأُبْطِلْ مِنْ مَدِينِ يَهُودَا وَمِنْ شَوَارِعِ أُورُشَلِيمَ صَوْتَ الظَّرَبِ وَصَوْتَ الْفَرْجِ، صَوْتَ الْعَرِيسِ وَصَوْتَ الْعُرُوسِ، لِأَنَّ الْأَرْضَ تَصِيرُ خَرَابًا^(٢).

٣. المعاناة من قسوة الغزاة ووحشيّتهم: وهذا العدو الذي سيغزوهم سيكون قاسياً إلى أبعد درجة، إذ لن يرحم الأموات في قبورهم، فكيف بالأحياء الذين سيتمنون الموت لشدة معاناتهم: (١) «فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، يَقُولُ الرَّبُّ، يُخْرِجُونَ عِظَامَ مُلُوكِ يَهُودَا وَعِظَامَ رُؤَسَائِهِ وَعِظَامَ الْكَهَنَةِ وَعِظَامَ الْأَنْبِيَاءِ وَعِظَامَ سُكَّانِ أُورُشَلِيمَ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَيَبْسُطُونَهَا لِلشَّمْسِ وَلِلْقَمَرِ وَلِكُلِّ جُنُودِ السَّمَاوَاتِ الَّتِي أَحْبَبَّهَا وَالَّتِي عَبْدُوهَا وَالَّتِي سَارُوا وَرَاءَهَا وَالَّتِي اسْتَشَارُوهَا وَالَّتِي سَجَدُوا لَهَا. لَا تُجْمَعُ وَلَا تُدْفَنُ، بَلْ تَكُونُ دِمْنَةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. ٣ وَيُخْتَارُ الْمَوْتُ عَلَى الْحَيَاةِ عِنْدَ كُلِّ الْبَقِيَّةِ الْبَاقِيَةِ مِنْ هَذِهِ الْعَشِيرَةِ الشَّرِيرَةِ الْبَاقِيَةِ فِي كُلِّ الْأَمَاكِنِ الَّتِي طَرَدْتَهُمْ إِلَيْهَا، يَقُولُ رَبُّ الْجُنُودِ»^(٣).

فالعدو الذي عبدوا آلهته ينكل بهم، حيث يخرج عظام الكل من القبور ويلقي بها في الطريق للتشهير والإهانة، إذ كان أولئك الوثنيون يعتقدون أن إهانة عظام الموتي ستجرح أرواح أصحابها، وأن تدمير بقايا الأموات وعظامهم سيلقي بهم في بحر النسيان فلا ينعمون بعد الموت أبداً.

٤. نهب الثروات: (١٧) فَيَأْكُلُونَ حَصَادَكَ وَخُبْزَكَ الَّذِي يَأْكُلُهُ بَنُوكَ وَبَنَاتُكَ. يَأْكُلُونَ

١. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٥، ١٠.

٢. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٧، ٣٣-٣٤.

٣. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٨، ١-٣.

عَنَمَكَ وَبَقَرَكَ. يَأْكُلُونَ جَفَنَتَكَ وَتِينَكَ. يُهْلِكُونَ بِالسَّيْفِ مَدُنَكَ الْحَصِينَةَ الَّتِي أَنْتَ مُتَّكِئٌ عَلَيْهَا^(١).

٥. تدمير الهيكل: وتصف نصوص لاحقة ما صور المزيد مما ستؤول إليه أوضاع بني إسرائيل بسبب هذا الغزو المدمر من قتل وسبي وعذاب مستمر وشديد، والذي سيطل معبد الرب، هيكل سليمان، الذي سيدمر تدميراً: (١٤) هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ عَلَى جَمِيعِ حِيزَانِي الْأَشْرَارِ الَّذِينَ يَلْمُسُونَ الْمِيرَاثَ الَّذِي أَوْرَثْتُهُ لِشُعْبِي إِسْرَائِيلَ: هَآنَذَا أَقْتُلُهُمْ عَنْ أَرْضِهِمْ وَأَقْتُلِعُ بَيْتَ يَهُوذَا مِنْ وَسْطِهِمْ^(٢).

٦. تدمير عاصمتهم: وتنال أورشليم «القدس» نصيبها من التدمير الهائل: (٢٨) لِذَلِكَ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: هَآنَذَا أَدْفَعُ هَذِهِ الْمَدِينَةَ لِيَدِ الْكَلْدَانِيِّينَ^(٣) وَلِيَدِ نَبُوخَذْرَاصَرَ مَلِكِ بَابِلَ فَيَأْخُذُهَا. ٢٩ فَيَأْتِي الْكَلْدَانِيُّونَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ، فَيَشْعِلُونَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ بِالنَّارِ، وَيُحْرِقُونَهَا وَالْبُيُوتَ الَّتِي بَحَرُّوا عَلَى سُطُوحِهَا لِلْبَعْلِ وَسَكَبُوا سَكَائِبَ لآلِهَةٍ أُخْرَى لِيُغَيِّظُونِي^(٤).

٧. السبي والإذلال: وفي السبي، سيتبرأ بنو إسرائيل من ميراثهم السماوي، ويتحولون إلى خدام في بلاد غريبة: (٤) وَتَتَبَرَّأُ وَبِنَفْسِكَ عَنْ مِيرَاثِكَ الَّذِي أُعْطَيْتَكَ إِيَّاهُ، وَأَجْعَلَكَ تَخْدِمُ أَعْدَاءَكَ فِي أَرْضٍ لَمْ تَعْرِفْهَا، لِأَنَّكُمْ قَدْ أَضْرَمْتُمْ نَارًا بَعْضِي تَتَّقِدُ إِلَى الْأَبَدِ؟^(٥).

١. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٥، ١٧.

٢. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ١٢، ١٤.

٣. وهم البابليون.

٤. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٣٢، ٢٨-٢٩.

٥. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ١٧، ٤.

٨. انتزاع الأمن من وسطهم وتفشي القتل والجوع والأوبئة: وسيكونون عُرضة لكل بلاء، وغرضاً لكل عدو: (٩) وَأَسْلَمَهُمْ لِلْقَلَقِ وَالشَّرِّ فِي جَمِيعِ مَمَالِكِ الْأَرْضِ عَارًا وَمَثَلًا وَهَزْأَةً وَلَعْنَةً فِي جَمِيعِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي أَطْرَدُهُمْ إِلَيْهَا. ١٠ وَأُرْسِلَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ وَالْجُوعُ وَالْوَبَاءُ حَتَّى يَفْنَوْا عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ الَّتِي أُعْطِيَتْهُمْ وَأَبَاءَهُمْ إِيَّاهَا^(١).

وقد مر معنا كل ذلك -أيضاً- في ثنايا النص الذي تعرّضنا له من سفر التثنية من التوراة ضمن ما ذكرناه بعنوان «المصدر الأول».

ومع هذه الضربة الأولى، يُمهّل بنو إسرائيل لعلمهم إلى ربهم يرجعون: (١٨) وَأَيْضًا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ، يَقُولُ الرَّبُّ، لَا أَفْنِيكُمْ^(٢).

ثم سيأتي اليوم الذي يُنزل الله فيه عقابه بهذا العدو لوثنيته وبطشه وظلمه، كما أنزله بالآشوريين من قبل، حيث تسقط دولة البابليين على يد كوروش الإخميني، ويتم تحرير بني إسرائيل من أسر العبودية، ليعودوا إلى ديارهم: (١٥) وَيَكُونُ بَعْدَ اقْتِلَاعِي إِيَّاهُمْ، أَنِّي أَرْجِعُ فَأَرْحَمُهُمْ، وَأَرُدُّهُمْ كُلَّ وَاحِدٍ إِلَى مِيرَاثِهِ، وَكُلَّ وَاحِدٍ إِلَى أَرْضِهِ^(٣). [انظر

اللوحتين رقم ٤٢-٤٣]

ويتم تأكيد هذا المطلب مجدداً بقوله: (١٠) لِأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: إِنِّي عِنْدَ تَمَامِ سَبْعِينَ سَنَةً لِبَابِلَ، أَتَعْهَدُكُمْ وَأَقِيمُ لَكُمْ كَلَامِي الصَّالِحَ، بِرَدِّكُمْ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ. ١١ لِأَنِّي عَرَفْتُ الْأَفْكَارَ الَّتِي أَنَا مُفْتَكِرٌ بِهَا عَنْكُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ، أَفْكَارَ سَلَامٍ لَا شَرٍّ، لِأُعْطِيَكُمْ آخِرَةً وَرَجَاءً. ١٢ فَتَدْعُونِي وَتَذْهَبُونَ وَتُصَلُّونَ إِلَيَّ فَأَسْمَعُ لَكُمْ. ١٣ وَتَطْلُبُونِي

١. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٢٤، ٩-١٠.

٢. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٥، ١٨.

٣. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ١٢، ١٥.



اللوحة رقم ٤٢ : منحوتان لكوروش الإخميني



اللوحة رقم ٤٣ : قبر كوروش وإسطوانته الشهيرة الخاصة بحقوق الإنسان

فَتَجِدُونِي إِذْ تَطْلُبُونِي بِكُلِّ قَلْبِكُمْ. ١٤ فَأُوجِدُ لَكُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ، وَأُرْدُّ سَبْيَكُمْ وَأَجْمَعُكُمْ مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ وَمِنْ كُلِّ الْمَوَاضِعِ الَّتِي طَرَدْتُكُمْ إِلَيْهَا، يَقُولُ الرَّبُّ، وَأُرْدُّكُمْ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي سَبَيْتُكُمْ مِنْهُ^(١).

ما اقتبسناه من سفر إرميا - وغيره كثير - يتوافق تمام الموافقة مع الوعيد الثاني والذي لحّظه القرآن الكريم في قوله «تعالى»: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۗ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ.....﴾^(٨). وبالفعل، فقد رحمهم الله بأن أعاد بقيةً منهم من السبي بعد عقود، وأعادوا بناء هيكلهم، وكتابة كتبهم، وترتيب أوضاعهم، وإن لم تقم لهم قائمة حقيقية وقوية بعد ذلك. [انظر اللوحة رقم ٤٤]

وأخيراً، يبين سفر إرميا - بكل وضوح - أن هذه السّنة الإلهية ستبقى قائمة فيهم عبر الزمن: (٢٠) «هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: إِنَّ نَقَضْتُمْ عَهْدِي مَعَ التَّهَارِ، وَعَهْدِي مَعَ اللَّيْلِ حَتَّى لَا يَكُونَ نَهَارٌ وَلَا لَيْلٌ فِي وَفْتِهِمَا، ٢١ فَإِنَّ عَهْدِي أَيْضًا مَعَ دَاوُدَ عَبْدِي يُنْقَضُ، فَلَا يَكُونُ لَهُ ابْنٌ مَالِكًا عَلَى كُرْسِيِّهِ) أي سيزول مُلك بني إسرائيل كما سيزول كهنتهم في تلك الأرض: (وَمَعَ اللَّائِيَّينَ الْكَهَنَةِ خَادِيَّيْ)^(٢)، وهو ما يتوافق مع قوله «تعالى»: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾، وفي الآخرة سيلاقى المتمردون العصاة عذاباً شديداً لا يمكنهم الفرار منه: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝﴾.

• نتيجة ما سبق:

والخلاصة من كل ما سبق بيانه أن الوعيد الأول يخص عصر النبي إشعياء وغزو

١. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٢٩، ١٠-١٤.

٢. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الإصحاح ٣٣، ٢٠-٢١.



اللوحة رقم ٤٤ : لوحة تخيلية تمثل إعادة بناء الهيكل

الآشوريين الذين كانوا حكام بلاد ما بين النهرين في ذلك العصر، وأعقبه الوعيد الثاني بقرن تقريباً، في عصر النبي إرميا، وهو يخص غزو البابليين الكلدانيين الذين كانوا حكام بلاد ما بين النهرين في ذلك العصر، وهو الذي جرّ عليهم تدمير الهيكل، والقتل والتشريد والسبي بصورة غير مسبوقة. وأمّا ما جرى في القرن الأول الميلادي على يد البيزنطيين، وما سيجري عليهم في عصر لاحق على يد المسلمين، أو الإمام المهدي «عليه السلام»، فيدخل تحت قوله «تعالى»: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾.

ملحوظة: عرض هذه التفاصيل في القرآن الكريم بمثابة رسالة إلى أهل الكتاب في زمن نزول النص بأنّ ما يتلوه النبي محمد «صلى الله عليه وآله» هو من عند الله «تعالى»، وإلا فكيف اطلع عليها وهي مبثوثة في كتبهم التي لم تكن متداولة إلا في

دوائر ضيقة وغير ميسرة للناس ومدونة بلغة غير عربية؟ وهم يُدركون أنه لم يتلمذ على يد أحد من أحبارهم أو رهبانهم.

بل ولو افترضنا ذلك جدلاً، فإنه من المستبعد جداً أن يكون قد اطلع على ما جاء في سفر إشعياء وإرميا واستوعب مضامينها جيداً فأخرجها بهذا النص العربي المبين، وهو الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا رَتَابَ الْمُبْطُلُونَ﴾^(١)، وعندما افترى عليه البعض بأنه أخذه عن أحبار أهل الكتاب ورهبانهم جاءهم الرد بكل وضوح: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(٢)

• الإمام المهدي وبيت المقدس:

من المناسب هنا أن نتناول بعض ما روي حول علاقة الإمام المهدي «عليه السلام» ببيت المقدس، والصراع مع اليهود بعد ظهوره. ولعل الصورة الراسخة في أذهان عامة الناس في هذا العصر أنّ هذه المدينة المقدسة ستكون تحت حكم اليهود، ثم يظهر المهدي فيستخلصها من أيديهم بعد قتالٍ عنيف ومواجهة دامية تنتهي بانتصاره والقضاء عليهم بصورة نهائية. إلا أنّ هذا التصوّر لا يستند إلى دليل واضح، وإن كانت الروايات -بضميمة بعضها إلى بعض- تقدّم صورةً إجماليةً حول وقوع صراعٍ مع اليهود وانتهائه بانتصار المهديّ والمسيح «عليهما السلام» على الدجالِ ومَن تحت قيادته من اليهود، دون أن تتحدّث عن احتلال اليهود لبيت المقدس، بل عن محاولتهم ذلك وفشلهم في تحقيقه، وهو ما سيقودهم إلى تلك النهاية الممتثلة في القضاء على مقاتليهم.

١. سورة العنكبوت: ٤٨.

٢. سورة النحل: ١٠٣.

وبالعودة إلى كتاب «المعتبر من بحار الأنوار» وفقاً لنظريات العلامة آصف محسني في الرجال وتحقيق الأسانيد والروايات^(١) سنجد رواية واحدة فقط قد انطبقت عليها شروط الاعتبار من بين عشرات الروايات ضمن «كتاب الإمامة وتاريخ الزهراء والأئمة عليهم السلام»، وهي التي رواها الشيخ الصدوق في كتابه «كمال الدين وتمام النعمة» بإسناده عن أبان بن تغلب، قال: قال أبو عبد الله «عليه السلام»: (إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يَبِيعُ الْقَائِمَ «عَلَيْهِ السَّلَامُ» جَبْرِئِيلُ «عَلَيْهِ السَّلَامُ»، يَنْزِلُ فِي صُورَةِ طَيْرٍ أبيضَ فَيَبِيعُهُ، ثُمَّ يَضَعُ^(٢) رَجُلًا عَلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَرَجُلًا عَلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، ثُمَّ يَنَادِي بِصَوْتٍ دَلِقٍ طَلِقٍ تَسْمَعُهُ الْخَلَائِقُ: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)^(٣).

ولربّما يُفهم من مضمون هذه الرواية الإشارة إلى الارتباط الوثيق بين ظهور الإمام وبين مستقبل بيت المقدس، إلا أنّها تخلو من أيّ تصريح إلى علاقة ذلك بأيّ نوع من أنواع الصراع، ولاسيّما مع اليهود. نعم، إذا غضضنا الطرف عن صحّة الأسانيد، سنجد روايات عدّة في مصادر المسلمين تتحدّث عن صراع قادم بين اليهود والمسلمين، وعن علاقة ذلك ببيت المقدس، وبالمهدي، والدجال، وغير ذلك. ومن بين هذه الروايات:

١. صحيح مسلم: عن أبي هريرة إنّ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود. فيقتلهم المسلمون. حتى يحتبئ اليهود من وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي. فتعال فاقتله. إلا الغرق. فإنه من شجر اليهود)^(٤).

١. الكتاب من إعداد الشيخ عمّار الفهداوي.

٢. الفاعل هو جبريل.

٣. الفهداوي: المعتبر، ج ٢، ص ٢١٦.

٤. صحيح مسلم، ح ٢٩٢٢.

وهذه الرواية لا تتضمن ذكراً للمهدي، ولا تحديداً زمنياً ولا مكانياً للحدث، ولكنها تتحدث عن صراع قادم مع اليهود وانتصار المسلمين في هذا الصراع.

٢. صحيح البخاري: عن الزُّهري قال: أخبرني سالم بن عبد الله أنَّ عبد الله بن عمر «رضي الله عنهما» قال سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: (تقاتلكم اليهود، فتسلطون عليهم، ثم يقول الحجر: يا مسلم، هذا يهودي ورأي، فاقتله)^(١).

وهذه الرواية -كسابقتها- لا تتضمن ذكراً للمهدي، ولا تحديداً زمنياً ولا مكانياً للحدث، ولكنها تتحدث عن صراع قادم مع اليهود وانتصار المسلمين في هذا الصراع.

٣. الفتن لنعيم بن حماد: عن أبي أمامة الباهلي، قال: (ذكر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الدجال، فقالت له أم شريك: فأين المسلمون يومئذ يا رسول الله؟ قال: ببيت المقدس، يخرج حتى يحاصره وإمام المسلمين يومئذ رجل صالح، فيُقال: صلّ الصبح، فإذا كبر ودخل فيها، نزل عيسى بن مريم، فإذا رآه ذلك الرجل عرفه، فرجع يمشي القهقري، فيتقدم، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول: صلّ فإنما أُقيمت لك، فيصلّي عيسى وراءه، ثم يقول: افتحوا الباب، فيفتحون الباب، ومع الدجال يومئذ سبعون ألف يهودي، كلهم ذو ساج^(٢) وسيف محلي، فإذا نظر إلى عيسى ذاب كما يذوب الرصاص، وكما يذوب الملح في الماء، ثم يخرج هارباً، فيقول عيسى: إن لي فيك ضربة لن تفوتني بها، فيدركه فيقتله، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطقه الله، لا حجر ولا شجر ولا دابة إلا قال: يا عبد الله المسلم، هذا يهودي فاقتله، إلا الغرقد فإنها من شجرهم، فلا تنطق، ويكون عيسى في أمّتي حكماً عدلاً، وإماماً مُقسطاً.... إلخ)^(٣).

١. صحيح البخاري، ح ٣٥٩٣.

٢. الساج: الطيلسان (الشال) الأخضر الذي يوضع على الكتف.

٣. ابن حماد: الفتن، ح ١٥٨٩.

وهذه الرواية لا تتحدّث عن حُكم اليهود لبيت المقدس، بل عن حكم المسلمين لها ومحاولة اليهود بقيادة الدّجال السيطرة عليها، إلا أنّهم يفشلون في ذلك، ويتمّ القضاء عليهم. كما أنّها لم تصرّح باسم المهدي بل تذكر رجلاً بعنوان أنّه «إمام المسلمين... رجل صالح» وفي نفس المصدر عن أرطاة، قال: (بلغني أنّ المهدي، يعيش أربعين عاماً، ثم يموت على فراشه، ثم يخرج رجل من قحطان مثقوب الأذنين، على سيرة المهدي، بقاؤه عشرين سنة، ثم يموت قتلاً بالسلاح، ثم يخرج رجل من أهل بيت النبي «صلى الله عليه وسلم» مهديّ حسن السيرة، يفتح مدينة قيصر، وهو آخر أمير من أمة محمد «صلى الله عليه وسلم»، ثم يخرج في زمانه الدّجال، وينزل في زمانه عيسى ابن مريم «عليه السلام»^(١).

وهذا يعني أنّ المعاصر للمسيح والذي يقاتل الدّجال ليس المهديّ. إلا أنّ النصّ الأخير ليس برواية، بل عبّر عنه الرواي بقوله: (بلغني أنّ...)، ولا نعلم من الذي بلّغه، ولربّما يشير إلى ما رواه نعيم بن حماد أيضاً في الفتن عن محمد ابن الحنفية، قال: (ينزل خليفة من بني هاشم بيت المقدس يملأ الأرض عدلاً، يبني بيت المقدس بناء لم يُبن مثله، يملك أربعين سنة، تكون هدنة الرّوم على يديه في سبع سنين بقين من خلافته، ثم يغدرون به، ثم يجتمعون له بالعُسق، فيموت فيها غمّاً، ثم يلي بعده رجل من بني هاشم، ثم تكون هزيمتهم، وفتح القسطنطينية على يديه، ثم يسير إلى رومية فيفتحها، ويستخرج كنوزها ومائدة سليمان بن داود، ثم يرجع إلى بيت المقدس فينزلها، ويخرج الدّجال في زمانه، وينزل عيسى ابن مريم «عليه السلام» فيصليّ خلفه^(٢).

١. ابن حمّاد: الفتن، ح ١٢١٤.

٢. ن. م. ح ١٢٠٠.

ومع كون النصّين من الأخبار غير المروية عن النبي أو الإمام، يبقى احتمال كون المراد من الشخصية المعاصرة للمسيح والذي يقاتل اليهود هو ذات المهديّ المبشّر به.

٤. الفتن لابن حمّاد: عن حذيفة بن اليمان «رضي الله عنه» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: (بينما الشياطين الذين مع الدّجال يزاولون بعض بني آدم على متابعة الدّجال، فيأبى عليه من يأبى، ويقول له بعضهم: إنّكم شياطين، وإنّ الله «تعالى» سيسوق إليه عيسى ابن مريم بإيلياء^(١)) فيقتله، فبينما أنتم على ذلك حتى ينزل عيسى ابن مريم بإيلياء، وفيها جماعة من المسلمين وخليفتهم بعدما يؤدّن المؤدّن لصلاة الصبح، فيسمع المؤدّن للناس عصعصة، فإذا هو عيسى ابن مريم، فيهبط عيسى فيرحّب به الناس، ويفرحون بنزوله، ولتصديق حديث رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، ثم يقول للمؤدّن: أقم الصلاة، ثم يقول له الناس: صلّ لنا، فيقول: انطلقوا إلى إمامكم فيصليّ لكم، فإنه نعم الإمام، فيصليّ بهم إمامهم، ويصليّ عيسى معهم، ثم ينصرف الإمام، ويعطي عيسى الطاعة، فيسير بالناس حتى إذا رآه الدّجال ماع كما يميع القير، فيمشي إليه عيسى فيقتله بإذن الله «تعالى»، ويقتل معه من شاء الله، ثم يفترقون ويختبئون تحت كل شجر وحجر حتى يقول الشجر: يا عبد الله، يا مسلم، تعال، هذا يهوديّ ورأيي فاقته، ويدعو الحجر مثل ذلك، غير شجرة الغرقة، شجرة اليهود، لا تدعو إليهم أحداً يكون عندها. ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: إنّما أحدثكم هذا لتعقلوه وتفهموه وتعوّه، واعملوا عليه، وحّدثوا به من خلفكم، وليحدّثن الآخر الآخر، وإنّ فتنته أشدّ الفتن، ثم تعيشوا بعد ذلك ما شاء الله «تعالى» مع عيسى ابن مريم^(٢).

١. أي القدس = بيت المقدس.

٢. ابن حمّاد: الفتن، ح ١٥٩١.

وهذه الرواية وإن لم تصرّح باسم المهدي كذلك، إلا أنّها تقدّم لنا معلومة إضافية، حيث حدّدت لنا المكان، وهو إيلياء، أي بيت المقدس، وتبقى في نفس سياق الروايات السابقة التي تتحدّث عن سيطرة المسلمين على هذه المدينة المقدّسة، ومحاولة الدجال واليهود استخلاصها منهم، فيكون مصيرهم الفشل والقتل الذريع.

ومثل هذه الروايات من حيث المضمون روايات أخرى، تُضيف أو تُنقص من بعض المعطيات، ولكنها في نهاية المطاف تصبّ في ذات الاتجاه.

٥. معاني الأخبار للشيخ الصدوق عن عباية الأسدي قال: (سمعت أمير المؤمنين «عليه السلام» -وهو مُشتكي- وأنا قائم عليه، لأبنيّ بمصر منبراً، ولأنقضّ دمشق حجراً حجراً، ولأخرجنّ اليهود والنصارى من كلّ كور العرب، ولأسوقنّ العرب بعصاي هذه، قال: قلت له: يا أمير المؤمنين، كأنّك تُخبر أنّك تحي بعد ما تموت؟ فقال: هيهات يا عباية، ذهبت في غير مذهب، يفعلهُ رجلٌ مِنّي^(١) وأوّل البعض العبارة الأخيرة بأنّ المراد منها الإمام المهدي، وهي غير صريحة في وقوع صراع مع اليهود، بل طردهم من كلّ مناطق حكم العرب، ولا إشارة إلى بيت المقدس لا من قريب ولا من بعيد، ومع هذا فقد فسّرها البعض بأنّها إخبارٌ عن ذلك.

٦. بحار الأنوار: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (يُخرج رجل من أهل بيتي، ويعمل بسنّي، وينزل الله له البركة من السماء، ويُخرج الأرض بركتها، وتُملأ به الأرض عدلاً كما مُلئت ظُلماً وجوراً، ويعمل على هذه الأمة سبع سنين، وينزل بيت المقدس)^(٢).

١. الصدوق: معاني الأخبار، ص ٤٠٦-٤٠٧.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٨٢.

وهذه الرواية مأخوذة من مصادر أهل السنّة، وهي وإن لم تصرّح باسم الإمام المهدي، إلا أنّ الصفات الواردة فيها تدلّ على ذلك لا محالة، وهي تعطينا مفردة واحدة تخصّ ما نحن بصده وهي أنّه: (ينزل بيت المقدس) وهذا إما بمعنى أنّه يختار بيت المقدس لسكانه وإدارة حكمه، أو أنّ هذه المدينة المقدّسة ستكون تحت سلطانه، والنزول فيها يكون كنايةً عن الفتح بالقوّة أو بغير ذلك.

٧. فرائد السمطين: عن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس، قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (إنّ خلفائي وأوصيائي وحجج الله على الخلق بعدي لاثني عشر، أوّلهم أخي وآخرهم ولدي. قيل: يا رسول الله، ومن أخوك؟ قال: عليّ بن أبي طالب. قيل: فمن ولدك؟ قال: المهديّ الذي يملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. والذي بعثني بالحقّ بشيراً، لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه ولدي المهديّ، فينزل روح الله عيسى بن مريم فيصليّ خلفه، وتشرق الأرض بنور ربها، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب)^(١).

وهذه الرواية تصرّح بعنوان المهدي، وتربط بينه وبين نزول المسيح والصلاة خلفه. ٨. كتاب عقد الدرر في أخبار المنتظر: عن جابر بن عبد الله «رضي الله عنه»، قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: (لا تزال طائفة من أمّتي تُقاتل على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم عند طلوع الفجر، ببيت المقدس، ينزل على المهدي، فيقال: تقدّم يا نبي الله، فصلّ بنا. فيقول: هذه الأمة أمّرت بعضهم على بعض)^(٢).

وهذه الرواية تصرّح أيضاً بعنوان المهدي، وتربط بينه وبين نزول المسيح والصلاة

١. الجويني: فرائد السمطين، ح ٥٦٢.

٢. السلمي: عقد الدرر، ص ٢٩٣.

خلفه، وتحدّد المكان، وهو بيت المقدس، فتكون مكملّة للصورة بضميمة الروايات السابقة، حيث تدلّ بمجموعها على التالي^(١):

(١) سيظهر المهدي من ذرية النبي في مستقبل الزمان ويقود المسلمين ومن يكون تحت قيادته لحكم الأرض بالقسط والعدل بعد أن تكون قد ملئت بالظلم والجور.

(٢) في الطريق نحو تحقيق هذا الهدف، سيتخذ المهدي من بيت المقدس مستقرّاً له، ولم تبين الروايات السابقة هل سيكون ذلك بصورة مؤقتة أم دائمة؟ وهل سيدخلها عنوة أم طوعية أم بالصّلح؟ وما هي طبيعة الأوضاع القائمة في هذه المدينة المقدّسة قبل أن يدخلها المهدي، هل ستكون تحت حكم المسلمين أم غيرهم؟

(٣) نزول المسيح عيسى ابن مريم ويصلي خلف المهدي.

(٤) سيكون هناك صراع قادم مع اليهود، إذ سيقود الدجال هجوماً على بيت المقدس وتحت إمرته سبعون ألف يهودي، إلّا أنّ النّصر سيكون حليف المسلمين، وسيقتل المسيح الدجال، ويتمّ القضاء على المقاتلين اليهود.

نعم، فكرة أنّ بيت المقدس سيكون بيد بني إسرائيل وأنّ تخليصه منهم سيكون على يد المهدي، هذه الفكرة يمكن استخلاصها من خلال الروايات التي أشار إليها الشيخ الكوراني ومرت معنا حول تأويل الآيات الخاصة ببعث عباد الله أولى بأس شديد، إلّا أننا بينّا حينها أنها تتحدث عن الوعيد الأول لا الثاني، ولا يصحّ أن تنطبق على الصراع القائم بين بني إسرائيل والإمام المهدي، فراجع.

١. هذا على فرض صحّة صدورهما، فهي روايات غير معتبرة السند.

• خلاصة الفصل:

- هناك ارتباط قوي بين الآية الأولى من سورة الإسراء والتي تحدّثت عن هذا الحدث والغرض منه، وبين ما جاء في الآيات اللاحقة (٢-٨) حول النبي موسى وحركة بني إسرائيل في التاريخ، والسّنن الحاكمة لهذه الحركة، ومآلاتها.
- الآيات تُبيّن أنّ لله سنّة تاريخية في حركة الأمم، وهذا يشمل مستقبل الأمة الإسلامية. فإن اهتدت الأمة وشكرت الله على نعمه أثابها سعادة الدنيا والآخرة، وإنّ هي أساءت وعصت، جازاها بنكال الدنيا وعذاب الآخرة... وبني إسرائيل خير نموذج ومصدق لهذه السنّة.
- ومن المحتمل أيضاً أن تكون الآيات بصدد بيان حتمية استمرار الصراع بين أمتين، أمة محمّد الذي أُسري به إلى المسجد الأقصى، وبين أمة اليهود -وبني إسرائيل على وجه التحديد- على الرغم من كل الجهود المبذولة من قبل النبي لمنع ذلك، إذ تكرر منهم التمرّد على الله ورسله كلّما شعروا بالقوّة.
- لم يستفد المسلمون من هذه الهداية الإلهية، فعانوا من انهيار حضارتهم، وفقدان استقلالهم منذ أن غزاهم المغول والصليبيّون والمستعمرون الغربيون.
- اختلفت تأويلات المفسّرين حول ما تعرّضت له الآيات من سيرة بني إسرائيل وماهيّة الوعيدين الأوّل والثاني، والرأي الراجح عندي أنّ الوعيد الأوّل يخصّ غزو الآشوريين، والوعيد الثاني يتمثّل في السّبي البابلي على يد نبوخذ نصر الثاني.
- بنو إسرائيل من ذريّة إبراهيم الخليل، وإبراهيم من ذريّة النبي نوح.
- تتضمّن التوراة إشارة إجمالية للوعيد الأوّل والثاني، بينما يتضمّن سفر إشعياء

وصف الوعيد الأوّل بالتفصيل، وسفر إرميا الوعيد الثاني وقاعدة (وإن عدتم عدنا).
○ تحدّثت الروايات عن علاقة الإمام المهدي ببيت المقدس، إلا أنّها لا تذكر أنّ
هذه المدينة المقدّسة ستكون تحت حكم اليهود وأنّ المهدي سيحرّرها، بل تذكر
أنّه سيّخذ منها مستقراً، ثم ينزل المسيح فيتعاونان على صدّ هجوم الدّجال القادم
بمعيّة سبعين ألف مقاتل يهودي، ويُقضى عليهم.

المعراج إلى السماء

المعراج إلى السماء

• موضوعات هذا الفصل:

- بحث حول ضرورة إخضاع روايات السيرة النبوية للتقييم والبحث والتحقيق، لاسيما من خلال العرض على القرآن الكريم.
- ما هي الأقوال في عدد مرّات العروج بالنبي إلى السّماء؟ وكيف صوّرت الروايات أحداث المعراج؟
- هل كان المعراج بالروح والجسد أم بالروح حال اليقظة أم في المنام فحسب؟
- عرض وتحقيق حول الروايات التي تحدّثت عن سدة المنتهى وأنهار الجنّة الممتدّة إلى الأرض وماهيّة البراق وعلاقته بالرسل الماضين.
- إشكالية التوظيف المذهبي لروايات المعراج في إثبات الخلافة أو الفضائل.
- هل من علاقة بين مرويات اليهود حول معراج النبي موسى بمعراج النبي محمد؟

• حساسية الموضوع:

لا أخفي القارئ الكريم أنّ الخوض في موضوع المعراج - بصورة تحقيقية لا تكتفي بالسرد والشرح والاستنتاج - يعتبر أمراً حساساً جداً عند شريحة كبيرة من أهل العلم وعامة الناس، وإلى المستوى الذي قد يعتبر فيه البعض أن التشكيك في الأمر يمثل تشكيكاً في أصل من أصول المعرفة الدينية الإسلامية، أو في مسلمة من مسلمات التاريخ الإسلامي، في حين أنّ لمسألة المعراج - شأنها شأن أي مسألة أخرى - قابلية لوضعها تحت مجهر التحقيق والتدقيق والتمحيص، لا في فرز الصحيح من رواياتها عن السّقيم، بل في أصل وقوع الحادثة، إذ لا نملك - كما سيتبين معنا لاحقاً - نصاً قرآنياً واضحاً وصريحاً في وقوعه، على خلاف ما يتوقعه الكثيرون، وعلى خلاف حادثة الإسراء المصرّح بها والميّنة بكلّ وضوح في أول آية من السّورة التي تحمل اسم هذا الحدث الفريد في حياة النبي «صلى الله عليه وآله».

وأما الروايات، فيمكن البحث فيها والتحقيق بشأنها، والاجتهاد فيها، وقد نقبل بعضاً منها ونرفض أخرى، كما وقد نصل من خلالها إلى ما يثبت وقوع المعراج بصورة شبه يقينية، وقد لا نصل إلى مثل هذه النتيجة، ونبقى في دائرة الاحتمال والشك.

والسيرة النبوية الشريفة - شأنها شأن الأحاديث والأخبار في المجالات العقديّة والتفسيرية والتشريعية والأخلاقية وغيرها - تعرّضت للوضع والتزييف والتحريف والإضافة والتبديل... وللقرآن حاكمية على الروايات - في باب السيرة وغيرها - وظواهر آياته واحدة من وسائل التحقيق والتمحيص وفرز الصحيح من الضعيف في هذا المجال. وقد بلغت الجراءة عند بعض الرواة والقصاصين أن ادّعوا تفاصيل وأحداثاً تتعارض بكل صراحة ووضوح مع ما جاء في القرآن الكريم حول قضية محدّدة.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في كتب التفسير والسيرة حول أحداث غزوة بدر الكبرى وادّعاء مشاركة الملائكة في القتال يوم بدر:

١. عن هشام بن عروة، عن عروة عن عبد الله بن الزبير: (أنّ الزبير كانت عليه ملاءة صفراء يوم بدر، فاعتمّ بها، فنزلت الملائكة يوم بدر على نبي الله «صلى الله عليه وسلم» معمّنين بعمائم صفر)^(١).

٢. عن مجاهد، أنه كان يقول: ((مُسَوِّمِينَ))، قال: كانت خيولهم مجزوزة الأعراف، معلّمة نواصيها وأذناها بالصوف والعِهن)^(٢).

٣. عن أبي واقد الليثي^(٣) قال: (إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه فوق رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنّ غيري قد قتله)^(٤) يقصد الملائكة.

٤. عن الربيع بن أنس قال: (كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم، بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار، وقد أحرق به)^(٥).

٥. عن مولى لسهيل بن عمرو: (سمعت سهيل بن عمرو يقول: لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بُلق^(٦) بين السماء والأرض معلّمين يقتلون ويأسرون)^(٧).

١. الطبري: جامع البيان، ج ٤، ص ١١١.

٢. ن.م، ص ١١٠.

٣. هكذا في الأصل والبيهقي عن ابن إسحاق، وفي السيرة لابن هشام: أبي داود المازني، قال السهيلي: اسم أبي داود هذا: عمرو، وقيل: عمير بن عامر.

٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٤٣.

٥. ن.م.

٦. جمع أبلق، وهو ما كان في لونه سواد وبياض.

٧. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٤٣.

٦. وكان أبو أسيد يُحدّث بعد أن ذهب بصره، قال: (لو كنتُ معكم الآن ببدر ومعي بصري، لأريتكم الشَّعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشكّ ولا أمتري)^(١).

٧. عن رجل من بني غفار، قال: (أقبلتُ -وابن عم لي- يوم بدر حتى صعدنا على جبل، ونحن مُشركان، ونحن على إحدى عُجمتي بدر -العُجمة الشامية العُجمة من رمل^(٢) - ننتظر الوقعة على مَنْ تكون الدائرة، فننتهب مع مَنْ ينتهب، إذ رأيت سحابة دنت منّا، فسمعت فيها حَمَمة الخيل وقَعقة اللحم والحديد، وسمعت قائلاً يقول: أقدم حيزوم! فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات، وأما أنا فكدتُ أهلك، فتماسكت وأتبعْتُ البصرَ حيث تذهب السحابة، فجاءت إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» وأصحابه، ثم رجعتُ وليس فيها شيء مما كنتُ أسمع)^(٣).

٧. ثم يكملون القصة: (سأل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» جبريل: من القائل يوم بدر من الملائكة أقدم حيزوم؟ فقال جبريل: يا محمد، ما كلّ أهل السماء أعرف)^(٤).

٨. وروي عن أبي بردة بن نيار قال: (جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس، فوضعتها بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقلت: يا رسول الله، أما اثنان فقتلتهما، وأما الثالث فأني رأيت رجلاً طويلاً أبيض ضربه فتدهده^(٥) أمامه، فأخذتُ رأسه. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ذاك فلان من الملائكة)^(٦).

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٤٣.

٢. عُجْمَةُ الرَمْلِ: كَثْرَتُهُ.

٣. الواقي: المغازي، ج ١، ص ٢٨.

٤. ن. م.

٥. أي تدحرج.

٦. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٦١.

٩. ونُسب إلى بعضهم المشاركة في الأسر، قيل: (كان السائب بن أبي حبيش الأسدي يُحدّث في زمن عمر بن الخطاب، فيقول: واللّه ما أسرني يوم بدر أحد من الناس، فيقال: فمن؟ فيقول: لمّا انهزمت قريش، انهزمتُ معها، فيدركني رجل أبيض طويل، على فرس أبلق بين السماء والأرض، فأوثقني رباطاً، وجاء عبد الرحمن ابن عوف فوجدني مربوطاً، وكان عبد الرحمن ينادي في العسكر: مَنْ أسره هذا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني، حتى انتهى بي إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فقال لي رسول الله: يا ابن أبي حبيش، مَنْ أسرك؟ قلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذي رأيت، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أسره ملك من الملائكة كريم. اذهب يا ابن عوف بأسيرك. فذهب بي عبد الرحمن. قال السائب: وما زالت تلك الكلمة أحفظها^(١).

وكّلها مجرّد قصص من خيال الرواة، ليس لها من الواقع نصيب، فالله «تعالى» يقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۖ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ التُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾^(٢).

وأوضح من ذلك قوله «تعالى» في أجواء غزوة أحد مذكراً للمسلمين بما جرى لهم في بدر الكبرى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٣﴾

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٤، ص ١٦١.

٢. سورة الأنفال: ٩-١٢.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٨﴾ (١).

فلم يكن نزولهم للقتال كما صوّرته تلك المرويات، بل استجابة إلهية لدعاء المؤمنين واستغاثتهم - كما جاء في الآية الشريفة - ليكون هذا المدد ولتكون هذه الاستجابة مصدر قوة روحية كبيرة، في ما أثارته في نفوسهم حركة الملائكة في المعركة، بما كانوا يحملونه في أفكارهم عن القوة الغيبية التي يتمتع بها هؤلاء.

فالملائكة الذين أنزلهم الله إلى ساحة المعركة، لم تكن مهمتهم قتالية، لأن الله لم يُرد للمسلمين أن يستسلموا للاسترخاء، على أساس الاعتقاد بأن الملائكة جاءت لتقاتل بالنيابة عنهم. ولو أنّ الأمر كذلك، لما كانت هناك حاجة ملحة لأية معركة وأي قتال، لأن القوة الغيبية كفيلة بتصفية جميع الأعداء، بل كانت مهمتهم تطمينية نفسية، وهذا ما عبّرت عنه الآية ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ ليزيل من نفوسهم كل شعور بالقلق والخوف والاهتزاز، ليندفعوا إلى المعركة بقوة وثبات، ليعطوا كل طاقاتهم للقتال في إحساس عميق بأنهم لا يصنعون النصر عندما يصنعونه بقوتهم الذاتية، كما لا يصنعه الملائكة - لو صنعوه - بل هو من عند الله، من خلال ما تتحرك به ألطافه وتفيض به رحمته من أسباب النصر، لأنّ الأمور كلها بيده، في آفاق الغيب، وفي آفاق الواقع (٢).

١. سورة آل عمران: ١٢٣-١٢٦.

٢. فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآيات ٩-١٤ من سورة الأنفال.

ولو كان الأمر كما تخيَّله أولئك الرواة، فلمَ الحاجة إلى كل هذا العدد من الملائكة في قبال ألف من المشركين تقريباً؟ وهل الملائكة بهذا المستوى من الضعف بحيث أنَّ عدد قتلى المشركين في المعركة لم يتجاوز السبعين، بل إنَّ أسماء المقاتلين المسلمين الذين قتلوا ذلك العدد معروفة مذكورة، وفارق القوة -بحسب الفرض- يصبُّ في صالح الملائكة دون أدنى شك.

كان هذا نموذج من تزييف السيرة النبوية على الرغم من وضوح القرآن في تصويره لنفس المشهد.

ومثال آخر على ذلك ما رواه بعض المؤرخين حول غزوة الأحزاب «الحنديق» حيث قيل: (وعباً رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أصحابه وحضهم على القتال، ووعدهم النَّصر إن صبروا، والمشركون قد جعلوا المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم، فأخذوا بكل وجه من الحندق. فحدَّثني الضحاك بن عثمان، عن عبيد الله بن مقسم، عن جابر بن عبد الله قال: قاتلونا يومهم، وفرَّقوا كتائبهم، ونَحَّوا إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كتيبةً غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلهم يومه ذلك إلى هويٍّ من الليل، ما يقدر رسولُ الله «صلى الله عليه وسلم» ولا أحد من المسلمين أن يزولوا من مواضعهم، وما يقدر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على صلاة الظهر، ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء، فجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله، ما صلَّينا، فيقول: ولا أنا، والله ما صلَّيت! حتى كشفهم الله «تعالى» فرجعوا متفرِّقين. فرجعت قريش إلى منزلها، ورجعت غطفان إلى منزلها، وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله «صلى الله عليه وسلم»^(١).

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٦٩.

في حين أنّ الله «تعالى» يقول: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝﴾^(١). وهذا يعني بكلّ وضوح عدم وقوع قتال بين الطرفين، ومع هذا أصّر هذا الراوي أن يقدم هذه الصورة من شدة القتال الذي منع النبيّ والمسلمين من أداء الصلاة طوال النهار والليل!

هذه نماذج بسيطة من العبث الكبير الذي لحق بسيرة النبي «صلى الله عليه وآله»، والكتابات في هذا الباب متعددة يمكن الرجوع إليها في محلّها.

وسأندرج في بحث هذا الموضوع الشائك -المعراج- في محاولة الوصول إلى ما هو أقرب إلى الحقيقة والواقع، وإن كانت النتيجة التي سنصل إليها في نهاية المطاف محاولة اجتهادية ومجتهبة لا أكثر، وهي أيضاً قابلة للنقد والتصحيح.

• كم مرّة عرج بالنبي؟

بينما ذكر الإسراء في القرآن الكريم مرّة واحدة، اختلف الرّأي في عدد مرات المعراج، بل وقال البعض بتعدّد الإسراء أيضاً، قال حسين عبيد القرشي في كتابه «الإسراء والمعراج، رحلة حيّرت العقول»: (المشهور أنّ الإسراء والمعراج بالنبي «صلى الله عليه وآله» كان مرّة واحدة، ولكن من مجموع الروايات الشريفة نفهم أنّه كان متعدّداً، وقيل إنّ الإسراء^(٢) كان مرّتين، مرّة بروحه مناماً، ومرّة بروحه وبدنه يقظاً. ومنهم من يدّعي تعدّد الإسراء في اليقظة أيضاً، حتى قال بعضهم: إنها أربع إسرائات. وزعم بعضهم أن بعضها كان بالمدينة. ووفق الشيخ شهاب الدين أبو شامة في

١. سورة الأحزاب: ٢٥.

٢. يخلط الكاتب هنا بين الإسراء والمعراج وسيكرّر هذا الخلط عدة مرات، والسبب في ذلك عدم تمييز غالبية من تحدّثوا عن الإسراء والمعراج بين الحديثين واعتبروهما حدثاً واحداً أو متصلاً.

روايات حديث الإسراء بالجمع المتعدد، فجعل ثلاث إسرائات: مرّة من مكة إلى بيت المقدس فقط على البراق، ومرّة من مكة إلى السماء على البراق أيضاً، ومرّة من مكة إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات. ورجّح بعض علمائنا أنّه كان مرّتين. وروّت مصادرنا عن ابن عباس أنّ المعراج كان مرتين، مرّة من المسجد الحرام، ومرّة من بيت أم هاني، ليلة الإثنين في شهر ربيع الأول بعد النبوّة بسنتين. فالأول معراج العجائب، والثاني معراج الكرامة. وعن علي بن أبي حمزة^(١) قال: سأل أبو بصير أبا عبد الله «عليه السلام» وأنا حاضر فقال: جُعِلَتْ فداك كم عُرج برسول الله «صلى الله عليه وآله»؟ فقال: مرّتين.....». وروته مصادرنا بسند قوي عن الإمام الصادق «عليه السلام» قال: «عُرج بالنبي «صلى الله عليه وآله» إلى السماء مائةً وعشرين مرّةً....». ويُؤيّد ذلك أنّ أحاديث المعراج لا يمكن تفسيرها إلا بتعدّده^(٢).

والحقيقة أنّ سند الرواية الأخيرة ضعيفٌ -على خلاف ما ادّعاه- ففيه سلمة بن الخطاب، وقد قال عنه النجاشي: (أبو الفضل البراوستاني الأزدورقاني - قرية من سواد الري - كان ضعيفاً في حديثه)^(٣). وكذلك منيع بن الحجاج المجهول الحال^(٤)، فكيف تكون الرواية قد وردت بسند قوي؟

وإذا أردنا تفصيل ما أُشير إليه في النصّ السابق وما جاء في مصادر أخرى، يتّضح لنا

١. وهو البطائني. قال العلامة الحلي: (ابن أبي حمزة البطائني ضعيف جداً). وروي عن ابن فضال: (علي بن أبي حمزة كذاب متهم)، وقال السيد الخوئي: (يُعامل معه معاملة الضعيف). وكان من مؤسسي مذهب الوقف، أي عدم القول بإمامة الرضا ابن الإمام الكاظم. والراوي عنه واقفي أيضاً.

2. <https://www.kitabat.info/print.php?id=77737>

٣. الخوئي: معجم رجال الحديث، ج ٩، ص ٢١٢.

٤. الجواهري: المفيد من معجم رجال الحديث، ص ٦٠٥.

أنّ الأقوال حول عدد مرّات المعراج كالتالي:

- (١) مرّة واحدة. وهو القول المشهور، ومرّ معنا - كما سيأتي - بعض ما يدلّ على ذلك.
- (٢) مرّتان: جاء ذلك في بعض مصادر الشيعة والسنة، ومنها الرواية ضعيفة السند التي مرّت معنا، وتفصيلها كما في الكافي بالإسناد عن علي بن أبي حمزة قال: (سأل أبو بصير أبا عبد الله «عليه السلام» وأنا حاضر فقال: جعلت فداك كم عُرج برسول الله؟ فقال: مرّتين، فأوقفه^(١) جبرئيل موقفاً فقال له: مكانك يا محمد، فلقد وقفت موقفاً ما وقفه ملك قط ولا نبي، إنّ ربّك يصليّ! فقال: يا جبرئيل، وكيف يصلي؟ قال: يقول: سُبّوح قدّوس أنا ربّ الملائكة والروح، سبّقت رحمتي غضبي، فقال: اللهمّ عفوك عفوك. قال: وكان كما قال الله ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾. فقال له أبو بصير: جعلت فداك ما قاب قوسين أو أدنى؟ قال: ما بين سيّتها^(٢) إلى رأسها. فقال: كان بينهما حجاب يتلأأ لا يخفق، ولا أعلمه إلا وقد قال: زبرجد، فنظر في مثل سمّ الإبرة^(٣) إلى ما شاء الله من نور العظمة، فقال الله «تبارك وتعالى»: يا محمد، قال: لبيك ربي. قال: من لأمّتك من بعدك؟ قال: الله أعلم. قال: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد الغر المحجلين. قال: ثم قال أبو عبد الله لأبي بصير: يا أبا محمد، والله ما جاءت ولاية علي «عليه السلام» من الأرض، ولكن جاءت من السماء مشافهة^(٤)).

١. قال المجلسي في مرآة العقول في شرح هذه العبارة: (يمكن أن يكون هذا قبل عروجه «صلى الله عليه وآله» إلى موقف تخلّف عنه جبرئيل، أو كان جبرئيل يكلمه في مكانه وإن تخلّف عنه لئلا ينافي الخبر السابق، أو يكون هذا في أحد المعراجين وذاك في معراج آخر).

٢. سيئة القوس: ما عطف من طرفها.

٣. أي الفتحة في أعلى الإبرة حيث يتم إدخال الخيط فيها.

٤. الكليني: الكافي، ج ١، ص ٤٤٢.

(٣) ثلاث مرات. قال ابن القيم: (وكان الإسراء مرّة واحدة. وقيل: مرّتين: مرّة يقظة، ومرّة مناماً، وأرباب هذا القول كأئهم أرادوا أن يجمعوا بين حديث شريك، وقوله: «ثم استيقظت»، وبين سائر الروايات، ومنهم من قال: بل كان هذا مرّتين، مرّة قبل الوحي؛ لقوله في حديث شريك: «وذلك قبل أن يوحى إليه»، ومرّة بعد الوحي، كما دلّت عليه سائر الأحاديث. منهم من قال: بل ثلاث مرات: مرّة قبل الوحي، ومرّتين بعده. وكلّ هذا خبط، وهذه طريقة ضعفاء الظاهرية من أرباب النقل الذين إذا رأوا في القصة لفظة تخالف سياق بعض الروايات جعلوه مرّة أخرى، فكلمًا اختلفت عليهم الروايات عدّدوا الوقائع) وهذه الالتفاتة منه في محلّها. ثم قال: (والصواب الذي عليه أئمة النقل أنّ الإسراء كان مرّة واحدة بمكة بعد البعثة ... وقد غلّط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء)^(١). وهذا القول وإن تناول حدّث الإسراء، إلا أنّ كثيراً ممّن تناولوا الموضوع أرادوا به مجموع الحديثين: الإسراء والمعراج معاً.

(٤) أربع مرّات، كما مرّ معنا في كلام القرشي.

(٥) سبع مرّات. قال الملا علي القاري: (وقد قيل بتعدّد المعراج إلى سبع مرات)^(٢).

(٦) ٣٤ مرّة. قال عبد الوهاب الشعراي^(٣) في كتابه «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر»، وهو منتخب من كتاب «الواقح الأنوار القدسية» المختصر من الفتوحات المكية: (فإن قلت: فكيف كانت إسرائاته «صلى الله عليه وسلم»؟ فالجواب: كما قاله الشيخ في الباب الرابع عشر وثلاثمائة: أنه كانت أربعة وثلاثين، مرّة واحدة بجسمه،

١. ابن القيم: زاد المعاد، ج ٣، ص ٣٧-٣٨.

٢. القاري: شرح الشفاء، ج ١، ص ٤١٣.

٣. وهو من أعلام الصوفية.

والباقي بروحه، رؤيا رآها. قال: ومما يدلّك على أنّ الإسراء -ليلة فرض الصلاة- كان بالجسم، ما ورد في بعض طرق الحديث أنه «صلى الله عليه وسلم» استوحش لما نُجّ به في النور، ولم ير معه أحداً، إذ الأرواح لا توصف بالوحشة ولا بالاستيحاش، وقال: وكذلك ممّا يدلّ على أنّ الإسراء كان بجسمه، ما وقع له من العطش، فإنّ الأرواح المجردة لا تعطش^(١).

(٧) مائة وعشرون مرّة: في بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار بإسناده إلى منيع عن يونس عن صباح المزني عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (عُرج بالنبي «صلى الله عليه وآله» إلى السماء مائة وعشرين مرة، ما من مرّة إلا وقد أوصى الله النبي «صلى الله عليه وآله» بولاية عليٍّ والأئمة من بعده أكثر مما أوصاه بالفرايض)^(٢).

ولي على الكتاب إشكالات عدّة، وفي السند «منيع» والصحيح «منيع»، وهو منيع بن الحجاج، وهو مجهول، وفيه «عبدالله بن محمد اليماني»، وهو أيضاً مجهول.

وعلق المجلسي على الرواية بأن لا منافاة بين رواية علي ابن أبي حمزة التي مرّت معنا، وبين هذه الرواية: (إذ يمكن أن تكون المرّتان بمكة والبواقي بالمدينة، أو المرّتان إلى العرش والباقية إلى السماء، أو المرّتان بالجسم والباقية بالروح، ولعلّه أظهر، أو المرّتان ما أخبر بما جرى فيهما والباقية ما لم يُخبر بما جرى فيها)^(٣).

(٨) مرّات عديدة دون تحديد: في كتاب «شرح الاقتصاد في الاعتقاد^(٤)» لعبد العزيز

١. الشعرائي: البواقيت والجواهر، ص ٣٦٨.

٢. الصفار: بصائر الدرجات، ج ١ ص ٩٩.

٣. المجلسي: مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، ج ٥، ص ٢٠١.

٤. وهو كتاب يشرح مصنّف أبي حامد الغزالي «الاقتصاد في الاعتقاد».

ابن عبد الله الرَّاجِي: تحت عنوان «خلاف العلماء في عدد مرّات الإسراء والمعراج وكيفيته»: (قال الحافظ رحمه الله: وأجمع القائلون بالأخبار والمؤمنون بالآثار أنّ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أسري به إلى فوق سبع سموات ثم إلى سدرة المنتهى، أسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسجد بيت المقدس، ثم عرج به إلى السماء بجسده وروحه جميعاً، ثم عاد من ليلته إلى مكة قبل الصبح، ومن قال: إنّ الإسراء في ليلة والمعراج في ليلة فقد غلط، ومن قال: إنه منام، وأنه لم يسر بجسده فقد كفر.... وقال بعض العلماء: إنّ الإسراء في ليلة والمعراج في ليلة، وهذا قول ضعيف..... وقال آخرون من أهل العلم: إنّ الإسراء كان مراراً، مرّة يقظة ومرّة مناماً. وقال آخرون: أنّ الإسراء كان مراراً، مرّة قبل الوحي ومرّة بعده^(١).

• هل للمعراج ذكر في القرآن؟

اقتصرت الآية الأولى من سورة الإسراء على الحديث عن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكلّ ذلك ضمن حدود جغرافية الأرض، ولم تتحدّث الآية عن معراج إلى السماوات.

وهكذا لا نجد في السورة حديثاً عن معراج إلى السماوات، بل نجد في نفس السورة ما قد يُستدلّ به على عدم وقوع معراج إلى السماء فضلاً عن السماوات، قال «تعالى»: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحِيلٍ وَعَنْبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ

١. الرَّاجِي: شرح الاقتصاد، ج ١٠، ص ٢.

حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾^(١).

فلو كان قد تحقّق للنبي الرُّقْي في السماء - كما طلبوا - لأخبرهم الله بذلك، ولربّما بيّن لهم ما عاين النبي من عالم الملائكة والأموات والجنة والنار والنعيم والعذاب، وحواراته مع الأنبياء وغير ذلك مما زخرت به بعض الروايات الموثقة في كتب المسلمين، ولم يؤمّر بأن يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ بل لقال لهم ما معناه: «قل ارتقيت في السماوات، ورأيت كذا وكذا، وتحدّثت مع فلان وفلان، وأمرني ربي بكذا وكذا...»، وهذا يجعلنا نشكّ أو نتوقف - على الأقلّ - في القول بوقوع المعراج، وأنّ نلتزم بوقوع الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فحسب ما لم يكن في البين دليل آخر على وقوع ذلك.

وهل تحدّثت الآيات الأولى من سورة التّجم عن المعراج؟ الأرجح أنّ تلك الآيات وصفت حدث المبعث النبوي لا المعراج، وعن المرتين اللّتين شاهد فيهما النبي «صلى الله عليه وآله» جبريل «عليه السلام» على هيئته الحقيقية، وذلك في معرض الردّ على تشكيكات المشركين في ادّعائهم بأنّ النبي توهم الوحي، أو وقع ضحيّة السّحر أو الخلط بين اليقظة والنام أو مرض ما أصيب به في عقله أو في نفسه - حاشاه - لاسيما وأنّهم لم يعهدوا منه إلا الصّدق.

وأمامنا ثلاثة احتمالات رئيسة لتأويل الآيات ١-١٨ من السورة:

الاحتمال الأول: الآيات تصف المعراج، وقد وقع المعراج مرّة واحدة مع الإسراء، أو منفصلاً عنه، وعليه يكون تأويل الآيات كما يلي:

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ الفاعل: جبريل. وضمير المفعول به يعود إلى النبي. أي أن هذا الكلام الموحى إلى النبي قد تعلّمه على يد جبريل الشديد القوي.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ وجبريل يتّصف بالعزم القوي في تنفيذ الأمر الإلهي الخاص بالوحي، فلا تراخي عنده ولا إهمال ولا ضعف ولا خيانة. ثم تبدأ الآيات بعد ذلك في وصف ما جرى في معراج النبي بمعية جبريل:

﴿فَاسْتَوَى ۖ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ الضمير «هو» راجع إلى النبي، ويدلّ على عروجه وأنه صار بالأفق الأعلى ثم استقرّ.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ضميرا الفاعل يرجعان إلى النبي، والمعنى: ثم قُرب النبي من الله وزاد في القرب.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ اسم كان ضمير راجع إلى النبي، والمعنى: فكان بُعد النبي عن الله قدر قوسين أو أقرب من ذلك. واختلف المفسّرون في كون هذا القرب مكانياً أم معنوياً.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ الفاعل هو الله، حيث أوحى إلى النبي ما أوحى في ذلك المعراج من أمور أُشير إليها بالإجمال.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ وحيث أن النبي قد اطلع على جانبٍ من الغيب ومن ملكوت السماوات، لذا فالرؤية بالفؤاد. أو أنه رأى الله بالفعل كما يدّعي البعض ذلك، أو رأى الله بفؤاده، بمعنى: زادت معرفته بالله، أو رأى جبريل في صورته الحقيقية، أو أنّ ما رآه بعينه لم يكن خداعاً بصرياً أو تخيلات، بل حقيقة، فقد صدّق فؤاده ما رأت عيناه.

﴿أَفْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ (١٢) التوبيخ للمشركين الذين جادلوا النبي في ما أخبرهم به من أمور المعراج.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) عاود النبي واقترب مجدداً في نفس المعراج، وأن ذلك لأجل التخفيف من عدد ركعات الصلوات المفروضة اليومية كما تحدّثنا عن ذلك في الفصل الخاص بالإسراء... أو لغير ذلك من الأسباب.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) جرى اللقاء الثاني عند سدرة المنتهى، وجنة الآخرة عند سدرة المنتهى.... إلخ الآيات التي تصف الحدث. الاحتمال الثاني: الآيات تصف المعراج الذي وقع مرتين، أحدهما مع الإسراء... أو وقع المعراجان بصورة منفصلة عن الإسراء:

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ (١٦) الفاعل: جبريل. وضمير المفعول به يعود إلى النبي. أي أن هذا الكلام الموحى إلى النبي قد تعلّمه على يد جبريل الشديد القوي.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ (١٧) وجبريل يتّصف بالشدة والعزم القوي في تنفيذ الأمر الإلهي الخاص بالوحي، فلا تراخي عنده ولا إهمال ولا ضعف ولا خيانة. ثم تبدأ الآيات بعد ذلك في وصف ما جرى في معراج النبي بمعية جبريل:

﴿فَاسْتَوَى﴾ (١٨) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (١٩) الضمير «هو» راجع إلى النبي، ويدل على عروجه وأنه صار بالأفق الأعلى ثم استقرّ. هذا هو المعراج الأول.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٢٠) ضميرا الفاعل يرجعان إلى النبي، والمعنى: ثم قَرُبَ النبي من الله وزاد في القرب.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٢١) اسم كان ضمير راجع إلى النبي، والمعنى: فكان بُعد

النبي عن الله قدر قوسين أو أقرب من ذلك. واختلفوا هل هو قرب مكاني أم لا. ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ﴿١٠﴾ الفاعل هو الله، حيث أوحى إلى النبي ما أوحى في ذلك المعراج من أمور أشير إليها بالإجمال.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ﴿١١﴾ وحيث أن النبي قد اطلع على جانب من الغيب ومن ملكوت السماوات، لذا فالرؤية بالفؤاد. أو أنه رأى الله بالفعل كما يدعي البعض ذلك، أو رأى الله بفؤاده، بمعنى: زادت معرفته بالله، أو رأى جبريل في صورته الحقيقية، أو أن ما رآه بعينه لم يكن خداعاً بصرياً أو تخيلات، بل حقيقة، فقد صدق فؤاده ما رأت عيناه.

﴿أَفْتَمَارُوهَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ ﴿١٢﴾ التوبيخ للمشركين الذين جادلوا النبي في ما أخبرهم به من أمور المعراج.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿١٣﴾ ضمير الفاعل يرجع إلى النبي، والمعنى أن جبريل نزل على النبي نزلة ثانية، فخرج به إلى السماوات مرة أخرى.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ فرأى النبي جبريل على صورته الحقيقية عند سدرة المنتهى، وذلك في المعراج الثاني. أو رأى الله بفؤاده في المعراج الثاني... وجنة الآخرة عند سدرة المنتهى... إلخ الآيات التي تصف الحدث.

الاحتمال الثالث: الآيات تصف المبعث النبوي ولا علاقة لها بالمعراج، وهي تُخبر عن أن النبي رأى جبريل في صورته الحقيقية مرتين:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ حين قال بأنه نبي مبعوث من قبل الله، وأن الوحي قد نزل عليه.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢) والريغات الشخصية لتحقيق المُلْك أو المال أو غير ذلك حين قال لكم أنه نبي مبعوث من عند الله وأنّ ما يتلوه عليكم هو كلام الله الذي أوحى إليه بواسطة جبريل.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي الكلام الذي يتلوه عليكم محمد.

﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (٣) إليه من قبل الله.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (٤) هذا الكلام الموحى إلى النبي قد تعلّمه على يد جبريل الشديد القوي.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ وجبريل يتّصف بالشدة والعزم القوي في تنفيذ الأمر الإلهي الخاص بالوحي، فلا تراخي عنده ولا إهمال ولا ضعف ولا خيانة. ثم تبدأ الآيات بعد ذلك في وصف ما جرى في مبعث النبي لا المعراج:

﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ (٥) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ (٦) الضمير «هو» راجع إلى جبريل الذي نزل من السماء حتى استقر في الأفق مع ارتفاع عن الأرض أمام مرأى النبي.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٧) ضميرا الفاعل يرجعان إلى جبريل، فيكون المعنى: ثم دنا جبريل من الأرض أكثر فتدلى بحيث شاهده النبي أمامه.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (٨) اسم كان ضمير راجع إلى جبريل، والمعنى: فكان بُعد جبريل عن النبي أو الأرض قدر قوسين أو أقرب ممّا مكّن النبي من رؤيته بوضوح، ولم يكن الأمر كالخيال أو الرؤية المشوّشة.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (٩) الفاعل هو الله، حيث أوحى إلى النبي -بواسطة

جبريل - ما أوحى في هذا اللقاء الأول الخاص ببعثته. أو: فأوحى جبريل إلى النبي الذي هو عبد الله.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١) إِنَّ رُؤْيَا النَّبِيِّ لَجَبْرِيلُ فِي الْمُبْعَثِ كَانَتْ حَقِيقَةً، فَقَدْ صَدَّقَ الْفُؤَادُ مَا رُؤِيَ بِالْعَيْنِ.

﴿أَفْتَمَّارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ (١٢) التوبيخ للمشركين الذين جادلوا النبي في حديثه حول رؤية جبريل وأمر الوحي. ويُلاحظ هنا استعمال الفعل المضارع ﴿يَرَى﴾ مما يدل على الاستمرار أو التكرار بدلاً عن ﴿رَأَى﴾ بصيغة الماضي التي جاءت في الآية السابقة. ثم أضافت الآيات: بل نقول لكم بشكل قاطع وأكد أن هذه الحادثة عند بداية البعثة لم تكن المرة الوحيدة التي رأى فيها النبي جبريل على هيئته وتلقى من خلالها كلام الله وحياً:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ (١٣) ضمير الفاعل يرجع إلى النبي. لقد رأى النبي جبريل على حقيقته وهيئته الملائكية عندما نزل مرة أخرى. ولو كانت هذه الآية وما بعدها تتحدث عن «المعراج» أي عروج النبي إلى السماوات -أو السماء- لما استعملت الآية تعبير ﴿نَزْلَةً أُخْرَى﴾ لأنَّ المعراج والعروج صعود وليس بنزول.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (١٥) هناك عدّة احتمالات في تأويل هاتين الآيتين، من بينها أنّ اللقاء جرى عندما كان النبي عند شجرة نبق -سدره- نابتة في منتهى وقمة جبل النور عند «غار حراء» الذي أطلق عليه عنوان ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ فقد كان يأوي النبي «صلى الله عليه وآله» إلى هذا الغار للتعبّد فيه من حين إلى آخر، فكان الغار بالنسبة إليه بمثابة «جنة معنوية». أو بلحاظ أنّ هذا الموقع الذي تمّ فيه

هذا اللقاء -سواء أكان غار حراء أو غيره- روضة من رياض الجنة، تماماً كما جاء بشأن الموقع المحدود ما بين قبر النبي ومنبره في المسجد النبوي الشريف، ويُعرف عند المسلمين قاطبةً باسم «الروضة النبوية الشريفة». أو أنّ هذه الرؤية الصادقة من قبل النبي لجبريل وقعت عند حدّ نهاية البصر الذي لا يكاد يُبصر بعده شيئاً. جاء في معاجم اللغة العربية في معنى «سدر»: (بلغ سدره المنتهى: بلغ أقصى غاية. وسَدِرَ بصره سَدْرًا، فهو سَدِرٌ: لم يكْد يُبصر)^(١). ولكن الملاحظ على هذا التأويل الثالث أنه لم يبيّن معنى ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ بما يتوافق مع هذا التأويل.

﴿إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ مشهد مشابه لمشهد النار التي شاهدها النبي موسى في الشجرة عند بعثته، دون أن تحرق تلك الشجرة، لأنها كانت ناراً غيبيةً. قال «تعالى»: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا خَبَرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٢) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا^(٣) من الملائكة النازلين لرعاية هذا الحدث العظيم. وقال «تعالى»: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٤) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ^(٥)﴾^(٦).

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ فقد كانت معاينة حقيقية وصادقة في هذه المرّة أيضاً.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ لقد رأى النبي من آيات الله الكبرى حين رأى

١. ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ٣٥٥.

٢. سورة النمل: ٧-٨.

٣. سورة القصص: ٢٩-٣٠.

جبريل في صورته الحقيقية، وما غشى السدرة وما انكشف له من عالم الغيب. هذه الآيات في مجملها مشابهة للآيات الواردة في سورة التكويد «١٧-٢٤» والتي تؤكد أمر المبعث وأن القرآن من عند الله، وأن النبي يوحى إليه:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۖ إِنَّهُ﴾ هذا القرآن والوحى.

﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝﴾ وهو جبريل.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ الله هو ذو العرش، والكلام في وصف جبريل.

﴿مَكِينٍ ۝﴾ ذو مقام ومكانة عالية عند الله، أو صاحب سلطة وقول مسموع كما جاء في وصف النبي يوسف بعد استلامه المهام الموكلة إليه من قبل الملك: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ (١).

﴿مُطَاعٍ﴾ وهو ما يقوى المعنى الثاني لـ «مكين».

﴿ثُمَّ أَمِينٍ ۝﴾ فهو يؤدي الوحي تاماً كما هو، لا يخون ولا يغير ولا ينقص ولا يضيف من عنده شيئاً على الرسالة الإلهية.

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ أي النبي محمد. ويلاحظ استعمال نفس الصفة للنبي في سورة التجم أيضاً إذ قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۝﴾.

﴿بِمَجْنُونٍ ۝﴾ حين قال لكم أنه شاهد جبريل وكلمه.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝﴾ حيث دنا جبريل من الأرض حتى كان قاب قوسين أو

أدنى، مما أمكن النبي من رؤيته بكل وضوح.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي النبي.

﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ الذي أُوحى إليه.

﴿بِضْنِينَ ٩٢﴾ بخيل ولا كتوم ولا مغير ولا مبدل لبعضه أو كله، بل يُعلم الناس كما علمه الله ويبلغهم ما أمر بتبليغه.

ثم لو كانت سورة النجم تتحدّث عن المعراج، لكان الجواب في سورة الإسراء -التي نزلت لاحقاً- حين طلبوا من النبي الرُّقي في السماء أن يقول لهم ما معناه: «أنسيتم سورة النجم وما جاء فيها من حديثٍ عن المعراج؟».

والخلاصة أنّه ليس في القرآن الكريم ذكر للمعراج، بل للإسراء فقط، وإذا أراد أحد أن يثبت وقوع المعراج فعلاً، فلا بدّ من أن يعتمد على الروايات فقط، وهذا قد يصطدم مع قوله «تعالى»: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ٩٠ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ٩١ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ٩٣﴾ (١).

• المعراج في الروايات:

نعم، لو اكتفينا بالقول بعدم دلالة القرآن الكريم على وقوع المعراج، وأن لا نفي فيه للمعراج، فإنّ هذا لا يكفي لنفي وقوع الأمر كما لا يخفى، لا سيّما مع تسالم

المسلمين على وقوعه على مرّ القرون المتمادية، ومع وجود عدد كبير من الروايات في هذا الباب، ممّا دفع ببعض علماء الفريقين إلى القول بالتواتر المعنوي لا اللفظي.

قال الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» حول تواتر خبر المعراج: (فقد تواترت الأحاديث الصحيحة عنه أنه أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأنه عُرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز السماوات السبع)^(١).

وقال المحدّث أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبي: (وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس، وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبي حبة وأبي ليلي الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة، وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء، وصهيب الرومي وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق «رضي الله عنهم أجمعين». منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون)^(٢).

وقال العلامة المجلسي في «بحار الأنوار»: (اعلم أنّ عروجه «صلى الله عليه وآله» إلى بيت المقدس ثمّ إلى السماء في ليلة واحدة بجسده الشريف، ممّا دلّت عليه الآيات والأخبار المتواترة من طرق الخاصة والعامة)^(٣).

وقال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره «الأمثل»: (في الكتب الإسلامية

١. الشنقيطي: أضواء البيان، ج٣، ص٢٨٠.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٦.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٨٩.

المعروفة هناك عدد كبير جداً من الأحاديث والروايات التي جاءت حول قضية المعراج، حتى أنّ الكثير من علماء الإسلام يذهب إلى تواتر حديث المعراج أو اشتهاؤه^(١).

إلا أنّ التواتر لا يتحقّق ولا تكون له قيمة علمية إلا وفق شروط معينة^(٢)، وقد حدّر الشيخ زين الدين العاملي الملقّب بالشهيد الثاني (ت ٩٦٥هـ) من الوقوع في فخّ الأحاديث الموضوعة التي تتحوّل بكثرة تناقلها إلى أحاديث متواترة في نظر البعض، في حين أنّها ليست كذلك، وأنّ أكثر ما ادّعي تواتره هو من هذا القبيل، ينظر مدّعي التواتر إلى تحقّقه في زمانه -أو هو وما قبله- من غير استقصاء جميع الأزمنة، ولو أنصف لوجد الأغلب خلواً أوّل الأمر منه، بل ربما صار الحديث الموضوع ابتداءً، متواتراً بعد ذلك، لكن شرط التواتر مفقود من جهة الابتداء^(٣).

ومما يقلّل من قيمة هذه المرويات أنّها متضاربة من حيث المضمون وبشكل كبير -كما سيظهر معنا لاحقاً خلال عرض التفاصيل حول مجريات المعراج- وهذا التضارب والتعارض يُضعف من قيمتها العلمية، فالمسألة ليست من باب الاختلاف في اللفظ، أو زيادة ونقصان المعلومات فيما بينها، بل تعارضٌ بيّن في التفاصيل، ولذا يصعب قبول ادّعاء التواتر، وإذا قبلنا بذلك فإنه لا يوصلنا إلى درجة العلم ولا الاطمئنان، مما يُفقد الحُجّة في نهاية المطاف.

وإذا أردنا أن نعتمد في تصحيح الروايات على مبنى صحّة الأسانيد واعتبارها، فإنّ

١. مكارم الشيرازي: الأمثل، ج ٨، ص ٣٨٨.

٢. انظر ما جاء في كتابي (في عمق التاريخ - الجزء الثاني) حول قيمة التواتر وكيفية تحقيقه.

٣. العاملي: الدراية، ص ١٥.

في بحار الأنوار -بحسب المبنى الذي اعتمده الشيخ آصف محسني في تحقيقاته- تسع روايات معتبرة فحسب^(١)، بعضها يختص بالإسراء، وبعضها بالإسراء والمعراج معاً، ومن أراد أن يتجاوز ما ذكرناه ضمن البحث القرآني من أنّ الآيات لا تساعد على القول بوقوع المعراج على وجه التحديد، بل يمكن أن نفهم منها عدم وقوع الرقيّ -العروج- إلى السماء كما في الآية ٩٣ من سورة الإسراء، فإنّه يستطيع أن يُقدّم هذه الروايات كدليل على وقوع ذلك فعلاً، وقد أورد العلامة المجلسي في بحاره أكثر من ١٢٠ رواية في خصوص الإسراء والمعراج جمعها من مصادر عدة. ثم إنّ:

١. صحّة السند -لوحدها- غير كافية للقول بصحّة متن الرواية، فكم من رواية صحيحة السند تتعارض بشكل واضح مع آيات من القرآن الكريم، فكيف نقبل بها وإن صحت سنداً؟ ويمكن أن نتفهم مثل هذا التعارض حين ندرك أنّ البعض قد عمل على وضع الأسانيد واختلاقتها لتصحيح بعض الروايات، وهذه المسألة بحثها عددٌ من أهل الاختصاص في مجال الحديث وعلومه، وأقروا بحقيقتها، وجاءوا بشواهد على ذلك، كما أنّ تعدّد الأسانيد قد لا يدلّ على تراكم عدديّ يساعد على تكوّن التواتر، لأنّ وضع الحديث واختلاقه من قبل الكذّابين لا يقتصر على المتن، بل قد يشمل السند أيضاً^(٢)، فقد يقوم الواضع بالعثور على حديث آحادي موجود، وله سند أو لا سند له، فيقوم -لأجل تقوية هذا الحديث الذي يجد في متنه ما يناسب مصالحه- باختراع سند له، برواية معروفين أو مجاهيل أو مخترعين، كلّاً أو بعضاً.

هذه الظاهرة بالغة الخطورة، وهي تعني أنّ كثرة الأسانيد التي فيها أشخاص ضعاف

١. انظر المعبر من بحار الأنوار ج ١ ص ٢٩٠-٢٩٨.

٢. للمزيد، انظر ما جاء في كتابي (في عمق التاريخ - الجزء الثاني) حول قيمة التواتر وكيفية تحقيقه.

أو محتملي الضعف جداً، يصعب تحصيل الوثوق منها فضلاً عن التواتر، لاحتمال أنهم جميعاً اخترعوا الأسانيد لمتن كان موجوداً بسند ضعيف، فلا ينبغي الاغترار بكثرة الطرق قبل نقد هذا الجانب^(١).

كما قام البعض بدس الروايات الموضوعة وإقحامها في كتب أصحاب الأئمة «عليهم السلام»، كالذي قام به المغيرة بن سعيد وأبو الخطاب الأسدي بشأن روايات الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق «عليهما السلام».

فقد سئل يونس بن عبد الرحمن، وهو من أصحاب الإمام علي بن موسى الرضا «عليه السلام»: (يا أبا محمد، ما أشدك في الحديث وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا، فما الذي يجعلك على رد الأحاديث؟ فقال: حدثني هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله «عليه السلام» يقول: لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة^(٢) أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد «لعنه الله» دس في كتب أصحاب أبي^(٣) أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا «تعالى» وسنة نبينا محمد «صلى الله عليه وآله»، فإننا إذا حدثنا قلنا: قال الله عز وجل»، وقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»).

ثم أضاف يونس ما يؤكد صحة ما سبق قال: (وافيتُ العراق فوجدتُ بها قطعةً من أصحاب أبي جعفر «عليه السلام»، ووجدتُ أصحاب أبي عبد الله «عليه السلام» متوافرين، فسمعتُ منهم وأخذتُ كتبهم فعرضتها من بعدُ على أبي الحسن الرضا

١. حب الله: حجية الحديث، ص ٦٩.

٢. أي المؤكدة منها التي نظمنا لصدورها عن النبي وتبلغ من الحجية ما يقارب حجية النص القرآني.

٣. أي الإمام محمد الباقر.

«عليه السلام»، فأنكر منها أحاديث كثيرة أن يكون من أحاديث أبي عبدالله «عليه السلام»، وقال لي: إنَّ أبا الخطاب كَذَبَ على أبي عبدالله «عليه السلام». لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحابُ أبي الخطاب يدسُّون هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كُتُبِ أصحابِ أبي عبدالله «عليه السلام»، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن، فإنَّا إنَّ تحدَّثنا حدَّثنا بموافقة القرآن وموافقة السنَّة^(١).

٢. وقد أشار الشيخ آصف محسني إلى إشكالية أخرى، وهي أنَّ المتأمل في كلام العلامة المجلسي -في الفصل الأول والثاني من مقدمة بحاره- يُدرك بسهولة أنَّ نُسخ مصادر كتابه لم تصل إليه من مؤلَّفيها بأسانيد متَّصلة معتبرة، وإنَّ شئتَ فقلَّ أنَّ المجلسي لم ينقل عنها بالمناولة، بل ينقل بالوجادة، أي أنَّه وجد المؤلَّفات في الأسواق وعند الأفراد -كما يظهر من كلامه- ولعلَّه لم يصل إليه نسخة كتاب واحد من مؤلَّفه بالمناولة المعتبرة بتوسُّط الثقات والصادقين.

وهذا يعني أنَّ لا مجال للحُكم بصحَّة نسبة تلك الكتب إلى أصحابها بمجرد حدس بعض العلماء، وبقطع النظر عن إقامة دليل وشواهد على صحة النسخة الواصلة إلى المجلسي. وحيث لم يثبت وصول نسخة كتاب إلى المجلسي، لذا لا يُعتبر ما فيه من الروايات والأخبار وإن صحَّت أسنادها من قبل المؤلِّف إلى الإمام «عليه السلام»، إذ لا بدَّ من إحراز انتساب نسخة الكتاب إلى مؤلَّفه الثقة أيضاً.

ثم ختم كلامه بقوله: (وهذا الأمر فليكن ببال القراء المحققين إذ يترتَّب عليه ضعف روايات كثيرة تُعدَّ عند المشهور من المعتبرات)^(٢).

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٠.

٢. محسني: مشرعة بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٣-٢٤.

٣. منهج النبي والأئمة في أخذنا بالروايات يعتمد في المقام الأول على العرض على القرآن، وهذا ما دلّ عليه قول النبي «صلى الله عليه وآله» وقول الأئمة «عليهم السلام» في أكثر من مورد، من قبيل ما رواه الصادق عن النبي أنه قال: (إنّ على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً) أي أن ما يدلّك على الحق والصواب موجود، فاسع إليه، وهو القرآن: (فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه)^(١). وعنه «عليه السلام» أنه قال: (خطب النبي «صلى الله عليه وآله» بمنى فقال: أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله)^(٢).

ومع هذا فقد ظهر قديماً اتّجاه يدعو -ولو بصورة غير مباشرة- إلى تقديم الحديث على القرآن، وقد روى الأوزاعي عن مكحول بن عبدالله الشامي الهذلي (ت ١١٢هـ)^(٣) قوله: (القرآن أحوج إلى السنّة من السنّة إلى القرآن)^(٤).

وبلغ بيحيى بن أبي كثير الطائي (ت ١٢٩هـ)^(٥) أن يقول: (السنّة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ على السنّة!). وقد دفعت هذه المقولة إمام الحنابلة أن يعلّق عليها

١. الكليني: الكافي، ج ١، ص ٦٩.

٢. ن.م.

٣. محدّث فقيه حافظ، عالم أهل الشام، من كبار أعلام التابعين، وأشهر فقهاءهم في بلاد الشام. عُدّ في أوساط التابعين من أقران الزُّهري. روى أحاديث مرسلة عن جماعة من الصحابة والتابعين. قيل أنه كان فارسياً من سبي كابل، وقيل بل من النوبة.

٤. الراجحي: قمع الدجاجة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، ص ٣٩٥.

٥. فقيه تابعي ومحدّث من صغار التابعين، قال عنه ابن حجر العسقلاني: «ثقة ثبت لكنه يدلّس ويرسل». وقد احتمل الأئمة تدليسه لإمامته! وقال مرّة: أحد الأئمة الأثبات الثقات المكثرين كثير الإرسال والتدليس والتحديث من الصحف، لم يسمع من أحد من الصحابة، ورأى أنساً ولم يسمع منه واحتجّ به الأئمة.

قائلاً: (ما أجسرُ على هذا أن أقوله، ولكي أقول: إن السنّة تفسّر الكتاب وتبيّنه)^(١).

وقال الفقيه المالكي ابن عبد البر الأندلسي معترضاً على صحّة روايات عرض الحديث على القرآن: (أمر الله «عزّ وجل» بطاعة رسوله وأتباعه أمراً مُطلقاً مجملاً لم يُقيّد بشيء، ولم يقل: ما وافق كتاب الله؛ كما قال بعض أهل الزيغ، قال عبد الرحمن بن مهدي: الزنادقة والخوارج وضّعوا ذلك الحديث، وهذه الألفاظ لا تصحّ عنه «صلى الله عليه وسلم» عند أهل العلم بصحيح النّقل من سقيمه، وقد عارض هذا الحديث قومٌ من أهل العلم فقالوا: نحن نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كلّ شيء، ونعتمد على ذلك، قالوا: فلمّا عرضناه على كتاب الله «عزّ وجل»، وجدناه مخالفاً لكتاب الله؛ لأنّنا لم نجد في كتاب الله إلّا نقبل من حديث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلّا ما وافق كتاب الله، بل وجدنا كتاب الله يُطلق التّأسي به والأمر بطاعته، ويحدّر المخالفة عن أمره جملةً على كل حال)^(٢).

وقال الشّوكاني: (حديث: «إذا روي عني حديث، فاعرضوه على كتاب الله، فإذا وافقه فاقبلوه، وإن خالفه فردّوه»، قال الخطابي: وضّعته الزّنادقة، ويدفعه حديث: «أوتيت الكتاب ومثله معه»؛ كذا قال الصّغاني، قلت: وقد سبقهما إلى نسبة وضعه إلى الزنادقة: يحيى بن معين؛ كما حكاه عنه الذهبي، على أنّ في هذا الحديث الموضوع نفسه ما يدلّ على رده؛ لأنّنا إذا عرضناه على كتاب الله «عزّ وجل» خالفه؛ ففي كتاب الله «عزّ وجل»: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، ونحو هذا من الآيات)^(٣).

١. القرطبي: جامع أحكام القرآن، ج ١، ص ٣٩.

٢. ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، ج ٢، ص ١١٩٠.

٣. الشّوكاني: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية، ص ٢٩١. والآية من سورة الحشر: ٧.

وتحت عنوان «حديث: اعرضوا السنّة على القرآن وضعتة الزنادقة لهدم الإسلام»، قال الشيخ محمد بن علي بن جميل المطري: (القول بعرض السنّة على القرآن فإن وافقها قُبِلت، وإن خالفها رُدّت، قولٌ لا يصدر إلا من جاهل بمنزلة سنّة النبي «صلى الله عليه وسلم» الذي أمرنا الله في القرآن بطاعته واتباعه، وحذّرنا من مخالفة أمره، وقائل هذا القول -إن كان عارفاً معنى كلامه وملتزمأً به- لم يُعظّم النبي «صلى الله عليه وسلم» حقّ تعظيمه، حيث سوّى قوله بقول غيره، ولم يفرّق بين قول الرسول وقول غيره).

ثم أطلق تحدياً غريباً بالإتيان بحديث صحيح واحد يعارض القرآن، قال: (ثم إنّه لا يوجد أصلاً حديث صحيح يعارض القرآن، ونتحدّى من يأتي بحديث صحيح يعارض آية في كتاب الله، وإذا وُجد حديث صحيح ظاهره يخالف القرآن فقد وجّهه العلماء، وبيّنوا معناه، كما وجهوا بعض الآيات التي يخالف ظاهرها آيات أخرى في كتاب الله)^(١).

ولا يخفى ما في الكلام السابق من خطأ فاحش وذلك عندما خلط بين السنّة النبوية وبين الحديث، فليس كل حديث بسنّة، لأنّ من المحتمل أن يكون الحديث المروي موضوعاً أو منقولاً بصورة خاطئة أو ناقصة أو مشوّهة أو محرّفة، وهو ما لا يحتاج إلى استدلال ونقاش، وقد قال بذلك علماء المسلمين من كافّة الفرق، بل وليس ليكتب غنوّت بأنها كتاب «صحيح» إلا لوجود غير الصحيح، كما لا يخفى.

ويضاف إلى هذا أنّ كُتب الصّحاح أيضاً تمثّل جهوداً بشرية مشكورة، ولكنها ليست معصومة عن الخطأ والسهو، وهناك عوامل عديدة لها مدخلة في وقوع الخطأ

من قبل الحفاظ والرواة والمحدثين، وفي معاييرهم في تقييم الأحاديث والرواة والكتب المنقول عنها.

وعليه نستطيع القول أنّ الذي لا يعارض القرآن الكريم هو ما كان صادراً على وجه اليقين عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأما الأحاديث المظنون صدورها فليست بالضرورة كذلك.

والمعيار الآخر الذي نعرض عليه الحديث هو العقل، فعن النبي «صلى الله عليه وآله»: (إذا أتاكم عني حديث فأعرضوه على كتاب الله وحجة عقولكم فإن وافقهما فأقبلوه وإلا فاضربوا به عرض الجدار)^(١). كما أن الحقائق العلمية الثابتة والأكيدة يمكنها أن تكون وسيلة لقبول الرواية أو رفضها أو تأويلها إن أمكن.

وفيما يلي بعض الأمثلة لروايات معتبرة من حيث السند وفقاً لبعض كبار الفقهاء وعلماء الرجال، ولكن -لسبب أو لآخر- لا يصحّ قبول مضمونها:

أ. في الكافي عن أبان بن تغلب، قال: (سألت أبا عبد الله «عليه السلام» عن الأرض على أي شيء هي؟ قال: على الحوت)^(٢). قلت: فالحوت على أي شيء هو؟ قال: على الماء. قلت: الماء على أي شيء هو؟ قال: على الصخرة، قلت: فالصخرة على أي شيء هي؟ قال: على قرن ثور أملس. قلت: فعلى أي شيء الثور؟ قال: على الثرى)^(٣). قلت: فعلى أي شيء الثرى؟ فقال: هيهات! عند ذلك ضلّ علم العلماء)^(٤).

١. الرازي: التفسير الكبير، ج ٣، ص ٣٩٢.

٢. أي على السمكة.

٣. أي على التراب.

٤. الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٩١.

هذا المضمون ورد في عدد من كتب السنة والشيعة من قبيل «كتاب العلل» لأحمد ابن حنبل، و«المستدرک علی الصحیحین» للحاکم النیسابوری، و«علل الشرائع» للشيخ الصدوق. وقد ردّها ورفضها بعضُ علمائنا -كالسيد المرتضى والشيخ المفيد- منذ قرابة الألف سنة، وقبل الاكتشافات العلمية الحديثة، مع صحّة سندِها.

والطريف أنّ الباحث عندما يحاول أن يعرف مصدر هذا تصوّر الطفولي للأرض، يجد أنّ كلّ شعب يعكس بيئته في ذلك، فالهنود كانوا يتصوّرون أنّ الأرض على صفيحة فضّية، محمولة على ظهور مجموعة من الفيلة... بينما في اليابان، تصوّروا الأرض على ظهر سمكة كبيرة... وفي بعض المجتمعات الشرقيّة على قرن ثور، وأنّ الزلازل تحدث نتيجة حركة هذه الحيوانات أو انتقال الأرض من قرن إلى آخر! ومَن وَضَعَ الحديث السابق على لسان الإمام الصادق «عليه السلام» جمع أكثر من ثقافة وأراح نفسه.

بالطبع، فإنّ البعض يحاول تصحيح المضمون تمسّكاً برمزيته، ولكننا عندما نعود إلى القرآن سنجدّه يقدّم مثل هذه الصورة العلمية الرائعة: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١)، وهو يستعمل كلمة الأرض في ٤٤ مورداً، خلّت من التّصاویر السّاذجة الواردة في مثل ذلك الحديث.

والمفارقة أنّ بعض أهل السنّة لمز الشيعة لأنهم رَووا هذا الحديث، وبعض الشيعة لمزوا أهل السنة لأنّ هذا الحديث مدوّن في بعض صحاحهم، وقد ورد الخبر ١٣ مرة في مصادر الشيعة و ٩ مرات في مصادر السنة.

ب. في الكافي بالسند عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله «عليه السلام»: (في التّطفتين

اللّتين للآدمي والشیطان إذا اشتركا، فقال أبو عبد الله «عليه السلام»: ربّما خلق من أحدهما وربما خلق منهما جميعاً^(١).

ولكي نفهم معنى الخبر، نعود إلى الرواية التي سبقتها من حيث الترتيب في نفس المصدر، وهي عن أبي بصير قال: (قال لي أبو عبد الله «عليه السلام»: يا أبا محمد إذا أتيت أهلك فأبشّرني بشيء تقول؟ قال: قلت: جعلت فداك وأطيق أن أقول شيئاً؟ قال: بلى. قل: اللّهم بكلماتك استحللت فرجها، وبأمانتك أخذتها، فإن قضيت في رحمها شيئاً فاجعله تقيّاً زكياً، ولا تجعل للشیطان فيه شركاً. قال: قلت: جعلت فداك، ويكون فيه شرك للشیطان؟ قال: نعم، أما تسمع قول الله «عز وجل» في كتابه: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(٢)؟ إن الشيطان يبيح فيقعد كما يقعد الرجل، ويُنزّل كما يُنزّل الرجل، قال: قلت: بأي شيء يُعرف ذلك؟ قال: بحبنا وبغضنا)^(٣) أي إذا وجدت المولود يُبغض أهل البيت فإنّ ذلك يعود إلى مشاركة الشيطان في العملية التي تمت بين الزوجين، وفي المقابل، إن كان يحبهم، فلم تكن للشیطان في ذلك شراكة.

ونجد ما يشبه هذا المضمون عند أهل السنة في تفسير القرطبي عن مجاهد قال: (إذا جامع الرجل ولم يسمّ، انطوى الجانّ على إحليله، فجامع معه)^(٤).

وعن أم المؤمنين عائشة قالت: (قال لي رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: هل رأي فيكم المغرّبون؟ قلت: وما المغرّبون؟ قال: الذين يشترك فيهم الجن). قال الملاء علي

١. الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٥٠٣.

٢. سورة الإسراء: ٦٤.

٣. الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٥٠٣.

٤. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ١٠، ص ٢٨٩.

القاري في شرح العبارة السابقة: (أي في نطفهم أو في أولادهم لتركهم ذكر الله عند الوقاع، فيلوي الشيطان إحليله على إحليله فيجامع معه. قال «تعالى»: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ فيجب على الإنسان كما في الحديث: «إذا خالط امرأته أن يقول: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا»، فإذا ترك هذا الدعاء أو التسمية شاركه الشيطان في الوقاع، ويسمى هذا الولد مغرباً، لأنه دخل فيه عرق غريب، أو جاء من نسب بعيد^(١).

ج. عن عبدالله بن سنان قال: (سألت أبا عبدالله «عليه السلام» عن أولاد المشركين يموتون قبل أن يبلغوا الحنث^(٢)). قال: كفّار، والله أعلم بما كانوا عاملين، يدخلون مداخل آبائهم. وقال «عليه السلام»: يؤجّج لهم ناراً فيقال لهم: ادخلوها، فإن دخلوها كانت عليهم برداً وسلاماً، وإن أبوا قال لهم الله «عز وجل»: هوذا أنا قد أمرتكُم فعصيتُموني، فيأمر الله «عز وجل» بهم إلى النار^(٣).

فهل يتناسب هذا والعدالة الإلهية؟ وهل الآخرة دار اختبار؟ ولماذا لا يأمر الله أطفال المسلمين بذلك ليختبرهم؟ أم أنّ أبناء المسلمين لا يرتدّون ولا ينحرفون؟ أم لهم امتياز عمّن سواهم ومن دون اختيار منهم، إذ لا أحد يختار أبويه، والزمن الذي يولد فيه، والصفات الجينية التي يرثها، وغير ذلك من الأمور التي يكون فيها الإنسان غير مخيّر.. فعلى أي أساس يُعطى هذا الامتياز للبعض ويُحرّم منه آخرون؟ من الواضح أنّ العدالة الإلهية لا تلتقي مع مثل هذا القول، بل إنّ بعض الروايات الأخرى

١. القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج ٧، ص ٢٨٨٦.

٢. أي بلوغ الحلم وسنّ التكليف.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٥، ص ٢٩٥.

تتعارض بشكل واضح مع هذه المقولة، وتعتبر أن لا محاسبة للأطفال في الآخرة، وأن لهم وضعاً خاصاً.

د. في علل الشرائع عن البزنطي عن الرضا «عليه السلام» قال: (قلت: كيف كان أول الطيب؟ فقال لي: ما يقول من قبلكم فيه؟ قلت: يقولون: إنَّ آدم لما هبط بأرض الهند فبكي على الجنة سالت دموعه فصارت عروقاً في الأرض فصارت طيباً، فقال «عليه السلام»: ليس كما يقولون، ولكنَّ حواء كانت تغلّف قرونها^(١) من أطراف شجرة الجنة، فلما هبطت إلى الأرض وبلت بالمعصية رأت الحيض فأمرت بالغسل، فنقضت قرونها، فبعث الله «عز وجل» ريحاً طارت به وخفضته، فذرت حيث شاء الله «عز وجل»، فمن ذلك الطيب)^(٢).

هـ. وفيه أيضاً عن محمد الحلبي، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إنَّ القبضة التي قبضها الله «عز وجل» من الطين الذي خلق منه آدم «عليه السلام» أرسل إليها جبرئيل «عليه السلام» أن يقبضها، فقالت الأرض: أعوذ بالله أن تأخذ مني شيئاً. فرجع إلى ربّه فقال: يا ربّ، تعوّذت بك مني، فأرسل إليها إسرافيل، فقالت مثل ذلك، فأرسل إليها ميكائيل، فقالت مثل ذلك، فأرسل إليها ملك الموت، فتعوّذت بالله أن يأخذ منها شيئاً. فقال ملك الموت: وأنا أعوذ بالله أن أرجع إليه حتى أقبض منك، قال: وإنا سمي آدم آدم لأنه خُلِق من أديم الأرض)^(٣).

و. عن أبي سلام قال: (قال حذيفة بن اليمان قلت: يا رسول الله إنا كنا بشر، فجاء

١. أي ظفائر شعرها.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ص ١٦٧ - ١٦٨.

٣. ن.م. ص ١٩٣.

الله بخير، فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال: نعم، قلت: هل وراء ذلك الشرّ خير؟ قال: نعم، قلت: فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال: نعم، قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع^(١). وقد رواه الحاكم في المستدرك وصحّحه ووافقه الذهبي والألباني.

ز. وللحديث رواية أخرى رواها الحاكم بسنده عن سبيع بن خالد قال: (خرجت إلى الكوفة زمن فتحت تُستَر لأجلب منها بغالاً فدخلت المسجد فإذا صدع من الرجال تعرف إذا رأيتهم أنّهم من رجال الحجاز، قال: قلت: من هذا، قال: فحدقني القوم بأبصارهم وقالوا: ما تعرف هذا هذا حذيفة صاحب سرّ رسول الله، قال: فقال: حذيفة «رضي الله عنه» إنّ الناس كانوا يسألون رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عن الخير وكنت أسأله عن الشر، قال: قلت: يا رسول الله أرايت هذا الخير الذي أعطانا الله يكون بعده شرّ كما كان قبله، قال: نعم، قلت: يا رسول الله، فما العصمة من ذلك، قال: السيف، قلت: وهل للسيف من بقية، قال: نعم، قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم هدنة على دخن، قال جماعة على فرقة فإن كان لله «عز وجل» يومئذ خليفة ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع، وإلا فمُت عاضاً بجذُل شجرة، قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: يخرج الدجال ومعه نهر ونار، فمن وقع في ناره أجره وحطّ وزره، ومن وقع في نهره وجب وزره، وحطّ أجره، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم إنّما هي قيام الساعة^(٢).

١. مسلم: المسند الصحيح المختصر أو صحيح مسلم، ج ٢، ص ١٦٠، ح ٥٢.

٢. الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ج ٤، ص ٤٧٩، ح ٨٣٣٢.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح، ووافقه الذهبي في التلخيص.

ولكن في مقابل هذين الحديثين الأخيرين نجد الحديث التالي الذي يتعارض معهما، ويتناغم مع القرآن الكريم ويتمثل مع منطق رسول الله «صلى الله عليه وآله». فعن معاذ بن جبل أنه قال: (سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: خذوا العطاء ما دام العطاء لله، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه ولستم بتاركيه، يمنعكم الفقر والحاجة، ألا إنَّ رحي الإسلام دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إنَّ الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنَّه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، فإذا عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم، قالوا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم، نُشروا بالمناشير، وحُمِلوا على الخشب، موتٌ في طاعة الله خير من حياة في معصية الله)^(١).

وخلاصة الكلام أن مجرد التمسك باعتبار السند غير كاف للتأكد من صدور المتن عن النبي أو الإمام، وهكذا فإن التواتر إن لم يَقم على أسس سليمة، ولم يصل بنا إلى حد العلم بالصدور عن النبي أو الإمام، فلن يكون حُجة مُلزمة.

• هل تمّ المعراج بالجسد؟

أثار العلماء تساؤلاً حول طبيعة الإسراء والمعراج، هل تمّت الرحلتان بالجسد أم اقتصرتا على الروح، وهل كانت في عالم اليقظة أم المنام.. وانقسمت آراؤهم إلى ما يلي:

١. الرحلتان بجسد النبي «صلى الله عليه وآله» وروحه.

٢. الرحلتان بروحه فقط وحال يقظته.

١. الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ح ٩١٥٣.

٣. الرحلتان في المنام.

٤. الرحلتان بروحه المتلبّسة بجسم لطيف.

٥. الإسراء بالجسد والروح، ثم صار المعراج بالروح فقط.

وما دفع البعض إلى القول بروحانية المعراج -دون الإسراء- هو صعوبة تصوّر رحلة الإنسان بجسده إلى السماوات وفي زمن قصير جداً، مع ما تضمّنتها رحلة المعراج -بحسب الفرض- من تفاصيل كثيرة تتضمن حوارات ومشاهدات وغير ذلك.

وفي استعراضه لبعض النقاط التحليلية حول المسألة، اعتبر الشيخ آصف محسني أنّ ذهاب إنسان بجسمه وروحه ثم رجوعه في ليلة واحدة من الكرة الأرضية إلى السماوات مع الصلوات في أماكن من الأرض والكرات السامية، والتكلم مع الله والمؤمنين ودخول الجنان ومشاهدة تمثّلات برزخية كما في الروايات الكثيرة بعيدة جداً، بل مجرد طيّ مسافة سنوات نورية أو ملايين السنوات النورية بعد فرض خروج جنة المأوى عن مجرتنا، بل عن السماوات، وفرض كون النجوم والكواكب المحسوسة من الدنيا: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِرِيَّةٍ الْكَوَاكِبِ﴾^(١) في ليلة واحدة، بعيدة.

وأضاف المحسني أنّه لا يعتبر ذلك مستحيلاً عقلاً حتى وإن صحّت نظرية أنشتاين في تحديد سرعة النور وعدم تحقق سرعة حركة الأجسام أزيد منه، فإنّ الله قادر على إسراء أحدٍ بجسمه وروحه بألف وسيلة ووسيلة، ولكنه يعتبره أمراً مستبعداً.

ومن الاحتمالات التي ذكرها لحلّ هذه المعضلة، الأخذ بمقولة أنّ للروح في كلّ نشأة بدنّاً خاصاً، وخصائص هذه الأبدان مختلفة، وعليه فيمكن القول أن الله «عز وجل»

عَرَجَ بروح نبيّه وببدنٍ خاصّ لطيف يناسب هذا السفر المعراجي، وأنّ هذا الاحتمال هو الأنسب بلحاظ أنّ النبي تكلم مع الأنبياء والملائكة في السماوات، في حين أنّهم أجسام لطيفة^(١).

ولكننا إذا اقتصرنا على وقوع الإسراء فقط دون المعراج، فلن نكون بحاجة إلى كلّ هذه التأويلات، فتصوّر السفر من مكة إلى القدس ثم العودة مجدداً في ليلة واحدة أمر متصوّر، وليس كتصوّر المعراج، كما أنّ السفر بوسائل النقل الحديثة كالطائرات جعل من قطع المسافة ما بين مكة المكرمة وبيت المقدس متصوّر.

• شقّ الصدر وغسل الأحشاء:

أسهب بعض الرواة والقصاصين في تحيّل تفاصيل ما جرى في المعراج، ولا سيما تلك الخاصّة بالبراق وسدرة المنتهى ولقاء الأنبياء ومشاهدة الجنة والنار والنعيم والعذاب والمماكسة في تشريع الصلاة، وفصلوا حديثهم حول الرحلة سماءً فسماءً، إلى أن وصل النبي إلى العرش، وتخيّلوا أحداثاً وحوارات عدّة بين الله «عز وجل» وبين نبيه «صلى الله عليه وآله»، وبينه وبين جبريل «عليه السلام»، وغير ذلك مما لم يُشر إليه القرآن الكريم لا من قريبٍ ولا من بعيد.

ومن بين هذه التفاصيل قولهم بأنّ جبريل ومَن معه من الملائكة قاموا -قبل الإسراء والمعراج- بشقّ صدر النبي وغسل أحشائه، وهي القصة المتخيّلة التي ادّعى وقوعها أيضاً في بدايات حياته حين كان في حضانة حليلة السعدية.

عن مالك بن صعصعة قال: (قال نبي الله «صلى الله عليه وسلم»: بينا أنا عند البيت

١. محسني: مشرعة بحار الأنوار، ج١، ص ٣٤٤-٣٤٥.

بين النائم واليقظان، إذ أقبل أحد الثلاثة بين الرجلين^(١) فأُتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا. قال قتادة: قلت: ما يعني به؟ قال: إلى أسفل بطنه. قال: فاستخرج قلبي فغُسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشي إيماناً وحكمة....^(٢).

أما الرواية التالية فتدعي أنّ شقّ الصدر والإسراء ثم المعراج وقع كلّ قبيل بدء الوحي والبعثة! فعن شريك بن أبي نمر، قال: (سمعت أنساً يحدثنا عن ليلة المسرى برسول الله «صلى الله عليه وسلم» من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ قال أوسطهم، هو خيرهم. فقال أحدهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك. فلم يرههم حتى جاءوا ليلة أخرى فيما يرى ثلاثة، والنبي «صلى الله عليه وسلم» تنام عيناه، ولا ينام قلبه. وكذلك الأنبياء تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبرئيل «عليه السلام»، فشقّ ما بين نحره إلى لُبته^(٣)، حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم حتى أنقى جوفه، ثم أتي بطست من ذهب فيه تور^(٤) محشوّ إيماناً وحكمة، فحشا به جوفه وصدره ولغاديد^(٥)، ثم أطبقه...^(٦).

واعتبر أهل الحديث - كابن حجر العسقلاني - أنّ جميع ما ورد من شقّ الصدر

١. في رواية مشابهة «أحد الثلاثة بين رجلين» وهما حمزة بن عبد المطلب وجعفر بن أبي طالب.

٢. الطبري: جامع البيان، ج ١٥، ص ٥.

٣. اللبّة: موضع القلادة من الصدر.

٤. إناء يُشرب فيه.

٥. اللُّغْد: اللّحمَةُ بين الحنك وصَفْحَة العنق.

٦. إناء يُشرب فيه.

واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يُدهش سامعه، فضلاً عن شاهده - بلحاظ أنّ من شقّ بطنه وأخرج قلبه يموت لا محالة ومع ذلك فلم يؤثر فيه ذلك ضرراً ولا وجعاً فضلاً عن غير ذلك - كلّ ذلك مما يجب التسليم له دون تأويل ولا تعرّض لصرفه عن حقيقته، لأنّ الأمر ممكن في ذاته، والله على كل شيء قدير، فلا يستحيل شيء من ذلك^(١).

وبحسب ادّعائهم، فإنّ الحكمة في شقّ قلب النبي مع القدرة على أن يمتلك قلبه إيماناً وحكمة بغير شقّ، إنما يرجع إلى الزيادة في قوّة اليقين لدى النبي، لأنه أُعطي برؤية شقّ بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمّن معه من جميع المخاوف العادية، فلذلك كان أشجع الناس وأعلاهم حالاً ومقلاً.

وقد نظم شهاب الدين أحمد بن محمد الحسيني الحموي «ت ١٠٩٨هـ» في هذه الحوادث قصيدة، معتبراً أنّها قد تكرّرت أربع مرات، قال فيها:

أيا طالباً نظم الفرائد في عقد	مواطن فيها شقّ صدر لذي رشد
لقد شقّ صدر للنبيّ محمّد	مراراً لتشريف، وذا غاية المجد
فأولى له التشريف فيها مؤثّل	لتطهيره من مضغة في بني سعد
وثانيةً كانت له وهو يافع	وثالثة للمبعث الطيب الند
ورابعةً عند العروج لربه	وذا باتفاق فاستمع يا أخا الرشد
وخامسةً فيها خلاف تركتها	لفقدان تصحيح لها عند ذي النقد

وحاول ابن حجر الردّ على استنكار بعض العلماء خصوص وقوع شقّ الصدر ليلة

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٧، ص ٢٠٤-٢٠٥.

المعراج، لأنّ ذلك كان في زمن طفولة النبي في ديار بني سعد، معتبراً أنّ توارد الروايات به يكفي لإثباته، بل ولإثبات أنّ شق الصدر وقع أيضاً عند البعثة، ليكون المجموع بذلك ثلاث مرات، لا مرّة ولا مرّتين !

واعتبر أيضاً أن لكلّ من حوادث شق الصدر وغسل الأحشاء حكمة خاصة، فالأوّل -بالإضافة إلى الغسل- وقع فيه إخراج قطعة دم من قلبه حيث قال جبريل: «هذا حظّ الشيطان منك». وكان هذا في زمن الطفولة، فنشأ النبي على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان.

ثم وقعت حادثة شق الصدر الثانية عند البعثة زيادةً في إكرامه، ليتلقى ما يوحي إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير. ثم وقع شق الصدر للمرّة الثالثة عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهبّ للمناجاة، وأنّ من المحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ والغسل والتطهير والتنظيف بتكررها ثلاث مرات

وأشار ابن حجر إلى اختلاف العلماء في كون شق الصدر وغسله مختصاً بالنبي محمد «صلى الله عليه وآله» أو أنه وقع لغيره من الأنبياء أيضاً، واستند إلى رواية الطبراني في قصة تابوت بني إسرائيل والتي تتضمن ادّعاء أنّه -أي التابوت- كان فيه الطست التي «يُغسل فيها قلوب الأنبياء»، معتبراً أن هذا مُشعر بأنّ الأمر غير مختصّ بالنبي محمد! وعرّج بعد ذلك في حديثه على خصائص الطست والذهب بما جعلهما دون غيرهما من الأدوات والمعادن وسيلة غسل أشحاء النبي، أما خصوصية الطست فتكمن في كونه أشهر آلات الغسل عرفاً، وأما عن الذهب فلأنه أعلى أنواع الأواني الحسية وأصفاها، وفيه خواص ليست لغيره، فهو:

أ) من أواني الجنة.

ب) لا تأكله النار ولا التراب.

ج) لا يلحقه الصدا.

د) أثقل الجواهر.. وهذا يناسب ثقل الوحي!

ونقل ابن حجر عن السهيلي^(١) نقاشاً فقهياً حول جواز استعمال طست الذهب من قبل الملائكة لغسل جوف النبي، محتملاً أن يكون ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب الشريعة الإسلامية، أو أنّ الملائكة غير مكلفين بذلك، أو أنّ تحريم استعماله مخصوص بأحوال الدنيا، أما ما وقع في ليلة الإسراء فكان الغالب أنه من أحوال الغيب، فيلحق بأحكام الآخرة التي يجوز فيها استعمال أواني الذهب^(٢)!

وفي المقابل، فقد استبعد بعض العلماء قديماً وحديثاً صحة هذه القصة، ومرّ بنا في كلام ابن حجر إشارة إلى الرأي الذي يُنكر القصة ككل، ومن المعاصرين العلامة الشيخ محمد الغزالي السقا (ت ١٤١٦هـ) إذ رفض القول بصحة قصة شق الصدر لاستخراج علقه من قلب النبي، معتبراً أنّ الشرّ لو كان إفراز غدة في الجسم ينحسم بانحسامها؛ أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب كما تزود الطائرة بالوقود، فتستطيع السمو والتحليق، لقلنا: إنّ ظواهر الآثار مقصودة... ولكنّ أمر الخير والشر أبعد من ذلك؛ بل من البديهي أنّه بالناحية الروحية في الإنسان ألصق^(٣).

١. الحافظ أبو القاسم السهيلي هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الخطيب بن أصبع، والسهيلي نسبة إلى قرية من القرب من مالقة في الأندلس اسمها سهيل (ت ٥٨١هـ).

٢. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٧، ص ٢٠٥-٢٠٦.

٣. الغزالي السقا: فقه السيرة، ص ٥٩.

قال المجلسي: (اعلم أن شق بطنه «صلى الله عليه وآله» في صِغَرِه ورد في روايات كثيرة مستفيضة عند العامة - كما عرفت - وأمّا رواياتنا وإن لم يرد فيها بأسانيد معتبرة، لم يرد نفيه أيضاً، ولا ياباه العقل أيضاً، فنحن في نفيه وإثباته من المتوقّفين، كما أعرض عنه أكثر علمائنا المتقدمين. وإن كان يغلب على الظن وقوعه)^(١).

• سدرۃ المنتهى:

انفتحت قريحة الرواة والقصاصين في وصف شجرة المنتهى، على الرغم من الاحتمالات المختلفة حول المراد منها كما بيّنت خلال حديثي عن المعراج في سورة النجم. ولعلّ أوّل من فتح باب الوضع في وصف هذه الشجرة هو كعب أحبار اليهود، ثم صار كلّ راوي يضيف على رواية كعب ما شاء أن يضيف.

١. عن هلال بن يساف قال: (سأل ابن عباس كعباً عن سدرۃ المنتهى وأنا حاضر. فقال كعب: إنها سدرۃ على رؤوس حملة العرش، وإليها ينتهي علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم، ولذلك سميت سدرۃ المنتهى، لانتهاه العلم إليها)^(٢).

٢. عن أنس: (أنّ النبي «صلى الله عليه وسلم» قال: لما رُفِعت إلى سدرۃ المنتهى في السماء السابعة نبقتها مثل قلال هَجَر، وورقتها مثل آذان الفيلة، يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان. قلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات)^(٣). والقلال جمع قُلة، ويحتمل أن يكون المراد منها الجرة الكبيرة التي كانت تُصنع في هَجَر (الإحساء) لحفظ الماء بحيث تكفي لما يقدر باثني

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٤٠.

٢. الطبري: جامع البيان، ج ٢٢، ص ٥١٠.

٣. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ٦٣.

عشر لتر منهن والمعروف باسم (الحب)، ولكن الأقرب أن المراد منها في الرواية سلّة تخزين ونقل التمر التي تُصنع من سعف النخيل. [انظر اللوحة رقم ٤٥]

٣. عن أسماء بنت أبي بكر قالت: (سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول -وقد ذكر له سدره المنتهى- قال: يسير الراكب في ظل الغصن منها مائة سنة، أو يستظل بظلها مائة راكب -شكّ يحيى- فيها فراش الذهب، كأنّ ثمرها القلال)^(١).

٤. عن أبي هريرة: (لما أسري برسول الله «صلى الله عليه وسلم» انتهى به إلى سدره المنتهى فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإذا هي شجرة يسير الراكب المسرّع في ظلها مائة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمة كلها)^(٢).

٥. عن عيسى بن داود النجار، عن أبي الحسن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه «عليهم السلام»: (..... فإنّ النبي «صلى الله عليه وآله» لما أُسري به إلى ربّه «عز وجل» قال: وقف بي جبرئيل «عليه السلام» عند شجرة عظيمة لم أر مثلاً، على كلّ غصن منها وعلى كلّ ورقة منها ملك، وعلى كلّ ثمرة منها ملك، وقد كلّها نورٌ من نور الله «عز وجل»، فقال جبرئيل: هذه سدره المنتهى، كان ينتهي الأنبياء من قبلك إليها، ثم لا يجاوزونها وأنت تجوزها إن شاء الله ليريك من آياته الكبرى، فاطمئن أيّدك الله بالثبات، حتى تستكمل كرامات الله، وتصير إلى جواره. ثم صعد بي حتى صرت تحت العرش فدلّني لي رَفَرَف^(٣) أخضر ما أحسن أصفّه، فرفعني الرَفَرَف بإذن الله

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ٦٣.

٢. ن. م.

٣. وسادة أو ما يجعل في أطراف البيت من الخارج يُوقَى به من حرّ الشمس (مظلة).



اللوحة رقم ٤٥ : قلة هجر بحسب الاحتمالين

إلى ربّي فصرت عنده، وانقطع عنيّ أصوات الملائكة ودّوبهم، وذهبت عني المخاوف والروعات، وهدأت نفسي واستبشرت، وظننت أنّ جميع الخلائق قد ماتوا أجمعين، ولم أر عندي أحداً من خلقه، فتركني ما شاء الله، ثم ردّ عليّ روجي فأفقت، فكان توفيقاً من ربي «عز وجل» أنّ غمضت عيني، وكلّ بصري، وغشي عنيّ النظر، فجعلت أبصر بقلبي كما أبصر بعيني، بل أبعد وأبلغ...^(١).

وتجاوز بعض الرواة حدّ وصف سدرة المنتهى ليتحدّثوا عن دورها في إطعام البنات اليتامى من ذرية المؤمنين وكسوتهن! ولا أدري كيف يكون هذا الإطعام وهذه الكسوة السماوية لمن يعيش على الأرض!

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣٩٥.

٦. عن أحمد بن الحسن الحسيني، عن الحسن بن علي، عن أبيه، عن جدّه الرضا، عن أبيه موسى «عليهما السلام» قال: (سأل الصادق جعفر بن محمد «عليه السلام» عن بعض أهل مجلسه، فقيل: عليل، فقصده عائداً وجلس عند رأسه فوجده دنفاً^(١)) فقال له: أحسن ظنك بالله، قال: أما ظني بالله فحسن، ولكن غمي لبناقي، ما أمرضني غير غمي بهن، فقال الصادق «عليه السلام»: الذي ترجوه لتضعيف حسناتك ومحو سيئاتك فارجه لإصلاح حال بناتك، أما علمت أنّ رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: لما جاوزت سِدرة المنتهى وبلغت أغصانها وقضبانها، رأيتُ بعضَ ثمارِ قضبانها أذاء معلّقة يقطر من بعضها اللبن، ومن بعضها العسل، ومن بعضها الدهن، ويخرج عن بعضها شبه دقيق السميد، وعن بعضها الثياب، وعن بعضها كالتبق، فيهوي ذلك كلّهُ نحو الأرض، فقلت في نفسي: أين مقرّ هذه الخارجات عن هذه الخداء، وذلك أنّه لم يكن معي جبرئيل، لأنّي كنت جاوزت مرتبته، واختزل دوني، فناداني ربي «عز وجل» في سرّي: يا محمد، هذه أنبتها من هذا المكان الأرفع لأغذو منها بنات المؤمنين من أمّتك وبنيتهم، فقل لآباء البنات: لا تضيقن صدوركم على فاقتهن، فإنّي كما خلقتهم أرزقهن^(٢).

والرواية التالية تتّجه في نفس الاتجاه السابق حول مهمّة من مهام شجرة المنتهى بحسب زعم الراوي، ولكن بتفاصيل مختلفة مع توظيف لها في اتجاه مذهبي خاص، حيث تنافست المذاهب في توظيف خبر المعراج، كلّ مذهب لصالحه، وهو ما سنعرضه لاحقاً بصورة مقارنة، والرواية كالتالي:

١. أي قد لزمه المرض.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣٥٢-٣٥٣.

٧. عن يزيد بن عبد الملك، عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام» قال: (لما صعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى السماء صعد على سرير من ياقوته حمراء مكلّلة من زبرجدة خضراء، تحمله الملائكة.....) وبعد الدخول في تفاصيل عديدة قال: (ثم قال محمد «صلى الله عليه وآله»: فأين أبي إبراهيم؟ فقالوا له، هو مع أطفال شيعة عليّ، فدخل الجنة فإذا هو تحت الشجرة، لها ضروع كضروع البقر، فإذا انفلت الصّرع من فم الصبي قام إبراهيم فردّ عليه) يا سبحان الله.. أهكذا يكون حال خليل الرحمن، حاضناً للأطفال؟ أية استهانة هذه بهذا النبي العظيم! ثم هل هؤلاء الأطفال على قيد الحياة في الدنيا أم أموات في قبورهم؟ وإذا كانوا أحياء فكيف يكونون في السماء؟ وإذا كانوا أمواتاً فهل أرواحهم بحاجة إلى إرضاع؟ أم يريد مخترع الرواية أن يقول أنّ هؤلاء الرضع حالهم حال المقتولين في سبيل الله عند الله يُرَزَقُونَ؟ (قال: فسلم عليه وسأله عن عليّ، فقال: خلّفته في أمّتي، قال: نعم الخليفة خلفت، أما إنّ الله فرض على الملائكة طاعته، وهؤلاء أطفال شيعته سألت الله «عز وجل» أن يجعلني القائم عليهم ففعل، وإن الصبي ليجرع الجرعة فيجد طعم ثمار الجنة وأنهارها في تلك الجرعة)^(١).

وفي الرواية التالية تحريف للآيات الشريفة ولتاريخ الحدث، كلّ ذلك لتوظيف النص المحرّف في اتجاه معيّن أراداه الراوي:

٨. عن حبيب السجستاني قال: سألت أبا جعفر «عليه السلام» عن قوله «عز وجل»: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ﴾ فقال لي: يا حبيب، لا تقرأ هكذا، اقرأ: «ثم دنا فتداني فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الله إلى عبده -يعني رسول الله «صلى الله عليه وآله»- ما أوحى». يا حبيب، إنّ رسول الله

«صلى الله عليه وآله» لما فَتَحَ مَكَّةَ، أتعَبَ نفسه في عبادة الله «عز وجل» والشكر لِنِعْمِهِ في الطواف بالبيت، وكان علي «عليه السلام» معه، فلما غشيهم الليل انطلقا إلى الصفا والمروة يريدان السعي، قال: فلَمَّا هبطا مِنَ الصفا إلى المروة وصارا في الوادي دون العلم الذي رأيت، غشيهما من السماء نور، فأضاءت لهما جبال مكة، وخشعت أبصارهما، قال: ففزعا لذلك فزعا شديداً، قال: فمضى رسول الله «صلى الله عليه وآله» حتى ارتفع عن الوادي، وتبعه علي «عليه السلام». فرفع رسول الله «صلى الله عليه وآله» رأسه إلى السماء فإذا هو برَمَانتين على رأسه، قال: فتناولهما رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأوحى الله «عز وجل» إلى محمد: يا محمد، إِنَّهَا مِنْ قَطْفِ الْجَنَّةِ، فلا يأكل منها إلا أنت ووصيك علي بن أبي طالب، قال: فأكل رسول الله إحداهما، وأكل علي الأخرى، ثم أوحى الله «عز وجل» إلى محمد «صلى الله عليه وآله» ما أوحى. قال أبو جعفر «عليه السلام»: يا حبيب، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ﴾ يعني عندها وافي به جبرئيل حين صعد إلى السماء، قال: فلما انتهى إلى محل السدرة وقف جبرئيل دونها، وقال: يا محمد، إِنَّ هَذَا مَوْقِفِي الَّذِي وَضَعَنِي اللَّهُ «عز وجل» فيه، ولن أقدر على أن أتقدمه، ولكن امض أنت أمامك إلى السدرة، فوقف عندها، قال: فتقدم رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى السدرة، وتخلّف جبرئيل «عليه السلام». قال أبو جعفر «عليه السلام»: إِنَّمَا سُمِّيَتْ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ لِأَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ الْأَرْضِ تَصْعَدُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ الْحَفَظَةُ إِلَىٰ مَحَلِّ السَّدْرَةِ وَالْحَفَظَةُ الْكَرَامُ الْبَرَّةُ دُونَ السَّدْرَةِ، يَكْتَبُونَ مَا تَرَفَعُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فِي الْأَرْضِ، قال: فينتهون بها إلى محل السدرة^(١). قال: فنظر رسول الله فرأى أغصانها تحت العرش وحوله، قال:

١. وهذا تفسير آخر لمعنى المنتهى يختلف عما جاء في الرواية السابقة.

فتجلى لمحمد نور الجبار «عز وجل»، فلما غشي محمداً «صلى الله عليه وآله» التور شخص ببصره وارتعدت فرائضه، قال: فشدّ الله «عز وجل» لمحمد قلبه، وقوى له بصره، حتى رأى من آيات ربه ما رأى، وذلك قول الله «عز وجل»: ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ﴾. قال: يعني الموافاة، قال: فرأى محمد «صلى الله عليه وآله» ما رأى ببصره من آيات ربه الكبرى، يعني أكبر الآيات، قال أبو جعفر «عليه السلام»: وإن غلظ السدرة بمسيرة مائة عام من أيام الدنيا، وإن الورقة منها تُغطي أهل الدنيا، وإنّ لله «عز وجل» ملائكة وكَلَمَ بنبات الأرض من الشجر والنخل، فليس من شجرة ولا نخلة إلا ومعها من الله «عز وجل» ملك يحفظها وما كان فيها، ولولا أنّ معها من يمنعها، لأكلها السباع وهوام الأرض إذا كان فيها ثمرها، قال: وإنما نهى رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يضرب أحد من المسلمين خلاه^(١) تحت شجرة أو نخلة قد أثمرت، لمكان الملائكة الموكلين بها، قال: ولذلك يكون للشجر والنخل أنساً إذا كان فيه حملة، لأنّ الملائكة تحضره^(٢).

• البراق:

في الوقت الذي لم تذكر آية الإسراء، ولا سورة النجم - بحسب من يرى أنها تتحدث عن المعراج - عن وجود آية وسيلة نقلت النبي «صلى الله عليه وآله» خلال الرحلة إلى حيث ذهب، إلا أننا نجد روايات عن النبي وآخرين تحدّثت عن كائن أطلق عليه اسم «البراق»، اشتقاقاً من البرق لسرعته، أو لشدة صفائه وتلألؤه وبريقه، أو لكونه أبيض اللون كالبرق. ووُصف هذا الكائن في بعض هذه الروايات بأوصاف محدّدة.

١. أي يقضي حاجته بالتبول وشبهه.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣٦٤-٣٦٦.

ومع عدم اليقين بوجود هذا الكائن وأوصافه، انطلقت محيَّلة بعض الرواة بعيداً فتطوّرت الأوصاف مع «تطوُّر» الروايات حول المعراج.

واعتبر الشيخ آصف محسني في تعليقه على روايات البراق المجموعة في موسوعة «بحار الأنوار» بأنّ فيها ما يدلّ على أنّ البراق ليس بجيوان، بل هو مأكنة ومركبة فضائية معقّدة... وأنه يمكن أن يكون البراق جسماً لطيفاً، بل هو المتعيّن إذا قلنا بأنه «صلى الله عليه وآله» صعد بجسمه اللطيف أيضاً. وأضاف أنّ المستفاد من بعض الروايات غير المعتمدة أنّ له مراكب في هذا العروج، وهي البراق والبرقة والرّفرف^(١)، وفي بعض المراحل ذهب أو صعد بدفع النور (ثم زخني في النور زخاً)^(٢).

وفيما يلي نماذج من الروايات التي تحدّثت عن البراق في وصفه وأحواله:

١. في رواية الطبري عن صعصعة، والتي تحدّث فيها عن شقّ صدر النبي وغسله: (ثم أتيت بدابة أبيض يقال له البراق، فوق الحمار ودون البغل)^(٣) يقع خطؤه منتهى طرفه^(٤) أي يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره، والمقصود أنه سريع بعيد الخطوة.
٢. وفي رواية سابقة عن الحسن بن أبي الحسن عن النبي: (... له في فخذه جناحان يحفز بهما رجله^(٥) يضع يده في منتهى طرفه، فحملني عليه ثم خرج معي، لا يفوتني ولا أفوته)^(٦). أي انطلقا في سرعة واحدة.

١. مرّت معنا رواية بهذا المضمون حول الرفرف الأخضر الذي صعد عليه النبي.

٢. محسني: مشرعة بحار الأنوار، ج ١، ص ٣٤٦.

٣. أي أكبر من الحمار حجماً وارتفاعاً، وأقل من البغل حجماً وارتفاعاً.

٤. الطبري: جامع البيان، ج ١٧، ص ٣٤٧.

٥. أي يطعنهما بالجناحين تحفيزاً على الحركة.

٦. الطبري: جامع البيان، ج ١٧، ص ٣٢٨.

٣. عن عكرمة، عن ابن عباس عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (..... ووجهها كوجه الإنسان، وخدّها كخدّ الفرس، وعُرفها من لؤلؤ مسموط، وأذناها زبرجتان خضراوان، وعيناها مثل كوكب الزهرة، تتوقّدان مثل النجمين المضيئين، لها شعاع مثل شعاع الشمس، ينحدر من نحرها الجمال، مطوية الخلق، طويلة اليدين والرجلين، لها كنفس الآدميين، تسمع الكلام وتفهمه، وهي فوق الحمار ودون البغل)^(١).

٤. عن ابن عباس عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (... وهي دابة من دوابّ الجنة، وجهها مثل وجه آدمي، وحوافرها مثل حوافر الخيل، وذنبها مثل ذنب البقر، فوق الحمار، ودون البغل، سرجه من ياقوته حمراء، وركابه من درة بيضاء، مزومة بسبعين ألف زمام من ذهب، عليه جناحان مكلّان بالدّرّ والجوهر والياقوت والزبرجد، مكتوب بين عينيه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله)^(٢).

٥. ونقل الصالحى الشامى في ما استُخلص من صفات البراق في الروايات: (إنّه دون البغل وفوق الحمار، وجهه كوجه الإنسان، وجسده كجسد الفرس، وقوائمه كقوائم الثور، وذنبه كذنب الغزال. وقال غيره: جسده كجسد الإنسان، وذنبه كذنب البعير، وعُرفه كعُرف الفرس، وقوائمه كقوائم الإبل، وأظلافه كأظلاف البقر، وصدّره كأنه ياقوتة حمراء، وظهره كأنه درّة بيضاء، له جناحان في فخذه لثقل مؤخر الدابة... وفي بعض الآثار أنه ليس بذكر ولا أنثى)^(٣). [انظر اللوحات رقم ٤٦-٥١]

ولم يكتفِ الرّواة بذلك، بل زادوا من عندهم أنّ هذا البراق كان وسيلة نقل

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣١٩.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣١٦.

٣. الصالحى الشامى: سبل الهدى والرشاد، ج ٣، ص ١٠٢.



اللوحة رقم ٤٦ : تخيل هيئة البراق



اللوحة رقم ٤٧ : تخيل آخر هيئة البراق



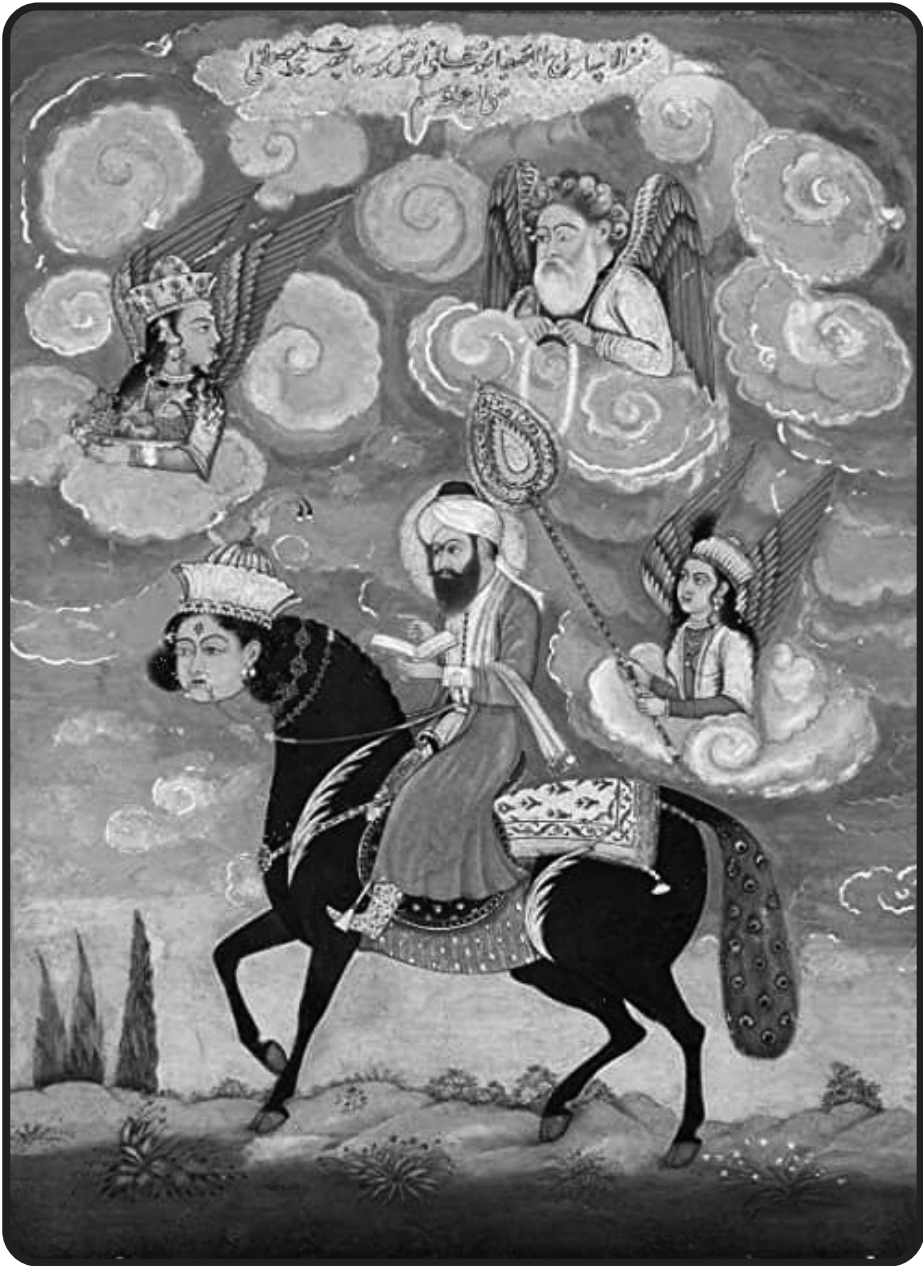
اللوحة رقم ٤٨ : النبي وجبريل والبراق والعذاب في جهنم



اللوحة رقم ٤٩ : الملائكة يعرضون على النبي العسل واللبن والخمر



اللوحه رقم ٥٠ : لوحه تعبّر عن إحدى مواقف المعراج في الروايات



اللوحة رقم ٥١ : لوحة تعبر عن النبي ممتطياً البراق وحوله جمع من الملائكة

الأنبياء «عليهم السلام» قبل النبي محمد «صلى الله عليه وآله»، وأنه كانت له تجارب معهم، وأن تجربته السلبية مع النبي في باديء الأمر - كما سيأتي - كانت انعكاساً للبُعد الزمني لتلك التجارب السابقة. ومن بين تلك الرويات:

(١) عن أبي جهم: (كان إبراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق، يغدو غدوة^(١) فيأتي مكة ثم يرجع فيقتيل^(٢) في منزله بالشام)^(٣).

(٢) عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (وكانت الأنبياء تركبها قبلي)^(٤).

(٣) ونقل الصالحي الشامي عن كتاب «المبتدأ» لابن إسحاق رواية وثيمة بن موسى في ذكر الإسراء: (فاستصعب البراق)^(٥) وكانت الأنبياء تركبها قبلي، وكانت بعيدة العهد بركوبهم فلم تكن رُكبت في الفترة)^(٦) ثم تحدّث المؤلف عن التفسيرات المختلفة لسبب الاستصعاب.

وفي المصادر الإمامية رواية تحدّثت عن جموح البراق، وكيف تعامل معها جبريل، مع تفاصيل أخرى جديدة، ومن بينها نفي ركوب أي نبي على ظهرها.

ففي تفسير القمي عن الصادق «عليه السلام» قال: (جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأخذ واحد باللجام، وواحد بالركاب،

١. أي يخرج صباحاً.

٢. أي يكون منتصف النهار.

٣. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج ٧، ص ٣٣٠.

٤. الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج ٣، ص ١٠٢.

٥. أي كان صعباً جموحاً.

٦. الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج ٣، ص ١٠٢.

وسوى الآخر عليه ثيابه، فتضعضعت البراق فلطمها جبرئيل، ثم قال لها: اسكني يا براق، فما ركبك نبي قبلك، ولا يركبك بعده مثله. قال: فَرَقْتُ به «صلى الله عليه وآله» ورفعته ارتفاعاً ليس بالكثير، ومعه جبرئيل يريه الآيات من السماء والأرض. قال: فبينما أنا في مسيري إذ نادى منادٍ عن يميني: يا محمد، فلم أجبه ولم ألتفت إليه، ثم نادى مناد عن يساري: يا محمد، فلم أجبه ولم ألتفت إليه، ثم استقبلتني امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كل زينة الدنيا فقالت: يا محمد، انظُرني^(١) حتى أكلّمك، فلم ألتفت إليها، ثم سِرْتُ فسمعت صوتاً أفزعني فجاوزت^(٢).

• أنهار متصلة من السماء إلى الأرض:

تحدثت بعض روايات المعراج عن اتصال نهريْن أو أربعة أنهار من الجنة، أو من سدرة المنتهى، أو من مكان ما في السماء، بالأنهار الجارية على الأرض، ومن بينها النيل والفرات. وحاول بعض المعاصرين توجيه ذلك بصورة غير مقبولة نهائياً، بادّعاء أننا لا نعرف من الغيب إلا القليل، وهي محاولة لا تُغني ولا تُسمن من جوع.

١. عن شريك بن أبي نمر - في رواية مرّت معنا سابقاً - عن أنس بن مالك قال: (... ثم ركب البراق، فسار حتى أتى به إلى بيت المقدس فصلّى فيه بالنبیین والمرسلين إماماً، ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناده أهل السماء: مَنْ هذا؟ قال: هذا جبرائيل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: أَوْ قد بُعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: فمرحباً به وأهلاً، فيستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله بأهل الأرض حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبرائيل: هذا أبوك، فسَلَّم

١. أي انتظرتني.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣١٦.

عليه، فرد عليه، فقال: مرحباً بك وأهلاً يا بني، فنعم الابن أنت، ثم مضى به إلى السماء الثانية، فاستفتح جبرائيل باباً من أبوابها، فقيل: مَنْ هذا؟ فقال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أَوَ قد أرسل إليه؟ قال: نعم قد أرسل إليه، فقيل: مرحباً به وأهلاً، ففتح لهما، فلما صعد فيها فإذا هو بنهرين يجريان، فقال: ما هذان النهران يا جبرائيل؟ قال: هذا النيل والفرات عنصرهما....) أي أصلهما.

وفي رواية أخرى ما لفظه بعد الحديث عن سدرة المنتهى: (وإذا أربعة أنهار في بدء الخلق فإذا في أصلها). قال ابن حجر معلقاً: (أي في أصل سدرة المنتهى أربعة أنهار، ولمسلم: «يخرج من أصلها». ووقع في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان»، فيحتمل أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في الجنة، والأنهار تخرج من تحتها، فيصح أنها من الجنة).

ثم قال: (وقع في رواية شريك.....) وهي الرواية التي نستعرضها (أنه رأى في السماء الدنيا نهرين يطردان، فقال له جبريل: «هما النيل والفرات عنصرهما». والجمع بينهما أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهري الجنة، ورآهما في السماء الدنيا دون نهري الجنة).

ثم نقل ابن حجر كلاماً للنووي شارح صحيح مسلم، قال: (قال النووي: في هذا الحديث أنَّ أصل النيل والفرات من الجنة، وأنهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى، ثم يسيران حيث شاء الله، ثم ينزلان إلى الأرض، ثم يسيران فيها ثم يخرجان منها، وهذا لا يمنعه العقل، وقد شهد به ظاهر الخبر، فليُعمد^(١)).

وإذا أخذ العلماء في الماضي بظاهر المعنى، ولم يروا في ذلك بأساً نتيجة عدم

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص ٢١٣-٢١٤.

امتلاكهم لصورة جغرافية وكونية واضحة كما هو الحال اليوم، إلا أنه لا يمكن لمن يملك أدنى معرفة بالكرة الأرضية وجغرافيتها وعلاقتها بالأجرام السماوية أن يوافق على هذا التصوّر المقدم في الرواية. وقد حاول بعض المعاصرين توجيه ذلك بطريقة غريبة، وما ذاك إلا بسبب شدة التمسك بالروايات وتصحيحها بأي ثمن، وإن كانت على خلاف المنطق والمعطيات العلمية الأكيدة.

قال د. راغب السرجاني: (يمكن أن نطلع على تصوّر كامل لنهري النيل والفرات بناءً على ما رأيناه في رحلة المعراج. يتفجّر النهران من الجنة، وهذا يكون تحديداً من الفردوس؛ لقوله «صلى الله عليه وسلم»: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». وللنهرين في الجنة مسار معروف، ثم يخرجان منها إلى السماء السابعة، فيجريان فيها كذلك، ثم يخترقان السموات كلها بصورة لا يعلمها إلا الله «تعالى» فيصلان إلى السماء الدنيا، فيجريان فيها كما جريا في السماء السابعة، ويؤكد على وجودهما بشكل حقيقي في السماء الدنيا ما قاله رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حين ذكر قول جبريل «عليه السلام» وهو يصف النهرين؛ حيث قال: «هَذَا النَّيْلُ وَالْفُرَاتُ عُنْصُرُهُمَا». فالنهران ليسا صورة تخيلية إنما حقيقة واقعية أصلية، ثم بعد ذلك يرسل الله «عز وجل» ماءهما إلى جبال أثيوبيا ووسط إفريقيا «في حالة النيل»، وإلى جبال تركيا «في حالة الفرات»، فتنزل مطراً هناك؛ فيتكون النهران، ويأخذان مسارهما المعروف في الأرض).

ثم بين رفضه لتأويل ما سبق وإن كنا نرى بأعيننا ما يخالف ذلك، قال: (وما قلناه هنا مدعوم بالأحاديث التي ذكرناها، وليس هناك حاجة للتأويل بحجة أننا لا نرى ذلك؛ فالواقع أننا لا نرى شيئاً يُذكر من إدارة الكون، فلا نحن نرى ملائكة الرياح

أو الجبال أو الأرحام أو الحفظة أو غير ذلك، مع يقيننا أنها تنزل إلى الدنيا بأمر الله، ولها أعمال محسوسة ملموسة واقعية، ونحن لا نعرف السُّحب التي تأتي تحديداً إلى هضبة كذا أو كذا، إنما يستوي عندنا السحاب النازل على مكان ما مع غيره، ونحن لا نرى الأعمدة التي تُمسك السموات؛ وقد قال الله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾^(١)، ولا يُستبعد أن يُنزل الله ماءً مُعَيَّناً من السماء؛ وقد قال الله «تعالى»: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾^(٢)، ولا أحب تأويل السماء هنا بالسحاب؛ لأنه قال: أبواب السماء. ولم يقل: السماء، فدلَّ ذلك على نزول هذا الماء تحديداً من أبواب السماء. وعلى التأويلات السابقة فإني أرى أن أحد أهداف رحلة الإسراء والمعراج هو كشف بعض أسرار الكون - بشقيه المنظور والغيبي - للمؤمنين، وهذا من شأنه أن يفتح مجالات كبيرة وكثيرة للدراسة والتدبر^(٣).

ولا أعتقد أنَّ الكلام السابق بحاجة إلى ردِّ علمي بقدر حاجته إلى ردِّ حول منهج التعامل مع النصوص، وهو ما أشرنا إليه مراتٍ عدَّة وفي أكثر من كتاب صدر لي سابقاً حول مرجعية القرآن من جهة، وأتَّه المصدر الوحيد الذي يمكن الوثوق به، وأنَّ سائر النصوص الدينية تحتاج إلى تدقيق وعرض على القرآن والعقل والعلم، مع تقديم المعطى العلمي اليقيني على الرواية الظنية.

ولا أستبعد أن يكون مصدر هذا التصوير لشجرة المنتهى والأنهار الأربعة هو ما جاء في التوراة حيث يقول النص حول خلق العالم: (وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الحَيَاةِ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ

١. سورة الرعد: ٢.

٢. سورة القمر: ١١.

الْخَيْرِ وَالشَّرِّ) ولعلها تقابل شجرة المنتهى في روايات المعراج (وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لَيْسَ قِي الْجَنَّةِ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ: اسْمُ الْوَاحِدِ فَيْشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الدَّهَبُ. وَذَهَبُ تِلْكَ الْأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزَعِ. وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّالِثِ حَدَاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ الْفُرَاتُ^(١) وكما عهدنا مسلمة اليهود، فإنهم لا يهدأ لهم بال حين يُلقون ببعض ما في كتبهم إلى المسلمين أن يتلاعبوا بالنصوص ويغيروا فيها.

وجاء رواية شريك عن أنس: (ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبرائيل باباً من أبوابها، فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم، قد بعث إليه، قيل: مرحباً به وأهلاً، ففتح له فإذا هو بنهر عليه قباب وقصور من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، وغير ذلك ما لا يعلمه إلا الله، فذهب يشم ترابه، فإذا هو مسك أذفر، فقال: يا جبرائيل، ما هذا النهر؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك في الآخرة. ثم عرج به إلى الرابعة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى الخامسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السادسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السابعة، فقالوا له مثل ذلك، وكل سماء فيها أنبياء قد سمّاهم أنس، فوعيت منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلامه الله، فقال موسى: رب لم أظن أن يرفع عليّ أحد! ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا باب الجبار رب العزة، فتدلى فكان قاب قوسين أو ذنى، فأوحى إلى عبده ما شاء^(٢)).

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢، ٩-١٤.

٢. الطبري: جامع البيان، ج ٨، ص ٥-٦.

• تقرير مصير الأمة:

الرواية التالية مروية في مصادر السنة والشيعية، وهي تتحدث عن تقرير مصير أمة الإسلام من خلال تصرف واحد للنبي، ومن حيث لا يدري، وكأنّ مقادير الله تسير بهذه الطريقة التي لا تخلو من تسفيه للعقول.

(١) عن أنس بن مالك قال: (لما جاء جبرائيل «عليه السلام» بالبراق إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فكأنها ضربت بذنبها، فقال لها جبرائيل: مه يا براق، فوالله إن ركبك مثله^(١) فسار رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فإذا هو بعجوز ناء عن الطريق: أي على جنب الطريق. قال أو جعفر: ينبغي أن يقال: نائية، ولكن أسقط منها التأنيث. فقال: ما هذه يا جبرائيل؟ قال: سري يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعو متنجياً عن الطريق يقول: هلم يا محمد، قال جبرائيل: سري يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، قال: ثم لقيه خلق من الخلائق فقال أحدهم: السلام عليك يا أول، والسلام عليك يا آخر، والسلام عليك يا حشر، فقال له جبرائيل: اردد السلام يا محمد، قال: فرد السلام. ثم لقيه الثاني، فقال له مثل مقالة الأولين حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الماء واللبن والخمر، فتناول رسول الله «صلى الله عليه وسلم» اللبن، فقال له جبرائيل: أصبت يا محمد الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت وغوت أمتك! ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء، فأَمَّهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» تلك الليلة، ثم قال له جبرائيل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا بقدر ما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدو الله إبليس أراد

١. أي ما ركبك مثله من قبل.

أن تميل إليه، وأما الذين سلّموا عليك، فذاك إبراهيم وموسى وعيسى^(١).

(٢) عن عبدالرحمان بن غنم قال: (..... فجاء رسول الله «صلى الله عليه وآله» فدخل بيت المقدس فجاء جبرئيل «عليه السلام» إلى الصخرة فرفعها فأخرج من تحتها ثلاثة أقداح: قدحاً من لبن، وقدحاً من عسل، وقدحاً من خمر، فناوله قدح اللبن فشرب، ثم ناوله قدح العسل فشرب، ثم ناوله قدح الخمر فقال: قد رويت يا جبرئيل، قال: أما إنك لو شربته ضلّت أمتك وتفرّقت عنك^(٢)).

فهل يمكن قبول هذا المضمون بحيث لا يتعارض مع صفات الله من الحكمة والعدل والعلم وغير ذلك؟ وهل يقرّر الله مصير الأمم بهذه الطريقة الغريبة؟ ومن خلال تصرف واحد؟

نعم، في منطق واضعي هذه الروايات الأمر مقبول، وهي ليست ببعيدة -للمطلع على عقائد الملل القديمة وأساطيرها- عن معتقدات أديان وضعية أو محرّفة دانت بها بعض الشعوب التي دخلت في الإسلام، فنقلتها عن عمد أو جهل في ضمن التراث الحديثي الإسلامي، عند السنة والشيعة، لتتحوّل بعد ذلك إلى رقم إضافي إلى كَمّ الروايات حول المعراج، ليستنتج من خلال ذلك البعض أنها تبلغ حدّ التواتر، ويعلم الإنسان من خلالها وقوع المعراج فعلاً

فهل يمكن لمثل هذه الرواية وسابقتها مما استعرضناها ضمن هذا البحث أن تكون إضافة حقيقية يتحقّق من خلالها التواتر المدّعى، ولو بالمعنى؟

لا أقول أنّ وجود مثل هذه الإضافات والروايات الموضوعة دليل على حتمية القول

١. الطبري: جامع البيان، ج ٨، ص ٧.

٢. الصدوق: الأُمالي، ص ٢٦٩.

بأسطورية المعراج، فكم من أحداث واقعية وقع عليها التحريف والتلاعب، ولكن أقول أنّ خصوص التواتر لا يتحقّق بمثل هذه الروايات، وهي ليست قليلة بتاتاً.

• التوظيف المذهبي:

استغلّ بعض الرواة قضية المعراج لتوظيفها مذهبياً، وذلك في أجواء النزاع حول مسألة الإمامة والخلافة، ففي حين نجد من الرواة من يؤكّد على مقام أبي بكر من خلال رحلة المعراج كوسيلة لإثبات أفضليته للخلافة، وبطريقة فيها ما فيها من مغالاة، فإنّ البعض الآخر منهم قام بتجيير القصة لإثبات إمامة علي، وذلك -أحياناً- ضمن تفاصيل لا يمكن قبولها بأي حال، وبنفس الطريقة من المغالاة في أبي بكر. ومن نماذج هذه المرويات:

قال القسطلاني: (وذكر أبو الحسن بن غالب، فيما تكلم فيه على أحاديث الحُجُب السبعين والسبعمئة والسبعين ألف حجاب، وعزاها لأبي الربيع بن سبيع في شفاء الصدور من حديث ابن عباس: أنّ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال بعد أن ذكر مبدأ حديث الإسراء، كما ورد في الأمّهات: أتاني جبريل وكان السفير بي إلى ربّي، إلى أن انتهى إلى مقام ثمّ وقف عند ذلك، فقلت: يا جبريل، في مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور، فقال النبيّ «صلى الله عليه وسلم»: يا جبريل، هل لك من حاجة؟ قال: يا محمّد، سل الله أن أبسط جناحي على الصراط لأمتك حتّى يجوزوا عليه، قال النبيّ «صلى الله عليه وسلم»: ثمّ زجّ بي في النور زجّاً، فخرق بي إلى السبعين ألف حجاب، ليس فيها حجاب يشبه حجاباً، وانقطع عنيّ حسّ كلّ إنسي ومملك، فلحقني عند ذلك استيحاش، فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر^(١): قِفْ،

١. أي بصوته وطريقة نطقه.

إِنَّ رَبَّكَ يَصَلِّي، فبينما أنا أتفكّر في ذلك فأقول: هل سبقني أبو بكر؟ فإذا النداء من العلي الأعلى^(١) ادْنُ يا خير البرية، ادْنُ يا محمّد، ادْنُ يا محمّد، ليدن الحبيب، فأدنانني ربّي حتّى كنت كما قال «تعالى»: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾﴾. قال: وسألني ربّي؟ فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفي - بلا تكيف ولا تحديد - فوجدت برّدها بين ثديي، فأورثني علم الأوّلين والآخرين، وعلمني علوماً شتّى، فعلم أخذ عليّ كتمانها إذ علم أنّه لا يقدر على حمله أحد غيري، وعلم خيرني فيه، وعلمني القرآن فكان جبريل «عليه السّلام» يذكرني به، وعلم أمرني بتبليغه إلى العامّ والخاصّ من أمّتي. ولقد عاجلت جبريل «عليه السّلام» في آية نزل بها عليّ، فعاتبني ربّي، وأنزل عليّ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٤﴾﴾^(٢). ثمّ قلت: اللهمّ، إنّهُ لَمّا لحقني استيحاش قبل قدومي عليك سمعت منادياً ينادي بلغة تشبه لغة أبي بكر، فقال لي: قف إنّ ربّك يصلّي، فعجبت من هاتين، هل سبقني أبو بكر إلى المقام؟ وإنّ ربّي لغنيّ عن أن يصلّي، فقال «تعالى»: أنا الغنيّ عن أن أصليّ لأحد، وإنّما أقول: سبحاني سبحاني، سبقت رحمتي غضبي، اقرأ يا محمّد: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿١٥﴾﴾^(٣)، فصلاّتي رحمة لك ولأمّتك، وأمّا أمر صاحبك يا محمّد، فإنّ أخاك موسى كان أنسه بالعصا، فلمّا أردنا كلامه قلنا: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ ...﴾^(٤)، وشغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة. وكذلك أنت يا محمّد، لمّا كان أنسك بصاحبك أبي بكر،

١. أي أن الصوت الصادر عن الله كان كصوت أبي بكر.

٢. سورة طه: ١١٤.

٣. سورة الأحزاب: ٤٣.

٤. سورة طه: ١٧-١٨.

وأنتَ خلقت أنتَ وهو من طينة واحدة، وهو أنيسك في الدنيا والآخرة، خلقنا ملكاً على صورته، يناديك بلغته ليزول عنك الاستيحاش، فلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك...^(١).

وفي المقابل هناك العديد من الروايات الموضوعة التي حاول أصحابها توظيفها في الاتجاه الآخر الموالي لمدرسة أهل البيت «عليهم السلام»، ومن نماذج ذلك:

قال المجلسي: (ووجدت في كتاب كنز الفوائد تأليف الشيخ الجليل أبي الفتح الكراجكي عند ذكر المعمرين: أخبرنا القاضي أبو الحسن علي بن محمد البغدادي.... عن تميم بن وهلة المري، قال: حدثني الجارود بن المنذر العبدي، وكان نصرانياً فأسلم عام الحديبية وحسن إسلامه، وكان قارئاً للكتب، عالماً بتأويلها على وجه الدهر وسالف العصر، بصيراً بالفلسفة والطب، ذا رأي أصيل، ووجه جميل، أنشأ يحدثنا في أيام إمارة عمر بن الخطاب قال: وفدتُ على رسول الله «صلى الله عليه وآله» في رجال من عبد القيس^(٢)..... فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا جارود، ليلة أسري بي إلى السماء، أوحى الله «عز وجل» إليّ أن سل من أرسلنا من قبلك من رسلنا على ما بعثوا؟ فقلت: على ما بُعثتم؟ فقالوا: على نبوتك، وولاية علي بن أبي طالب، والائمة منكم، ثم أوحى إليّ أن التفت عن يمين العرش، فالتفت فإذا علي، والحسن والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد ابن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، والمهدي في ضحضاح من نور يصلّون، فقال لي الرب «تعالى»: هؤلاء الحجب أوليائي، وهذا المنتقم من أعدائي. قال الجارود: فقال لي

١. القسطلاني: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ج ٢، ص ٣٨١-٣٨٢.

٢. من القبائل العربية التي كانت تستوطن جنوب العراق وبعضاً من الساحل الغربي للخليج العربي، بما في ذلك البحرين في حدودها القديمة التي تصل إلى الإحساء.

سلمان: يا جارود، هؤلاء المذكورون في التوراة والانجيل والزبور كذلك^(١).

ثم نقل المجلسي إشكالاً افترضه الكراجكي، والردّ الذي جاء به، ومفاده: كيف يصح أن يكون الأئمة الإثنا عشر «عليهم السلام» في تلك الحال في السماء ونحن نعلم ضرورة خلاف هذا؟ لأنّ أمير المؤمنين «عليه السلام» كان في ذلك الوقت بمكة في الأرض، ولم يدّع قط ولا ادّعى له أحد أنه صعد إلى السماء، فأما الأئمة من ولده، فلم يكن وُجد أحد منهم بعد ولا وُلد، فما معنى ذلك إن كان الخبر حقاً؟

وأجاب قائلًا: يجوز أن يكون الله «تعالى» أحدث لرسوله «صلى الله عليه وآله» في الحال صوراً كصور الأئمة «عليهم السلام» ليراهم أجمعين على كمالهم، كمن شاهد أشخاصهم برؤيته مثالهم، ويشكر الله «تعالى» على مامنحه من تفضيلهم وإجلالهم، وهذا في العقول من الممكن المقدور، ويجوز أيضاً أن يكون الله «تعالى» خلق على صورهم ملائكة في سمائه يسبّحونه ويقدسونه لتراهم ملائكته الذين قد أعلمهم بأنهم سيكونون في أرضه حجباً له على خلقه، فيتأكّد عندهم منازلهم، وتكون رؤيتهم تذكّراً لهم بهم، وبما سيكون من أمرهم، وقد جاء في الحديث أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» رأى في السماء لما عُرج به ملكاً على صورة أمير المؤمنين، وهذا حديث قد اتفق أصحاب الحديث على نقله، حدّثني به من طريق العامة الشيخ محمد ابن أحمد بن شاذان القمي، ونقلته من كتابه المعروف بـ «إيضاح دقائق النواصب» وقرأته عليه بمكة في المسجد الحرام سنة اثنتي عشرة وأربعمئة عن جعفر بن محمد ابن مسرور، عن الحسين بن محمد، عن أحمد بن علويه المعروف بابن الأسود الأصبهاني عن إبراهيم بن محمد، عن عبدالله بن صالح، عن جدير بن عبد الحميد، عن مجاهد،

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٩٣-٢٩٩.

عن ابن عباس قال: (سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: لَمَّا أُسْري بي إلى السماء، ما مررت بملاً من الملائكة إلا سأَلوني عن علي بن أبي طالب، حتى ظننت أن اسم علي في السماء أشهر من اسمي! فلما بلغت السماء الرابعة نظرت إلى ملك الموت فقال لي: يا محمد، ما خلق الله خلقاً إلا أقبض روحه بيدي، ما خلا أنت وعلي، فإن الله «جل جلاله» يقبض أرواحكم بقدرته، فلما صرت تحت العرش نظرت فإذا أنا بعلي بن أبي طالب واقفاً تحت عرش ربي فقلت: يا علي سبقتني؟ فقال لي جبرئيل «عليه السلام»: يا محمد، مَنْ هذا الذي يكلمك؟^(١) قلت: هذا أخي علي ابن أبي طالب، قال لي: يا محمد، ليس هذا علياً، ولكنّه ملك من ملائكة الرحمان، خلقه الله على صورة علي بن أبي طالب «عليه السلام» فنحن الملائكة المقربون كلما اشتقنا إلى وجه علي بن أبي طالب زرنا هذا الملك لكرامة علي بن أبي طالب على الله «سبحانه».

ثم أضاف الكراجكي: فيصح على هذا الوجه أن يكون الذين رأهم رسول الله ملائكة على صورة الأئمة «عليهم السلام»، وجميع ذلك داخل في باب التجويز والإمكان والحمد لله^(٢).

والكراجكي يحاول بطريقته أن يُثبت صحة الرواية لكونها مأخوذة عن بعض مصادر أهل السنة، والحال أنّ الإمام علي بن موسى الرضا «عليه السلام» دعا للتثبت في مثل هذه الحالة، فعن إبراهيم بن أبي محمود: (قلت للرضا «عليه السلام»: يا بن رسول الله، إنّ عندنا أخباراً في فضائل أمير المؤمنين «عليه السلام» وفضلكم أهل البيت، وهي من رواية مخالفكم، ولا نعرف مثلها عندكم، أفنديين بها؟ فقال: يا بن أبي محمود،

١. ولعل الصحيح: مَنْ هذا الذي تكلمه؟

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٩٩-٣٠٠.

لقد أخبرني أبي عن أبيه عن جده «عليهم السلام» أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عْبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنْ اللَّهِ «عز وجل» فَقَدْ عْبَدَ اللَّهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ عَنْ إِبْلِيسَ فَقَدْ عْبَدَ إِبْلِيسَ. ثم قال الرضا «عليه السلام»: يَا بَنَ أَبِي مُحَمَّدٍ، إِنَّ مَخَالِفِينَا وَضَعُوا أَخْبَاراً فِي فُضَائِلِنَا وَجَعَلُوهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: أَحَدُهَا الْغُلُو، وَثَانِيهَا التَّقْصِيرُ فِي أَمْرِنَا، وَثَالِثُهَا التَّصْرِيحُ بِمِثَالِبِ أَعْدَائِنَا، فَإِذَا سَمِعَ النَّاسُ الْغُلُو فِينَا كَفَرُوا شَيْعَتَنَا وَنَسَبُوهُمْ إِلَى الْقَوْلِ بِرَبُوبِيَّتِنَا، وَإِذَا سَمِعُوا التَّقْصِيرَ اعْتَقَدُوهُ فِينَا، وَإِذَا سَمِعُوا مِثَالِبَ أَعْدَائِنَا بِأَسْمَائِهِمْ ثَلَبُونَا بِأَسْمَائِنَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ «عز وجل»: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (١).

ثم لو كانت أسماء الأئمة معروفة ومتداولة بهذه الصورة لما انقسم الشيعة مختلفين في مَنْ هُوَ الْإِمَامُ بَعْدَ وَفَاةٍ مِنْ سَبْقِهِ، وَلَمَّا صَارَ النَّاسُ فِي فِتْنَةٍ مِنْ حِينٍ إِلَى آخَرٍ، كَمَا جَرَى بَعْدَ اسْتِشْهَادِ الصَّادِقِ «عليه السلام»، حَيْثُ اعْتَقَدَ النَّاسُ بِإِمَامَةِ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَفْطَحِ، فَظَهَرَتِ الْفُطْحِيَّةُ، وَمَنْ قَالَ الْبَعْضُ بِإِمَامَةِ إِسْمَاعِيلَ ابْنِ الصَّادِقِ وَظَهَرَتِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ، ثُمَّ الَّذِينَ وَقَفُوا عَلَى الْكَاضِمِ «عليه السلام»، فَظَهَرَتِ الْوَاقِفَةُ، وَهَكَذَا غَيْرُهُمْ كَثِيرٌ، إِلَى اسْتِشْهَادِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ «عليه السلام».

والرواية التالية جاءت في نفس هذا الإطار، وفيها إضافة على تصوير الملك على هيئة أمير المؤمنين، فعن الإمام الحسين «عليه السلام» أنه قال: (سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» يَقُولُ: لَيْلَةُ أُسْرِي بِي رَبِّي «عز وجل» رَأَيْتُ فِي بَطْنَانِ الْعَرْشِ (٢) مَلَكًا بِيَدِهِ سَيْفٌ مِنْ نُورٍ يَلْعَبُ بِهِ كَمَا يَلْعَبُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ «عليه السلام» بِذِي

١. سورة الأنعام: ١٠٨. والرواية وردت في عيون أخبار الرضا للصدوق، ج ١، ص ٣٠٤.

٢. أي وسطه.

الفقار، وإن الملائكة إذا اشتاقوا إلى علي بن أبي طالب نظروا إلى وجه ذلك الملك. فقلت: يا رب، هذا أخي علي بن أبي طالب وابن عمي؟ فقال: يا محمد، هذا ملك خلقتَه على صورة علي، يعبدني في بطنان عرشي، تُكتب حسناته وتسبيحه وتقديسه لعلي بن أبي طالب إلى يوم القيامة^(١).

وجاء راوٍ آخر وأضاف عنصراً آخر في الرواية، فعن الأعمش عن جعفر بن محمد، عن أبيه «عليهما السلام»، قال: (فلما ضربه اللعين ابن ملجم على رأسه، صارت تلك الضربة في صورته التي في السماء، فالملائكة ينظرون إليه غدوة وعشية، ويلعنون قاتله ابن ملجم، فلما قُتل الحسين ابن علي «عليه السلام» هبطت الملائكة وحملته حتى أوقفته مع صورة علي في السماء الخامسة، فكلما هبطت الملائكة من السماوات من علًا، وصعدت ملائكة السماء الدنيا فمن فوقها إلى السماء الخامسة لزيارة صورة علي والنظر إليه وإلى الحسين بن علي مشحطاً بدمه، لعنوا يزيد وابن زياد ومن قاتلوا الحسين بن علي «عليه السلام» إلى يوم القيامة. قال الأعمش: قال لي جعفر بن محمد الصادق «عليه السلام»: هذا من مكنون العلم ومخزونه لا تُخرجه إلا إلى أهله^(٢)).

ويتجاوز الراوي في الخبر التالي كل ما سبق، ليقدم معلومات جديدة تتحدث عما يشبه المركبة الفضائية بدلاً عن البراق، وعن حضور الإمام علي في المسجد الأقصى في الإسراء لا المعراج، وعن خروج الأنبياء من قبورهم في بيت المقدس، وهم بالآلاف، وصلاتهم خلف النبي، وهو ما أثار تساؤلات وشكوك عند السيد ابن طائوس، دفعته إلى احتمال كون هذا الإسراء مختلفاً عن الإسراء الذي تحدّث عنه القرآن الكريم!

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣٥٣-٣٥٤.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣١٦.

وسنذكر تعليق ابن طاوس بعد الانتهاء من عرض الخبر.

قال السيد ابن طاوس في كتابه «سعد السعد»: (رأيت في تفسير ما نزل من القرآن في النبي وأهل بيته «صلوات الله عليهم» تأليف محمد بن العباس بن علي بن مروان: حدثنا الحسين بن محمد بن سعيد، عن محمد بن البيض بن الفياض، عن إبراهيم بن عبدالله بن همام، عن عبدالرزاق، عن معمر، عن ابن حماد، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: بينما أنا في الحجر إذ أتاني جبرئيل فهمزني برجلي فاستيقظت، فلم أر شيئاً، ثم أتاني الثانية فهمزني برجلي فاستيقظت، فأخذ بضبعي فوضعني في شيء كوكُر الطير^(١) فلما طرقت ببصري طرفه، فرجعت إلي وأنا في مكان ! فقال: أتدري أين أنت؟ فقلت: لا يا جبرئيل، فقال: هذا بيت المقدس، بيت الله الأقصى، فيه المحشر والمنشر^(٢) ثم قام جبرئيل فوضع سبابته اليمنى في أذنه اليمنى فأذن مثنى مثنى يقول في آخرها: حي على خير العمل مثنى مثنى، حتى إذا قضى أذانه أقام الصلاة مثنى مثنى، وقال في آخرها: قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة فبرق نور من السماء ففتحت به قبور الأنبياء، فأقبلوا من كل أوب^(٣) يلبون دعوة جبرئيل، فوافى أربعة آلاف وأربعمائة نبي، وأربعة عشر نبياً، فأخذوا مصافهم ولا أشك أن جبرئيل سيتقدمنا، فلما استووا على مصافهم أخذ جبرئيل بضبعي، ثم قال لي: يا محمد، تقدّم فصلّاً بإخوانك، فالخاتم أولى من المختوم، فالتفت عن يميني وإذا أنا

١. وهنا تختلف هذه الرواية مع كل الروايات السابقة التي تتحدث عن البراق كوسيلة للنقل، فهذه الرواية تتحدث عن شيء شبيه بالمركة الدائرية المفرغة.

٢. قد يقال أن لهذا التبجيل ببيت المقدس بما يتجاوز مرتبة الكعبة المشرفة دلالة على أنها من الإسرائيليات.

٣. أي جهة وناحية.

بأبي إبراهيم «عليه السلام» عليه حلتان خضراوان، وعن يمينه ملكان، وعن يساره ملكان، ثم التفت عن يساري وإذا أنا بأخي ووصي علي بن أبي طالب، عليه حلتان بيضاوان، عن يمينه ملكان، وعن يساره ملكان، فاهتزت سروراً، فغمزي جبرئيل «عليه السلام» بيده، فلما انقضت الصلاة قمت إلى إبراهيم «عليه السلام» فقام إليّ فصافحني، وأخذ يميني بكتفاي يديه، وقال: مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح، والمبعوث الصالح في الزمان الصالح، وقام إلى علي بن أبي طالب فصافحه وأخذ يمينه بكتفاي يديه، وقال: مرحباً بالابن الصالح، ووصي النبي الصالح يا أبا الحسن، فقلت له: يا أبت، كنيته بأبي الحسن ولا ولد له؟ فقال: كذلك وجدته في صحفي، وعلم غيب ربي باسمه علي، وكنيته بأبي الحسن والحسين، ووصي خاتم أنبياء ربي. ثم قال في بعض تمام الحديث ما هذا لفظه: ثم أصبحنا بالأبطح نشطين، لم يباشرنا عناء وإني محدثكم بهذا الحديث، وسيكذب قوم، وهو الحق فلا تمترون^(١).

وقد احتمل السيد ابن طاووس -في تعليق له بعد أن نقل الخبر- أنّ هذا الإسراء كان دفعة أخرى غير ما هو مشهور، فإنّ الأخبار وردت مختلفة في صفات الإسراء، ولعلّ الحاضرين من الأنبياء كانوا في هذه الحال دون الأنبياء الذين حضروا في الإسراء الآخر، لأنّ عدد الأنبياء الأخيار مائة ألف نبي وأربعة وعشرون نبياً، ولعلّ الحاضرين من الأنبياء كانوا في هذه هم المرسلون، أو من له خاصية وسرّ مصون).

ثم دفع السيد ابن طاووس استبعاد الخبر لغرابته وتفردّه بقوله: (وليس كل ما جرى من خصائص النبي وعلي «صلوات الله عليهما» عرفناه. وكلما يحتمله العقل وذكره الله «جل جلاله» لا يجوز التكذيب في معناه، وقد ذكرت في عدة مجلدات ومصنفات أنه

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣١٧-٣١٨.

حيث ارتضى الله «جل جلاله» عبده لمعرفة وشرفه لخدمته، فكلمنا يكون بعد ذلك من الإنعام والإكرام فهو دون هذا المقام، ولا سيما أنه برواية الرجال الذين لا يُتَّهَمون في نقل فضل مولانا علي بن أبي طالب «عليه أفضل الصلاة والسلام»^(١).

والرواية ليست تامة السند كما يُفهم من كلام السيد ابن طاوس كي يقول: (ولا سيما أنه برواية الرجال الذين لا يُتَّهَمون في نقل فضل مولانا علي بن أبي طالب)، ولم يوضح كيف وصل الإمام علي «عليه السلام» إلى بيت المقدس، ومن أين جاء بالحلتين البيضاءوين، ولماذا لا نجد ذكراً للإسراء بعليّ إلى المسجد الأقصى، ولماذا لم يتحدث هو -ولو بعد وفاة النبي- عن هذه الحادثة، في الوقت الذي نجده يتحدث عن وجوده بجانب النبي حين نزل عليه الوحي كما جاء في الخطبة القاصعة المروية في نهج البلاغة.

وإذا كانت الروايات التي سبقتها قد اعتبرت أنّ الله مثل ملكاً أو جعل صورة تُشبهه علياً، فإنّ هذا الاحتمال منتفٍ في هذه الرواية بلحاظ الحوار الذي دار بينه وبين رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ومع النبي إبراهيم «عليه السلام»، بما يدلّ على أن علياً بنفسه كان حاضراً بتلك الصورة.

• معراج النبي موسى:

وقبل أن نُنتهي هذا البحث، لابدّ من الإشارة إلى أنّ في التراث اليهودي ما يُشبه روايات المعراج المنسوب لنبيّنا «صلى الله عليه وآله» وتفاصيل الأحداث الواردة فيه، ولكنّها تخصّ النبي موسى «عليه السلام».

ومن المصادر التي قدّمت هذه الرواية اليهودية كتاب «أساطير اليهود» لأستاذ

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٣١٨.

مادة التلمود في في المدرسة اللاهوتية اليهودية الأمريكية، لويس كينسبرغ Louis Ginzberg^(١) وذلك ضمن وصف أحداث مبعث النبي موسى عند جبل حوريب في طريق عودته إلى مصر من مدين، حيث كلمه الله من الشجرة.

يقول الكاتب ما ترجمته أنّ الله كافأ موسى لتواضعه ودماثة خُلُقِه أن جعله يعرج إلى السماء....

وحينها قال الله: «يا موسى، إنك دَمِثَّ متواضع، وسأجزيك على تواضعك؛ سأسلم أرض مصر بأكملها إلى يدك، وعلاوة على ذلك، سأدعك تعرج إلى عرش جلاي، وتنظر إلى جميع ملائكة السماوات». وهنا، أمر الله «ميتاترون»، ملاك الوجه، أن يقود موسى إلى الملكوت السماوي وسط أنغام الموسيقى والتراتيم، وأمره كذلك أن يستدعي ثلاثين ألف ملاك ليكونوا حرساً شخصياً له، خمسة عشر ألفاً عن يمينه وخمسة عشر ألفاً عن شماله.

وفي رعبٍ شديد، سأل موسى ميتاترون: «مَنْ أنت؟». فأجابه الملاك: «أنا أخنوخ بن يارد، جدّك الأكبر، وقد كفّني الله بمرافقتك إلى عرشه». لكن موسى اعترض قائلاً: «ما أنا إلا لحمٌ ودم، ولا أقوى على النظر إلى سحنة ملاك». وحينها، حوّل ميتاترون لحم موسى إلى مشاعل نار، وعينيه إلى عجلات مركبة العرش الإلهي، وقوته إلى قوة ملاك، ولسانه إلى لهيب، واقتاده إلى السماء برفقة حاشية من ثلاثين ألف ملاك،

١. أمريكي ليتواني الأصل، درس التلمود في عدة مدارس حاخامية، كما درس الفلسفة والتاريخ واللغات الشرقية في ثلاث جامعات، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة هايدلبرغ عام ١٨٩٨، وانتقل إلى الولايات المتحدة عام ١٨٩٩. ومن عام ١٩٠٢ حتى وفاته سنة ١٩٥٣. من أشهر أعماله تعليقه على التلمود الفلسطيني في ٣ مجلدات، وموسوعته (أساطير اليهود) Legends of the Jews المكوّنة من ٧ مجلدات وجمع فيها كل التراث اليهودي المتعلق بالكتاب المقدس.

نصفهم يتحرك عن يمينهم والنصف الآخر عن شمالهم.

في السماء الأولى، رأى موسى أنهاراً تتلوها أنهارٌ من الماء، ولاحظ أن السماء بأكملها كانت تتألف من نوافذ، يقف عند كل منها ملائكة. وقام ميتاترون بتسمية جميع نوافذ السماء والإشارة إليها له: نافذة الصلاة ونافذة التضرع؛ نافذة البكاء ونافذة الفرح؛ الوفرة والمجاعة؛ الغنى والفقر؛ الحرب والسلام؛ الحمل والولادة؛ الوابل والأمطار الخفيفة؛ الخطيئة والتوبة؛ الحياة والموت؛ الوباء والشفاء؛ المرض والصحة؛ ونوافذ أخرى كثيرة غيرها.

وفي السماء الثانية، رأى موسى الملاك «نورييل»، وهو واقفٌ على ارتفاع ثلاثمائة فرسخ، ومعه حاشيته المكونة من خمسين ربوة -خمسين مائة ألف- من الملائكة، وكلهم مخلوقون من ماءٍ ونار، وظلت وجوههم جميعاً ملتفتة نحو السكينة الإلهية وهم ينشدون ترنيمة ثناءً لله. وأوضح ميتاترون لموسى أن هؤلاء هم الملائكة المكونون بالسحاب، والرياح، والأمطار، والذين يعودون مسرعين، بمجرد تنفيذهم لمشيئة خالقهم، إلى مقامهم في السماء الثانية، ليسبحوا هناك بحمد الله.

في السماء الثالثة، رأى موسى ملاكاً شاهق الطول بحيث يستغرق الكائن البشري خمسمائة عام ليرتقي إلى قامته. وكان له سبعون ألف رأس، وفي كل رأس مثل ذلك من الأفواه، وفي كل فم مثل ذلك من الألسنة، وعلى كل لسان مثل ذلك من الأقاويل، وكان هذا الملاك -برفقة حاشيته المكونة من سبعين ألف ربوة من الملائكة المخلوقين من نار بيضاء- يسبح الرب ويمجده. وقال ميتاترون لموسى: «هؤلاء يُدعون "إريليم" -ملائكة الألسنة/العظماء-، وهم موكلون بالعشب، والأشجار، والثمار، والحبوب، وبمجرد أن ينفذوا مشيئة خالقهم، يعودون إلى المكان المخصص لهم، ويسبحون الله».

وفي السماء الرابعة، رأى موسى هيكلاً -معبداً-^(١) كانت أعمدته مصنوعة من نار حمراء، وعوارضه من نار خضراء، وأعتابه من نار بيضاء، وألواحته ومشابكه من نار ملتهبة، وبواباته من الجمر المتوقد، وقيابه من الياقوت الأحمر. وكانت الملائكة تدخل الهيكل وتسبح الله هناك. ورداً على سؤال من موسى، أخبره ميتاترون بأنهم يهيمون على الأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والأجرام السماوية الأخرى، وكلهم يترنمون بالأنشيد أمام الله. وفي هذه السماء، لاحظ موسى أيضاً كوكبين عظيمين، هما الزهرة والمريخ، وكل منهما بحجم الأرض بأكملها، وحول هذين الكوكبين سأل عن الغاية التي خُلقا من أجلها. وأوضح ميتاترون بناءً على ذلك، أن كوكب الزهرة يقع فوق الشمس ليوفر لها التبريد في الصيف، وإلا لأحرقت الأرض، ويقع كوكب المريخ فوق القمر، ليمنه بالدفء، لئلا تجمد الأرض بسبب برودته.

وعند وصوله إلى السماء الخامسة، رأى موسى حشوداً من الملائكة، كانت أجزاءهم السفلية من ثلج وأجزاءهم العلوية من نار، ومع ذلك لم يكن الثلج يذوب ولا النار تنطفئ؛ إذ أرسى الله تناغماً تاماً بين هذين العنصرين. وهؤلاء الملائكة، الذين يُدعون «إيشيم» -ملائكة البشر/الأنفس- لم يكن لديهم عمل منذ يوم خلقهم سوى تسبيح الرب وتمجيده.

وفي السماء السادسة، كان هناك الملايين والربوات من الملائكة يسبحون الله، وكانوا يُدعون «عيرين» و«قديشيم»، أي «الساهارون» و«المقدسون»، وكان رئيسهم مخلوقاً من برد، وكان شاهق الطول بحيث يستغرق السير لمسافة تعادل قامته خمسمائة عام.

١. تذكر بعض روايات المسلمين أن البيت المعمور المذكور في القرآن موجود في السماء الرابعة، وأنه بمثابة الكعبة لأهل السماء كالملائكة والروح.

وفي السماء الأخيرة، السابعة، رأى موسى ملاكين، يبلغ ارتفاع كل منهما خمسمائة فرسخ، وقد صيغا من سلاسل من نار سوداء ونار حمراء، وهما الملاكان «آف» أي «الغيظ»، و«حيماء» أي «الغضب»، اللذان خلقهما الله في بدء الخليقة لينفذا مشيئته. وقد تملك موسى الاضطراب عندما نظر إليهما، لكن ميتاترون ضمه إليه وقال: «يا موسى، يا موسى، يا حبيب الله، لا تحف ولا تتروع»، فاستعاد موسى سكينته نفسه.

وكان هناك ملاك آخر في السماء السابعة، يختلف في مظهره عن سائر الملائكة الآخرين، وذو سحنة مفزعة؛ وكان طوله عظيماً جداً بحيث يستغرق قطع مسافة تعادل قامته خمسمائة عام، وكان مرصعاً من هامة رأسه إلى أخمص قدميه بأعين واجفة شاحصة، يختر من يراها ساجداً من شدة الهيبة. وقال ميتاترون مخاطباً موسى: «هذا هو "سمائيل"، الذي يقبض أرواح البشر». فجثا موسى وسأل: «إلى أين يذهب الآن؟»، فأجابه ميتاترون: «ليقبض روح أيوب البار». وعلى إثر ذلك، دعا موسى ربه بهذه الكلمات: «اللَّهُمَّ اجعلها مشيئتكَ، يا إلهي وإله آبائي، ألا تسلمني إلى يد هذا الملاك».

وهنا، في أعلى السماوات، رأى أيضاً ملائكة «السرافيم»-الملائكة المشتعلة- بأجنحتهم الستة؛ فبائنين يغطون وجوههم لئلا يشخصوا بأبصارهم نحو السكينة الإلهية، وبائنين يغطون أقدامهم-التي تُشبه أقدام العجول- فيخفونها لإبقاء خطيئة إسرائيل المتمثلة في عبادة العجل الذهبي سراً. وبالزوج الثالث من الأجنحة يطفرون ويقومون بخدمة الرب، وهم يهتفون طوال الوقت: «قدوس، قدوس، قدوس رب الجنود؛ الأرض كلها مملوءة من مجده». وتتميز أجنحة هؤلاء الملائكة بحجمها الهائل، إذ يستغرق الإنسان خمسمائة عام ليقطع طولها وعرضها، وهي كالمسافة من أقصى الأرض إلى أقصاها.

ورأى موسى في السماء السابعة أيضاً «الحيوانات المقدسة» -مخلوقات العرش الحية- التي تحمل عرش الله؛ كما عاين أيضاً الملاك «زاغراغيل»، أمير التوراة والحكمة، الذي يُعلم التوراة بسبعين لغة لأرواح البشر، وبعد ذلك يعتزون بالوصايا الواردة فيها كشرائع أوحى بها الله إلى موسى في سيناء. ومن هذا الملاك ذي قرون الجلال، تعلم موسى نفسه الأسرار العشرة كلها.

وبعد أن رأى ما في السماوات السبع، خاطب الله قائلاً: «لن أغادر السماوات إلا إذا وهبتني عطية»، فأجابه الله: «سأهبك التوراة، وسيدعوها البشرُ شريعة موسى». زيارة الجنة والنار:

وعندما كان موسى على وشك مغادرة السماء، نادى صوتٌ سماوي معلناً: «يا موسى، لقد أتيت إلى هنا، وعينت عرش جلالتي. والآن، ستعاين أيضاً الجنة والنار»، وبعث الله جبرائيلَ بمهمة إطلاعه على جهنم. ولما شارف موسى على بوابات جهنم وبدت له نيرانها، تملكه الرعب الشديد ورفض المضي قدماً. لكن الملاك طمأنه وشجعه قائلاً: «إن هناك ناراً لا تحرق فحسب بل تلتهم أيضاً، وتلك النار هي التي ستحميك من نار جهنم، بحيث يمكنك أن تطأها بقدميك دون أن تُصاب بأذى».

وما إن ولج موسى جهنم، حتى ارتدت النار متراجعةً إلى مسافة خمسمائة فرسخ، وسأله «ناسارغيل»، خازن جهنم وملاكها: «مَن أنت؟». فأجاب: «أنا موسى بن عِمرام». فقال ناسارغيل: «ليس هذا مكانك، إنما موضعك في الجنة». فأجاب موسى: «لقد جئتُ إلى هنا لأعاين مظهر قدرة الله».

وحينها قال الله لخازن جهنم: «اذهب وأر موسى جهنم، وكيف يُعامل الأشرار فيها».

وعلى الفور مضى مع موسى، يسير أمامه كالتلميذ أمام أستاذه، وهكذا ولجا جهنم معاً، فرأى موسى رجالاً يخضعون للعذاب على أيدي ملائكة العذاب؛ فكان بعض العصاة معلقين بأجفانهم، وبعضهم بآذانهم، وبعضهم بأيديهم، والبعض الآخر بالسنتهم، وكانوا يصرخون مرارةً. وكانت النساء معلقات بشعورهن وبأثدائهن، وبطرق أخرى، وكلهم يرسفون في سلاسل من نار.

وأوضح ناسارغيل قائلاً: «هؤلاء معلقون بأعينهم لأنهم نظروا بشهوة إلى زوجات جيرانهم، وبأعين طامعة إلى ممتلكات رفاقهم من البشر. وهؤلاء معلقون بآذانهم لأنهم أصغوا إلى لغو الحديث والباطل، وصرفوا آذانهم عن سماع التوراة. وهؤلاء معلقون بالسنتهم لأنهم اغتابوا الناس بالنميمة، وعودوا ألسنتهم على الثرثرة الحمقاء. وهؤلاء معلقون بأرجلهم لأنهم مشوا بها ليتجسسوا على بني جنسهم، ولم يمشوا بها إلى الكنيس ليرفعوا الصلاة لخالقهم. وهؤلاء معلقون بأيديهم لأنهم سلبوا بها جيرانهم ممتلكاتهم واقترفوا القتل. وهؤلاء النساء معلقات بشعورهن وأثدائهن لأنهن كشفن عنها في حضور الشبان، فتملكتهن الشهوة نحوهن ووقعوا في الخطيئة».

وسمع موسى جهنم تزار بصرخة مدوية ومريرة، وهي تقول لناسارغيل: «أعطني شيئاً لآكله، فأنا جائعة». فقال ناسارغيل: «وماذا أعطيك؟». فقالت جهنم: «أعطني أرواح الأتقياء الصالحين». فأجاب ناسارغيل: «إن القدوس، تبارك وتعالى، لن يُسلم إليك أرواح الأتقياء الصالحين».

ورأى موسى موضعاً يدعى «علوقة»، حيث كان العصاة معلقين بأرجلهم، ورؤوسهم منكسةً إلى الأسفل، وأجسادهم مغطاةً بالديدان السوداء، يبلغ طول كل دودة منها خمسمائة فرسخ. وكانوا ينتحبون ويصرخون: «ويلٌ لنا من عذاب جهنم! آتينا الموت

لنموت!». وأوضح ناسارغيل قائلاً: «هؤلاء هم العصاة الذين حلفوا زوراً، وانتهكوا حرمة السبت والأيام المقدسة، وازدروا الحكماء، ونبزوا جيرانهم باللقاب قبيحة، وظلموا اليتيم والأرملة، وشهدوا شهادة الزور؛ لذا أسلمهم الله إلى هذه الديدان».

ومضى موسى من هناك إلى موضع آخر، فرأى فيه عصاةً منبطحين على وجوههم، وألفا عقرب تجلدهم، وتلدغهم، وتعذبهم، بينما كان الضحايا المعذبون يصرخون بمرارة. وكان لكل عقرب من هذه العقارب سبعون ألف رأس، وفي كل رأس سبعون ألف فم، وفي كل فم سبعون ألف لدغة، وفي كل لدغة سبعون ألف كيس من السم والذعاف، يُجبر العصاة على تجرعها، على الرغم من أن الألم يكون مبرحاً لدرجة تجعل أعينهم تذوب في مآقيها. وأوضح ناسارغيل قائلاً: «هؤلاء هم العصاة الذين تسببوا في خسارة بني إسرائيل لأموالهم، والذين استكبروا على الجماعة، والذين أخزوا جيرانهم علانية، والذين أسلموا رفاقهم من بني إسرائيل إلى أيدي الأغيار - غير اليهود - والذين جحدوا تورا موسى، وزعموا أن الله ليس خالق العالم».

ثم رأى موسى موضعاً يُدعى «طيط هيافن» - المستنقع الآسن - وفيه يقف العصاة في الطين والوحل حتى سُررهم، بينما يجلدتهم ملائكة العذاب بسلاسل نارية، ويهشمون أسنانهم بحجارة من نار من الصباح حتى المساء، وخلال الليل يجعلون أسنانهم تنبت وتنمو مجدداً بطول فرسخ كامل، ليُهشموها من جديد في الصباح التالي. وأوضح ناسارغيل قائلاً: «هؤلاء هم العصاة الذين أكلوا الميتة واللحم المحرم، والذين أقرضوا أموالهم بالربا، والذين كتبوا اسم الله على التماثيل للأغيار، والذين غشوا في الموازين والمكاييل، والذين سرقوا أموال رفاقهم من بني إسرائيل، والذين أكلوا في يوم الغفران، والذين أكلوا الشحوم المحرمة، والحيوانات والزواحف المقيتة، والذين شربوا الدم».

ثم قال ناسارغيل لموسى: «تعال وانظر كيف يُحرق العصاة في جهنم»، فأجاب موسى: «لا أستطيع الذهاب إلى هناك»، لكن ناسارغيل ردَّ قائلاً: «ليتقدمك نورُ السكينة الإلهية، ولن يكون لنار جهنم أي سلطة عليك». فأذعن موسى، ورأى كيف يُحرق العصاة؛ حيث كان نصف أجسادهم مغموراً في النار والنصف الآخر في الثلج، بينما كانت الديدان التي تولدت في لحومهم ترحف فوقهم، وملائكة العذاب يضربونهم بلا هوادة. وأوضح ناسارغيل قائلاً: «هؤلاء هم العصاة الذين ارتكبوا محارم القربى، والقتل، وعبادة الأصنام، والذين لعنوا والديهم ومعلميهم، والذين سموا أنفسهم آلهة، مثل النمرود وغيره».

وفي هذا الموضع، الذي يُدعى «أَبْدُون» -الهاوية- رأى العصاة وهم يأخذون الثلج خفيةً ويضعونه تحت آباطهم، ليخففوا من الألم الذي يسببه اللهب الحارق، وتيقن من صدق المقولة: «إن الأشرار لا يصلحون من طرقهم حتى عند بوابة جهنم». ولما غادر موسى جهنم، دعا ربه قائلاً: «اللَّهُمَّ اجعلها مشيئتك، يا ربِّي وإله آبائي، أن تنقذني وتنقذ شعب إسرائيل من هذه المواضع التي رأيتها في جهنم». لكن الله أجابه قائلاً: «يا موسى، ليس عندي محابة للوجوه ولا قبول للرشا؛ فَمَنْ يعمل صالحاً يدخل الجنة، وَمَنْ يفعل شراً فلا بدَّ أن يذهب إلى جهنم». وبأمرٍ من الله، قاد جبرائيلُ موسى الآن إلى الجنة. وما إن ولجها حتى أقبل نحوه ملاكان، وقالا له: «لم يحن وقتك بعد لتغادر الدنيا»، فأجابهما موسى: «ما تقولانه حق، لكنني جئتُ لأعاین ثواب الأتقياء الصالحين في الجنة». وحينها مجَّد الملاكان موسى وأثنيا عليه قائلين: «طوبى لك يا موسى، يا عبد الله! طوبى لك يا موسى، يا مولود امرأة، الذي وُجد جديراً بالعروج إلى السماوات السبع! طوبى للأمة التي تنتمي إليها!».

وتحت شجرة الحياة^(١)، رأى موسى الملاك «شَمْشَيْثِيل» -شمس الله- أمير الجنة وخازنها، الذي قاده في أرجائها وأطلععه على كل ما فيها. فرأى سبعين عرشاً مصنوعة من الأحجار الكريمة، تركز على قوائم من الذهب الخالص، ويحُفُّ بكل عرش منها سبعون ملاكاً. غير أنَّ أحداً منها كان أعظم وأكبر من سائر العروش كلها، وكان محاطاً بمائة وعشرين ملاكاً؛ وكان هذا هو عرش إبراهيم.

ولما أبصر إبراهيم موسى، وعلم مَنْ يكون وما غايته من زيارة الجنة، هبط قائلاً: «سبحوا الرب لأنه صالح، لأن إلى الأبد رحمته».

وسأل موسى شَمْشَيْثِيل عن مساحة الجنة، ولكن حتى هو -رغم كونه أميراً عليها- لم يستطع الإجابة عن السؤال، إذ ليس بمقدور أحدٍ قياسها؛ فلا هي تُمسح، ولا تُسبر أغوارها، ولا تُحصى.

بيد أن شَمْشَيْثِيل أوضح لموسى شأن العروش، مبيناً أنها تختلف عن بعضها البعض؛ فبعضها من فضة، وبعضها من ذهب، وبعضها من أحجار كريمة ولآلئ وياقوت وجمهر متوقد. فالعروش المصنوعة من اللآلئ هي للعلماء الذين يدرسون التوراة آناء الليل وأطراف النهار لوجهها خالصاً؛ وتلك المصنوعة من الأحجار الكريمة هي للأتقياء؛ ومنابر الياقوت للصديقين العادلين؛ ومنابر الذهب للعصاة التائبين؛ ومنابر الفضة للمهتدين الصالحين، الأغيار الذين اعتنقوا الدين.

وتابع شَمْشَيْثِيل قائلاً: «إن أعظمها على الإطلاق هو عرش إبراهيم، يليه في الحجم عرش إسحاق ويعقوب، ثم تأتي عروش الأنبياء، والأولياء، والصالحين، كُلٌّ وفقاً لقيمة

١. ولعلها تقابل سدرة المنتهى في وصف الروايات الإسلامية.

المرء، ومنزلته، وما قدمه من صالح الأعمال في حياته». وحينها سأل موسى لِمَنْ خُصَّص ذلك العرش المصنوع من النحاس، فأجابه الملاك: «هو للعاصي الذي رزقه الله ابناً صالحاً تقياً؛ فبفضل مناقب ابنه وصلاحه، ينال هذا العرش نصيباً له».

ومرةً أخرى، نظر موسى فأبصر ينبوعاً من ماء الحياة ينبثق من تحت شجرة الحياة، وينقسم إلى أربعة أنهار تمرُّ من تحت عرش الجلال، ومن هناك تحفُّ بالجنة من أقصاها إلى أقصاها.

ورأى أيضاً أربعة أنهار تجري تحت كل عرش من عروش الأتقياء؛ أولها من غسل، والثاني من لبن، والثالث من خمر، والرابع من بلسان خالص. وإذا عاين كل هذه الخيرات المبهجة والمستطابة، تملك موسى فرحٌ عظيم، وقال: «آه! ما أعظم جودك الذي ذخرته للذين يخافونك، وصنعتهم للذين يتوكلون عليك أمام بني البشر!». وحينها غادر موسى الجنة، وعاد إلى الأرض^(١).

فهل لهذه الرواية اليهودية لمعراج النبي موسى تأثيراً على ما رواه المسلمون حول معراج نبينا؟ ولنلاحظ التشابه في بعض المقاطع مع ما جاء في بعض الروايات الإسلامية:

١. في تفسير ابن كثير: (.... أنس بن مالك يقول ليلة أسري برسول الله «صلى الله عليه وسلم» من مسجد الكعب ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناده أهل السماء: من هذا؟ فقال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد «صلى الله عليه وسلم». قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً، يستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم. ووجد

في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم، فسلم عليه. فسلم عليه، ورد عليه آدم فقال: مرحبا وأهلا بابني، نِعْم الابن أنت! فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: ما هذان النهران يا جبريل؟ قال: هذان النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك، ثم عرج إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد «صلى الله عليه وسلم». قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحبا وأهلاً وسهلاً، ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السادسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم، قد وعيت منهم إدريس^(١) في الثانية... إلخ الخبر^(٢).

وفي نفس المصدر: (عن أنس قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لَمَّا عَرَجَ بِي إِلَى رَبِّي «عَزَّ وَجَلَّ»، مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نَحَاسٍ، يَخْمَشُونَ وَجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحُومَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ^(٣)).

وفي كتاب الكبائر لشمس الدين الذهبي: (وقال علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»

١. وهو أخنوخ بحسب البعض، وقد ورد ذكره أيضاً في الرواية اليهودية.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص ٣٧٤-٣٧٥.

٣. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٨، ص ٣٨٠.

دخلت على النبي «صلى الله عليه وسلم» أنا وفاطمة «رضي الله عنها» ووجدناه يبكي بكاءً شديداً، فقلت له: فداك أبي وأمي يا رسول الله، ما الذي أبكاك؟ قال: يا علي، ليلة أسري بي إلى السماء، رأيت نساء من أمتي يعدّبن بأنواع العذاب، فبكيت لما رأيت من شدّة عذابهن، ورأيت امرأة معلقة بشعرها، يغلي دماغها، ورأيت امرأة معلقة بلسانها والحميم يُصبّ في حلقها، ورأيت امرأة قد شدّت رجلاها إلى ثدييها ويداها إلى ناصيتها، ورأيت امرأة معلقة بثدييها، ورأيت امرأة رأسها رأس خنزير وبدنها بدن حمار، عليها ألف ألف لون من العذاب، ورأيت امرأة على صورة الكلب والنار تدخل من فيها وتخرج من دبرها، والملائكة يضربون رأسها بمقامع من نار! فقامت فاطمة «رضي الله عنها» وقالت: حبيبي وقرّة عيني، ما كان أعمال هؤلاء حتى وضع عليهن العذاب؟ فقال «صلى الله عليه وسلم»: يا بنية، أمّا المعلقة بشعرها فإنها كانت لا تغطي شعرها من الرجال، وأمّا التي كانت معلقة بلسانها فإنها كانت تؤذي زوجها، وأمّا المعلقة بثدييها فإنها كانت تفسد فراش زوجها، وأمّا التي تشدّ رجلاها إلى ثدييها ويداها إلى ناصيتها وقد سلط عليها الحيات والعقارب فإنها كانت لا تنظف بدنها من الجنابة والحيض وتستعزى بالصلاة، وأمّا التي رأسها رأس خنزير وبدنها بدن حمار فإنها كانت نّامة كذّابة، وأمّا التي على صورة الكلب والنار تدخل من فيها وتخرج من دبرها فإنها كانت متّانة حسّادة^(١).

أليس بين هذه وتلك من التشابه والتلاقي ما يجعل الباحث يتوقّف قليلاً ليفكر في الأمر، ويحتمل أنّ في البين خللاً ما؟ وقد تكون اليد اليهودية قد امتدّت إلى مفردة الإسراء كحدث ذكر في القرآن، فأعطته بعداً إضافياً هو المعراج بتلك التفاصيل؟

١. الذهبي: الكبائر، ص ١٧٧-١٧٨.

• خاتمة:

أخيراً، لا بدّ من التنويه إلى أنّ اختلاف وجهات النظر أمر طبيعي، ولا بد من فتح المجال للتفكير والنقاش والبحث في الإطار العلمي، وإذا كان الناس قد اعتادوا على سماع وجهة نظر واحدة متّفق عليها لمُدّة طويلة من الزمن، أو كان الأمر مشهوراً بينهم، فإنّ هذا لا يعني بالضرورة صحّة ذلك، فقد يستمرّ الخطأ لقرون مديدة تتداوله الأجيال على أنه حقيقة لا لبس فيها، ولربما وضعوا لها عنواناً دينياً مقدّساً، ثم يتفاجأ جيل من هذه الأجيال بأنّ تصوراتهم السابقة كانت خاطئة تماماً، وأنّ الحقيقة في اتجاه مغاير تماماً، شريطة أن يكون الرأي أو الاجتهاد الجديد مبنياً على أدلّة واضحة وقوية، وليست مجرد تخمينات وافتراسات واهية لا تقف على أرض صلبة.

وهناك أمثلة كثيرة، أبسطها اعتقاد الناس أنّ الأرض هي مركز الكون والوجود، وأنّ الشمس والنجوم والكواكب إنما تدور حول هذا المركز، وقد أعطى المسيحيون لهذه الفكرة -على مدى قرون ممتدة- قدسيّة منطلقة من أنّ تواجد المسيح على الأرض لبرهة من الزمن ثم عودته إليها عند قيامته لاحقاً لا يدع مجالاً لافتراض أنّ الأرض ليست مركزاً للكون... ثم تبين خطأ هذا كله! فلنكن أتباع الدليل فحسب، لأنّ الظن لا يغني من الحق شيئاً.

• خلاصة الفصل:

○ السيرة النبوية -شأنها شأن سائر الأحاديث والأخبار تعرّضت للوضع والتزييف والتحريف والإضافة والتبديل... وللقرآن الكريم حاكمية تُلزمنا بالعرض عليه والتقييم من خلاله.

○ بينما ذُكر الإسراء في القرآن مرّة واحدة، اختلفت الأقوال في عدد مرات المعراج، حتى قال البعض بعروج النبي ١٢٠ مرّة.

○ تضاربت تفاصيل أحداث المعراج في الروايات بشكل كبير، وفي بعضها ما يشير إلى اليد الإسرائيلية التي عبثت في مضامينها كما شاءت، بالإضافة إلى وضوح أسلوب القصّاصين في البعض الآخر وبصماتهم التي لا تخفى على الخبير.

○ وقع الخلاف بين أصحاب الرأي في كيفية المعراج، ولم يتفقوا بأجمعهم على أنّه كان مجسد النبي وروحه الشريفة، بل قال بعضهم بوقوع المعراج في المنام، كما فصل البعض بين معراج وآخر من حيث الكيفية.

○ تناولت بعض روايات المعراج وصف سدرة المنتهى وأنهار الجنة الممتدة إلى الأرض وماهيّة البراق وعلاقته بالرسل الماضين، وفيها الكثير من الأساطير والأخطاء العلمية والتفاصيل المتضاربة وغير المنطقية.

○ تمّ توظيف بعض روايات المعراج في الصراع المذهبي، بين إثبات لفضيلة للخليفة أو الإمام، ودعم للقول بشرعيّته أو بطلان شرعيّة من سواه.

○ بعض مرويات اليهود حول النبي موسى تنسب له معراجاً للسماء عند مبعثه، وفي تفاصيل ذلك الحدث ما يلتقي مع بعض مرويات المسلمين حول معراج النبي.

مصادر الكتاب

المصادر العربية

١. القرآن الكريم
٢. الكتاب المقدس
٣. ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله؛ شرح نهج البلاغة؛ القاهرة - مصر: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩ م.
٤. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد؛ زاد المسير في علم التفسير؛ بيروت لبنان: دار الكتاب العربي، ١٤٤٢ هـ، ط ١.
٥. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ مصر: المكتبة السلفية، ١٣٩٠ هـ، ط ١.
٦. ابن حماد، نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي؛ الفتن؛ القاهرة مصر: مكتبة التوحيد، ١٤١٢ هـ، ط ١.
٧. ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن، السلافي؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ المدينة النبوية المملكة العربية السعودية: مكتبة الغرباء الأثرية، ١٩٩٦، ط ١.
٨. ابن جزي، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، الكلبي الغرناطي؛ التسهيل لعلوم التنزيل؛ بيروت - لبنان: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٤١٦ هـ، ط ١.
٩. ابن سلامة، هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي المقرئ؛ الناسخ والمنسوخ؛ بيروت - لبنان: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤ هـ، ط ١.
١٠. ابن عاشور، محمد الطاهر؛ التحرير والتنوير؛ تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ م.
١١. ابن عبد البر، يوسف بن عبد البر؛ جامع بيان العلم وفضله؛ السعودية: دار ابن الجوزي، ١٩٩٤، ط ١.

١٢. ابن عطية، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي؛ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز؛ بيروت لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٤٢ هـ.ق.
١٣. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب؛ زاد المعاد في هدي خير العباد؛ بيروت لبنان: دار ابن حزم، ٢٠١٩، ط ٣.
١٤. ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر؛ البداية والنهاية؛ القاهرة - مصر: مطبعة السعادة، ١٣٤٨ - ١٣٥٨ هـ.ق، ط ١.
١٥. ابن كثير الدمشقي، إسماعيل بن عمر؛ تفسير القرآن العظيم؛ بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٩ هـ.ق، ط ١.
١٦. ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري؛ السيرة النبوية؛ مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٥، ط ٢.
١٧. أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد المرواني الأموي القرشي؛ الأغاني؛ بيروت لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٢ هـ.ق، ط ٢.
١٨. أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى التميمي؛ مسند أبي يعلى الموصلي؛ القاهرة مصر: دار الحديث، ٢٠١٣، ط ١.
١٩. أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا؛ معجم مقاييس اللغة؛ بيروت - لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩ م.
٢٠. أبي النضر العياشي، محمد بن مسعود؛ التفسير؛ طهران - إيران: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، ١٤٢١ هـ.ق، ط ١.
٢١. الأزرق، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد؛ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار؛ بيروت لبنان: دار الأندلس، ١٩٨٣، ط ٣.
٢٢. الإفريقي، محمد بن مكرم بن علي بن منظور؛ لسان العرب؛ تصوير وزارة الأوقاف السعودية عن طبعة الأميرية ببولاق، ١٣٠٠ هـ.ق.
٢٣. الألوسي، محمود بن عبد الله؛ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني؛ بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ.ق، ط ١.
٢٤. الأنصاري القرطبي، محمد بن أحمد؛ الجامع لأحكام القرآن؛ القاهرة - مصر: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤ هـ.ق، ط ٢.

٢٥. باقر، طه؛ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة؛ لندن إنجلترا: شركة دار الوراق للنشر، ٢٠٠٩-٢٠١١، ط ١.
٢٦. البحراني، سيد هاشم بن سليمان الموسوي الكتكاني التوبلاني؛ البرهان في تفسير القرآن؛ بيروت لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠٦.
٢٧. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة؛ التاريخ الكبير؛ حيدرآباد الدكن الهند، دائرة المعارف العثمانية.
٢٨. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة؛ الجامع المسند الصحيح (صحيح البخاري)؛ مصر: دار التأصيل للبحث العلمي والترجمة والنشر مركز البحوث وتقنية المعلومات، ١٤٣٣ هـ ق، ط ١.
٢٩. بدر الدين العيني، محمود بن أحمد؛ عمدة القاري شرح البخاري؛ بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢١ هـ ق.
٣٠. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي؛ أنوار التنزيل وأسرار التأويل؛ بيروت لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨ هـ ق، ط ١.
٣١. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة؛ الجامع الكبير - سنن الترمذي؛ دار الرسالة العالمية، ٢٠٠٩، ط ١.
٣٢. تقي الدين المقرئ، أحمد بن علي بن عبد القادر؛ مختصر الكامل في الضعفاء، القاهرة مصر: مكتبة السنة، ١٩٩٤، ط ١.
٣٣. الجلال السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر؛ الدر المنثور في التفسير المأثور؛ بيروت - لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٣٢ هـ ق.
٣٤. الجواهري، محمد؛ المفيد من معجم رجال الحديث؛ بيروت لبنان: مؤسسة التاريخ العربي، ٢٠٠٩.
٣٥. الجويني، إبراهيم بن محمد بن المؤيد؛ فرائد السمطين في فضائل المرتضى والبتول والسبطين والأئمة من ذريتهم؛ بيروت لبنان: مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، ١٩٧٨، ط ١.
٣٦. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله؛ المستدرک علی الصحیحین؛ بيروت لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠، ط ١.

٣٧. حب الله، حيدر حجّية الحديث؛ بيروت لبنان: مؤسّسة الانتشار العربي، ٢٠١٦، ط ١.
٣٨. الحر العاملي، حمد بن الحسن؛ تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة؛ قم - إيران: مؤسّسة آل البيت.
٣٩. حرب، محمد ومرعي، عبد؛ دول وحضارات الشرق العربي القديم؛ دمشق سورية: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٤، ط ٢.
٤٠. الخازن؛ علي بن محمد بن إبراهيم؛ البغوي، الحسين بن مسعود؛ لباب التأويل في معاني التنزيل ومعه معالم التنزيل؛ بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ.ق.
٤١. الخليلي، جعفر؛ موسوعة العتبات المقدسة؛ بيروت - لبنان: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٨٧، ط ٢.
٤٢. الخوئي، أبو القاسم بن علي أكبر بن هاشم الموسوي؛ معجم رجال الحديث؛ قم إيران: مركز نشر آثار الشيعة، ١٤١٠، ط ٤.
٤٣. الرّاجحي، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن؛ شرح الاقتصاد في الاعتقاد؛ نسخة إلكترونية على موقع المكتبة الشاملة.
٤٤. الرّاجحي، عبد العزيز بن عبد الله؛ قمع الدجاجة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة؛ الرياض: المملكة العربية السعودية: مطابع الحميضي، ١٤٢٤ هـ.ق، ط ١.
٤٥. الراوندي؛ سعيد بن هبة الله؛ الخرائج والجرائح؛ قم إيران: مؤسّسة الإمام المهدي، ١٤٠٩ هـ.ق.
٤٦. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر؛ البرهان في علوم القرآن، القاهرة مصر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١٩٥٧، ط ١.
٤٧. الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد؛ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل؛ القاهرة - مصر: دار الريان، ١٤٠٧ هـ.ق، ط ٣.
٤٨. السخاوي، علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي؛ جمال القرآن وكمال الإقراء؛ بيروت لبنان: دار المأمون للتراث، ١٩٩٧، ط ١.
٤٩. السلمي، وسف بن يحيى بن علي بن عبد العزيز المقدسي؛ كتاب عقد الدرر في أخبار المنتظر؛ الزرقاء الأردن: مكتبة المنار، ١٩٨٩، ط ٢.
٥٠. السيد رامي يوزيكي؛ الوضاعون وأحاديثهم من كتاب الغدير؛ مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ١٩٩٩، ط ١.

٥١. السيستاني، علي الحسيني؛ مناسك الحج وملحقاته؛ دار البلاغ للصحافة والطباعة والنشر، ٢٠٠٨.
٥٢. السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر؛ الإتقان في علوم القرآن؛ مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.
٥٣. الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين؛ في ظلال القرآن؛ بيروت لبنان: دار الشروق، ١٤١٢ هـ، ط ١٧.
٥٤. الشعراي، عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي؛ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر والكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر؛ بيروت - لبنان: دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ١٩٩٥، ط ١.
٥٥. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني؛ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن؛ بيروت - لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥.
٥٦. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد؛ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة؛ بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية.
٥٧. الشيباني، أحمد بن حنبل؛ المسند؛ بيروت - لبنان: مطبعة الرسالة، ١٤٢١ هـ.
٥٨. الشيرازي، ناصر مكارم؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل؛ قم - إيران: مؤسسة البعثة، ١٩٩٢ م.
٥٩. الصالحي الشامي، محمد بن يوسف؛ سبل الهدى والرشاد؛ بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣، ط ١.
٦٠. الصدر، السيد محمد؛ ما وراء الفقه؛ بيروت - لبنان: دار حضارة أكد للنشر والتوزيع، ١٤٢٨ هـ.
٦١. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين؛ الأمالي؛ قم إيران: مؤسسة البعثة، ١٤١٧ هـ، ط ١.
٦٢. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين؛ ثواب الأعمال عقاب الأعمال؛ قم إيران: طليعة نور، ١٤٣١ هـ، ط ٥.
٦٣. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين؛ علل الشرائع؛ النجف الأشرف العراق: المكتبة الحيدرية ومطبعتها، ١٩٦٦.
٦٤. الصدوق، محمد؛ معاني الأخبار؛ طهران إيران: مكتبة الصدوق، ١٣٧٩ هـ.

٦٥. الصدوق، محمد بن علي بن الحسين؛ من لا يحضره الفقيه؛ قم إيران: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٤ هـ، ط ٢.
٦٦. الصفار، محمد بن الحسن؛ بصائر الدرجات في فضائل آل محمد؛ قم - إيران: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، ١٤٠٤ هـ ق.
٦٧. الطباطبائي، محمد حسين؛ الميزان في تفسير القرآن؛ إيران - قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٧ هـ، ط ٥.
٦٨. الطبراني، سليمان بن أحمد؛ الدعاء؛ بيروت لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ، ط ١.
٦٩. الطبراني، سليمان بن أحمد؛ المعجم الأوسط؛ القاهرة - مصر: دار الحرمين، ١٤١٥ هـ.
٧٠. الطبرسي، الفضل بن الحسن؛ مجمع البيان في تفسير القرآن؛ بيروت - لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٥ م، ط ١.
٧١. الطبري، محمد بن جرير؛ تاريخ الأمم والملوك؛ مصر: دار المعارف، ١٣٨٧ هـ، ط ٢.
٧٢. الطبري، محمد بن جرير؛ جامع البيان في تأويل القرآن؛ القاهرة، مصر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ١٤٢٢ هـ، ط ١.
٧٣. الطوسي، محمد بن الحسن؛ تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للشيخ المفيد؛ طهران - إيران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٩٠ هـ ق.
٧٤. العاملي، زين الدين بن علي بن أحمد الجبعي؛ الدراية في علم مصطلح الحديث؛ النجف العراق: مطبعة النعمان.
٧٥. عثمان بن عبد الرحمن، تقي الدين المعروف بابن الصلاح؛ معرفة أنواع علوم الحديث، ويُعرف بمقدمة ابن الصلاح؛ بيروت لبنان: دار الفكر المعاصر، ١٩٨٦.
٧٦. عز الدين ابن الأثير، علي بن محمد الجزري؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة؛ بيروت لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤، ط ١.
٧٧. عز الدين ابن الأثير، علي بن محمد الجزري؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة؛ الكامل في التاريخ؛ بيروت لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧، ط ١.
٧٨. العلامة الحلي، الحسن بن يوسف بن علي بن محمد بن مُطهر؛ منتهى المطلب في تحقيق المذهب؛ مشهد إيران: مؤسسة الطبع والنشر في الأستانة الرضوية المقدسة، ١٤١٢ هـ ق.
٧٩. الغزالي السقا، محمد؛ فقه السيرة؛ دمشق سورية: دار القلم، ١٤٢٧ هـ، ق، ط ١.

٨٠. الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسن؛ التفسير الكبير؛ بيروت - لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠١هـ.ق.
٨١. فضل الله، محمد حسين؛ من وحي القرآن؛ بيروت - لبنان: دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٣.
٨٢. الفهداوي، عمار؛ المعبر من بحار الأنوار؛ بيروت - لبنان: دار المحجة البيضاء، ٢٠١٦، ط ١.
٨٣. القاري، الملا علي الهروي الحنفي؛ شرح الشفاء للقاضي عياض؛ بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١، ط ١.
٨٤. القاري، الملا علي الهروي الحنفي؛ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح؛ بيروت - لبنان: دار الفكر، ٢٠٠٢، ط ١.
٨٥. القرطبي، محمد بن أحمد القرطبي؛ التذكار في فضل الأذكار؛ دمشق سورية: مكتبة دار البيان، ١٣٩٢هـ.
٨٦. القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك؛ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية؛ القاهرة - مصر: المكتبة التوفيقية.
٨٧. القمي، علي بن إبراهيم؛ تفسير القمي؛ قم - إيران: مؤسسة الإمام المهدي ١٤٣٥هـ.ق، ط ١.
٨٨. الكليني، محمد بن يعقوب؛ الكافي؛ بيروت: لبنان: منشورات الفجر، ٢٠٠٧م، ط ١.
٨٩. الكوراني، علي العاملي؛ عصر الظهور؛ قم إيران: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٨هـ.ق، ط ١.
٩٠. المباركفوري، صفى الرحمن؛ الرحيق المختوم؛ بيروت: لبنان: دار الفكر، ٢٠٠٢.
٩١. المجلسي، محمد باقر؛ بحار الأنوار لدرر أخبار الأئمة الأطهار؛ بيروت - لبنان: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ.ق.
٩٢. مجمع الكنائس الشرقية؛ قاموس الكتاب المقدس؛ بيروت - لبنان: مكتبة المشغل، ١٩٨١م، ط ٦.
٩٣. محسني، محمد آصف؛ مشرعة بحار الأنوار؛ قم - إيران: مكتبة العزيزي، ١٤٢٣هـ.ق، ط ١.
٩٤. المخللاتي، رضوان بن محمد بن سليمان؛ القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز؛ المدينة المنورة المملكة العربية السعودية، ١٩٩٢.

٩٥. النجمي، محمد صادق؛ أضواء على الصحيحين؛ قم إيران: مؤسسة المعارف الإسلامية، ١٤١٩ هـ، ط ١.
٩٦. النيسابوري، مسلم بن الحجاج؛ المسند الصحيح (صحيح مسلم)؛ الرياض - السعودية: دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٣٦ هـ، ط ٢.
٩٧. الهيثمي، علي بن أبي بكر بن سليمان؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد؛ القاهرة مصر: مكتبة القدسي، ١٩٩٤.
٩٨. هيكل، محمد حسين؛ حياة محمد؛ المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤.
٩٩. الواحدي، علي بن أحمد بن محمد بن علي؛ أسباب نزول القرآن؛ الدمام: المملكة العربية السعودية: دار الإصلاح، ١٩٩٢، ط ٢.
١٠٠. الواقدي، محمد بن عمر بن واقد؛ المغازي؛ لندن المملكة المتحدة: جامعة أكسفورد، ١٩٦٦.

المصادر الأجنبية

1. Louis Ginzberg, Legends of the Jew, 1913, United States
2. R. W. Thomson (with contributions from J. Howard-Johnson & T. Greenwood), The Armenian History Attributed To Sebeos Part - I, V 31, Liverpool University Press.

مواقع الإنترنت

1. almerja.com
2. palinfo.com
3. sound.islamstory.com
4. st-takla.org
5. www.alukah.net
6. www.kitabat.info
7. www.sefaria.org
8. www.sistani.org

١. آفاق الجمعة: روح وفكر... ٣ أجزاء
٢. أبو الأنبياء
٣. أبيض.. أسود
٤. أحبك يا ربي: كتيب للأذكار مخصص للأطفال
٥. أحكام الحدث الأكبر
٦. أحكام الدماء الثلاثة
٧. أحكام المريض والمصاب
٨. أخلاقيات الطب وآدابه
٩. أخلاقيات المهن الحقوقية وآدابها
١٠. إضاءات على فكر الفقيه المجدد السيد فضل الله
١١. أطلس واقعة الطف
١٢. إليك يا ابني (مترجم إلى اللغة التركية)
١٣. إليك يا ولدي (مترجم إلى اللغة التركية)
١٤. إمام ومأموم... حُكم الجماعة عند الاختلاف المذهبي
١٥. بساتين الإيمان: ٤ كتب دراسية في التربية الإسلامية للمرحلة المتوسطة
١٦. تعليم الوضوء والصلاة: باللغتين العربية والإنجليزية
١٧. التفاحة الفاسدة

١٨. حروب الردة: الحقيقة والأساطير
١٩. الدرة الثمينة في أعمال مكة والمدينة
٢٠. الدليل: مرشد الزائرين للعبات المقدسة في إيران
٢١. الدينار والدرهم.. دراسة تاريخية وفقهية
٢٢. رسالة المسجد
٢٣. زوجتي العزيزة
٢٤. زوجي العزيز
٢٥. زينة الحياة
٢٦. حدائق الإيمان: ٥ كتب دراسية في التربية الإسلامية للمرحلة الابتدائية
٢٧. السيرة العسكرية لأمر المؤمنين علي
٢٨. السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد
٢٩. الشعائر الحسينية
٣٠. شهداء على أرض فخر
٣١. صلاة الجمعة
٣٢. طريق سعادي، صدر بثلاث لغات (العربية - الإنجليزية - الهندية)
٣٣. الغناء في ميزان الشرع
٣٤. الفتوحات الإسلامية... دراسة تاريخية وشرعية
٣٥. فراس: قصة للأطفال
٣٦. فك لغز الأسباط... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٣٧. الكليم موسى بن عمران .. ثلاثة أجزاء
٣٨. لا فتي إلا علي
٣٩. للشباب فقط
٤٠. ليالي عاشوراء (١٠ أجزاء)

٤١. المآتم الحسينية... أهداف وتطلعات
٤٢. محطات في الفكر والسياسة والأدب
٤٣. المرأة والستر الشرعي
٤٤. المسيح عيسى ابن مريم
٤٥. المعجم المصور للمصطلحات الفقهية
٤٦. مفاهيم حركية من وحي القرآن (في مجلدين)
٤٧. من هدي الإمام المجتبي... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٤٨. من هدي أمير المؤمنين... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٤٩. من هدي الزهراء... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٥٠. من هدي سيد الشهداء... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٥١. من هدي النبي الأكرم... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٥٢. المنبر الحسيني: أفكار ورؤى الفقيه المجدد السيد فضل الله
٥٣. منتقى الجمان من مفاتيح الجنان
٥٤. منتقيات (١٠ أجزاء)
٥٥. المنهج الرسالي في التفسير القرآني عند السيد محمد حسين فضل الله
٥٦. ميثولوجيا الخضر
٥٧. همسات. أوراق من الحكمة، جزآن
٥٨. وداع الأحبة

